العدد (٥٨١) ذو الحجة ١٤٣٤ هـ/أكتوبر - نوفمبر ٢٠١٣م

مجاناً مع العدد «براعم الإيمان»

أسست عام ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م

الوعي الإسلامي

AL-Waei AL-islami
مجلة كويتية شهرية جامعة

- فتنة الانتصار
- الرؤية الإسلامية للنظام الإجتماعي
- هل تسعى لتفوز بسلعة الله ؟
- «الصاوي شعلان » الأعمى الذي رأى كل شيء
- جامع ومدرسة ابن القيم في جنوب سورية

حرمة الدماء وهدم الكعبة

ملف العدد

براعم الإيمان

قلم صغير وفكر منير

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
قطاع الشؤون الثقافية

مجلة ثقافية تربوية اجتماعية .. لقرائنا الصغار

مجلة تعنى بشؤون الطفل تصدر عن

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
بدولة الكويت

منذ عام 1395 هـ - 1975 م

صندوق بريد: ٢٣٦١٧ - الصفاة ١٣٠٩٧ - الكويت
هاتف: ٩٦٥١٨٤٤٠٤٤+ - فاكس: ٢٢٤٧٣٧٠٩
info@baraem.alwaei.gov.kw
www. baraem.alwaei.gov.kw

للتواصل معنا

baraemaleimanq8

@baraemaleimanq8

@baraemaleimanq8

الافتتاحية

فتنة الانتصار

رئيس التحرير
فيصل يوسف العلي

إن التعاليم الحكيمة، والإرشادات القويمة، والنصائح العظيمة التي أرشد بها الرسول ﷺ أمته في خطبة الوداع: «إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا»؛ منهج تشريعيٌ عظيمٌ، لابد للأمة أن تسير على وَفقه حتى تنجح.

ولقد عدد الله في كتابه الكريم أوصاف المؤمنين، ونعتهم بنعوت كريمة، ووصفهم بأوصاف جميلة.. إخوة متراحمون متحابون، وأودع في قلوبهم الرحمة والرأفة.

ومعلوم أن حفظ النفس من الضروريات الخمس التي جاءت الشريعة لحفظها، ولأجل هذا حمى الإسلام النفوس، وصانها بسياج متين، وحصن حصين، وحرم الاعتداء عليها، إلا بالحق، وجعله من أكبر المحرمات، وأعظم الموبقات، وقرن قتل النفس بالشرك بالله، فالتمسك بكتاب الله والاجتماع على ما فيه من الصلاح والعمل بمقتضى فقه الائتلاف، والتنازل والبعد عن الشقاق والاختلاف؛ أهم أسباب النصر العاجل والآجل، وإذا تأملنا واقع الأمة اليوم، وما تمر به من المحن والابتلاء، والتنازع وإراقة الدماء، بحجة الانتصار وتطبيق شرع الله، وجدنا أن الأعداء يؤججون هذا الصراع، وهم من يحصدون نتائجه، والمسلمون لا يحصدون سوى الخيبة والفشل.. ولاشك أن الإسلام قد رسم للأمة طريق وحدتها واجتماعها، قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ الله جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ﴾(آل عمران:١٠٣).

ولتأخر النصر أسبابٌ.. وعدم الأخذ بالأسباب سبب من الأسباب، وكذلك وجود بعض الموانع؛ مثل الظلم والمعاصي والانحراف في المنهج، وتكريس الحزبية، وتفريق كلمة المسلمين، وتنافر القلوب، وعدم النضوج.. فهذه أبرز أسباب تأخر النصر الظاهر. ومن المعلوم أن الطريق إلى المستقبل المأمول ليس مفروشا بالأزهار والورود، بل هو مفروش بالأشواك والآلام، وإن التصارع والشقاق الذي يلجأ إليه بعض المسلمين عند الاختلاف والتنازع، من أظهر أسباب العجز وتخلف النصر، كما أن البغي والتنافس على الدنيا ورئاستها، والوجاهة وسائر الشهوات، والتعصب المذموم للأسماء والأشخاص، من أعظم أسباب الهزيمة والتخلف، ومن تأمل التاريخ عرف هذا، بل إن هناك جهودا خفية مستمرة منذ زمن طويل تُبذل لتفريق المسلمين وتفريغ قوتهم، والقضاء على حضارتهم الأصيلة.. وإن من المعلوم أن الأفكار والانتماءات الدخيلة قد فتكت بالأمة، وزرعت فيها المشاعر العصبية والأنانية الاجتماعية.

إن لنا بعد هذا أن نتساءل: كيف استعدت الأمة لتحقيق الانتصار المطلوب في جميع مجالات الحياة؟ نعم. لقد قامت بجهد كبير تبدو آثاره على الساحة في بعض المجالات، لكنها في المقابل أبطأت كثيرًا في بعضها الآخر؛ ظنًا منها أنها أصبحت ناضجة، لكن.. هل هذا هو الجهد المطلوب؟ لاشك أن دون انتصارنا الواجب عقبات كثيرة لابد من إزالتها، وجُهدا عظيما يلزمنا القيام به، وأول لَبِنات الجُهد المبذول أن يُعالج الناس أخطاءهم، ويصلحوا عيوبهم، ولذلك فإن المسلمين حين لم يغيروا واقعهم بإرادة صلبة نحو مستقبل أفضل، كانوا هم السبب أولا وآخرا؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ الله لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ الله بِقَوْمٍ سُوءًا فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾ (الرعد:١١).

الوعي الإسلامي

مجلة كويتية شهرية جامعة

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
في دولة الكويت مطلع كل شهر عربي
العدد ٥٨٠ | ذو الحجة ١٤٣٤ هـ
العام الخمسون
أكتوبر - نوفمبر ٢٠١٣ م

رئيس التحرير
فيصل يوسف العلي

سكرتير التحرير
سليمان خالد الرومي

التحرير
عبادة السيد نوح

الإخراج والجرافيك
أبورواش زكي محمد
يحيى بوم

الإشراف الفني
الشركة العصرية
للطباعة والنشر والتوزيع

المراسلات
رئيس التحرير - مجلة الوعي الإسلامي
صندوق البريد : ٢٣٦٦٧ الصفاة ١٣٠٩٧ - الكويت - هاتف: ٢٢٤٦٧١٣٢ - ٢٢٤٧٠١٥٦
فاكس: ٢٢٤٧٣٧٠٩
للإعلان : ١٨٤٤٠٤٤ داخلي ٣٠٦ - ٣٠١
البريد الالكتروني:
info@alwaei.gov.kw
الموقع الالكتروني:
www.alwaei.gov.kw
مكتب مصر : دار الإعلام العربية-٤٣ شارع دجلة - متفرع من شارع جامعة الدول العربية - المهندسين - الدور الأول - مكتب ١٠٤
تليفاكس: ٠٠٢٠٢٣٣٣٦٤٠٤٣
alwaei@arabmediahouse.net

المجلة غير ملزمة
بإعادة أي مادة تتلقاها للنشر.
والمقالات لا تعبر بالضرورة
عن رأي المجلة.

في هذا العدد

من أبرز سمات العصر الحديث اتساع موجة إهراق الدم البشري وبكميات هائلة وهذا هو الواقع المرير.

١٤

الرؤية الإسلامية للنظام الاجتماعي

٣٠

عندما يكون السلوك جميلاً

٥٦

«الصاوي شعلان» الأعمى الذي رأى كل شيء

٨٨

الشيخ أحمد الأمين الجكني في ذمة الله

التوزيع وكيل التوزيع: شركة الشبكة الدولية للدعاية والإعلان والنشر والتوزيع هاتف: ٢٤٩١٥١٠٦- ٢٤٩١٥١٠٧ (٠٠٩٦٥) - فاكس : ٢٤٩١٥١٠٩ (٠٠٩٦٥)

- اليمن - صنعاء - الدار العربية للنشر والتوزيع ت - ف: ٣٣١٧٩٧ (٠٠٩٦٧)
- لبنان- شركة نعنوع الصحفية - ت: ٦٥٣٢٥٩(٠٠٩٦١١) ف: ٦٥٣٢٦٠
- سوريا - دمشق - برامكة - ص.ب١٢٠٣٥ - ت: ٢١٢٤٨٣١ (٠٠٩٦٣ ١١) ف: ٢١٢٨٦٦٤ - المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات
- الأردن - عمان - شركة وكالة التوزيع الأردنية - ص.ب ٣٧٥ . رمز بريدي ١١١١٨ - ت: ٤٦٣٠١٩١(٠٠٩٦٢٦) ف: ٥٣٣٧٧٣٣
- مصر - القاهرة - شارع الصحافة - جريدة أخبار اليوم. - ت: ٢٥٧٨٢٧٠٠ (٠٠٢٠٢) ف: ٢٥٧٨٣٥٤-(٠٠٢٠٢)
- المغرب - الدار البيضاء - ص.ب ١٣٦٨٣ - ملتقى زنقة رحال بن أحمد وزنقة سان ساتس - ٢٠٣٠٠ الدار البيضاء ت:٢٢٤٠٠٢٢٣ (٠٠٢١٢) ف: ٢٢٤٩٥٥٧ - الشركة الشريفية
- مملكة البحرين - المنامة - ص.ب ٣٢٦٢ - ت: ٧٢٥١١١ (٠٠٩٧٣) ف: ٧٢٣٧٦٣ - مؤسسة الأيام للنشر والتوزيع
- الإمارات العربية المتحدة - ت: ٢٦٨٣٨٥٣ ٠٠٩٧١٤ - شركة دار الحكمة للنشر والتوزيع
- المملكة العربية السعودية - الرياض - ص.ب ٨٤٥٤٠ الرياض ١١٦٧١ - ت: ٤٨٧١٤١٤ (٠٠٩٦٦١) ف: ٤٨٧١٤٦٠ - الشركة الوطنية الموحدة للتوزيع الشريفية للتوزيع والصحف
- سلطنة عُمان - مسقط - ص.ب ٤٧٣ العذيبة . رمز بريدي ١٣٠ - ت: ٢٤٤٩٣٢٠٠ (٠٠٩٦٨) ف: ٢٤٤٩٣٣٠٠ - مؤسسة العطاء للتوزيع
- قطر - الدوحة - ت: ٢٤٤٩٣٣٠٠ (٠٠٩٧٤) دار الشرق للصحافة والطباعة والنشر.
- ماليزيا- شركة - المصطفى ميديا جروب سندرين برحد - ت- ٣٣٧١١٩٦٦ (٠٠٦٠٣)
- الجزائر - شركة ام بي سي ت: ٣١٩٠٩٥٩٠(٠٠٢١٦)
- تونس - الشركة التونسية للصحافة ت: ٧١٣٢٢٤٩٩ (٠٠٢١٦)
- المملكة المتحدة - لندن - شركة يونفرسال ت : ٢٠٨٧٤٢٣٣٤٤ (٠٠٤٤) .

الأسعار

●الكويت : ٥٠٠ فلس ●السعودية: ٥ ريالات ● البحرين : ٥٠٠ فلس ● قطر : ٥ ريالات ● الإمارات : ٥ درهم ● سلطنة عمان: ٥٠٠ بيسة ●الأردن:دينار واحد ● مصر : ٢ جنيه ●اليمن : ١٠٠ ريال ●لبنان: ٢٠٠٠ ليرة ● سوريا: ٣٠ ليرة ● المغرب : ١٠دراهم ● الجزائر: ٤ دينار جزائري ●تونس: دينار واحد تونسي ● المملكة المتحدة: ١,٥ جنيه استرليني ● باقي دول العالم : ٣ دولارات أمريكي أو مايعادلها.

الوعي الإسلامي
مجلة كويتية شهرية جامعة

المحتويات

٣	افتتاحية/ فتنة الانتصار	فيصل يوسف العلي
٦	قيم/ إفاقة بعد مصيبة	د.محمد علي يوسف
٨	تحقيق/ حرية الرأي والتعبير في الإسلام	منى الموجي
١١	حوار/ د.عبدالعزيز عوض: لا حداثة بدون تدين	شريف أبوالوفا
١٤	قضايا/ الرؤية الإسلامية للنظام الاجتماعي	د.العياشي أدراوي
١٧	رثاء/ العالم المقرئ عبدالحكيم خاطر في ذمة الله	-
١٨	ملف العدد/ هل أصبح دم المسلم رخيصًا؟	د.أندي حجازي
٢٠	ملف العدد/ حماية حرمات الإنسان.. أولى كليات التشريع	د.محمد سعيد باه
٢٤	ملف العدد/ ٥ خطوات لحقن الدماء	السنوسي محمد
٢٦	ملف العدد/ دماء المسلمين وهدم الكعبة	نشوه صالح
٢٨	ملف العدد/ صلاح الدين في بيت المقدس	محمد إلهامي
٣٠	أخلاق/ عندما يكون السلوك جميلاً	كمال عبدالمنعم
٣٤	خواطر/ نور من كل جانب	محمد رشيد العويد
٣٦	دراسات/ مظاهر تكريم الإنسان في الآيات البينات	د.محمد الحجوي
٤٢	دراسات/ لازم الصدق والكذب.. هل يصلح للتمييز بين الخبر والإنشاء	إبراهيم امغاز
٤٧	قضايا/ أي مرحلة تمر بها الأمة؟!	حسن قاطرجي
٤٨	قضايا/ القرآن الكريم في الجوال ومسائله الفقهية	علاء عبدالفتاح
٥٠	خواطر/ هل تسعى لتفوز بسلعة الله؟	نجلاء محفوظ
٥٣	لغة وأدب/ بصائر لأولي النهى	د.محمد المعلمي
٥٤	لغة وأدب/ القول المأثور في الصواب المهجور(١٤)	عبدالله آيت الأعشير
٥٦	لغة وأدب/ «الصاوي شعلان» الأعمى الذي رأى كل شيء	صلاح رشيد
٥٨	لغة وأدب/ ميار	بسام الطعان
٦٠	لغة وأدب/ الألفاظ والعبارات الدينية في العربية المعاصرة	د.علاء عبدالمنعم
٦٣	لغة وأدب/ أماه	علي الكعود
٦٤	أنباء الكتب/ مختصر تاريخ العالم	بهيج سكيك
٦٨	أسرة/ المرأة الرجولية ورحلة زوجية	د.خالد النجار
٧٠	أسرة/ الانتحار الزوجي	منى الشريف
٧٢	أسرة/ خواطر تربوية للأسرة من قصة النملة	محمد شعطيط
٧٤	أسرة/ ضوابط مشاركة المرأة في العمل العام	دار الإعلام العربية
٧٦	تاريخ/ تفسير التاريخ في الإسلام(٧)	د.أحمد الشال
٨٠	طب/ هل يكتئب الطفل؟	د.غنية النحلاوي
٨٤	منارات/ جامع ومدرسة ابن القيم في جنوب سورية	ياسر أبونقطة
٨٨	رثاء/ الشيخ أحمد الأمين الجكني في ذمة الله	-
٩٠	فتاوى الوعي	د.محمود الكبش
٩٢	الوعي نت	خالد محمد
٩٤	بريد القراء	-
٩٦	ينابيع المعرفة	تركي النصر
٩٨	مسك الختام/ سلطان النفس	كريمة العرفاني

كلمة العدد

نحو خطاب رشيد

أصبحت الساحة الإعلامية تعج بخطاب غريب ودخيل على الرأي العام العربي والإسلامي، حيث اتخذ هذا الخطاب السب والقذف شعارًا له، واستخدم الكذب والتشهير مادة للنقاش، ولجأ للاستخفاف بالعقول بدلًا من احترامها وتقديرها، كما هو الشأن في جميع الدول المتقدمة والمتحضرة.

ولعل تغير مفهوم الخطاب نفسه من الرشد إلى السفاهة، ومن التوجيه إلى الإثارة، ومن البناء إلى الهدم، يؤكد أننا نسير على خطى خاطئة تستدعي وقفات جادة من قادة الرأي والنخب الفكرية وأصحاب القرار.

لم يعد الوعي الجماهيري يستسيغ الخطابات التمجيدية أو الصدامية أو التقليدية، لأن مستجدات العصر ومتغيرات التاريخ فتحت المجال للمعرفة والثقافة وتداول المعلومات بسهولة ويسر.

لذا من الواجب السعي إلى خطاب مسؤول يغلب المصلحة العامة عن المصلحة الشخصية أو الحزبية أو الطائفية، يجرد القيم والمبادئ من أية إسقاطات أو مؤشرات قد تتسبب في التفرقة والشرخ المجتمعي.

يجب أن يتحلى الخطاب الرشيد بصفة المصداقية والموضوعية في حراك مجتمعي سريع، لأن الخطاب سلاح ذو حدين في ظل ثورة معلوماتية واسعة الانتشار، وبالتالي من الأولى الالتزام بميثاق الشرف الأخلاقي للوصول إلى النتائج المرجوة.

إن الخطاب الرشيد يحرص كل الحرص على إبراز الإسلام في بعده الإنساني وجانبه القيمي الرفيع، ويسعى إلى تقديم صورة ناصعة وحقيقية للمشروع الحضاري في أبعاده المختلفة، وفتح نوافذ للحوار الموضوعي مع الآخر.

التحرير

الاشتراكات
• داخل الكويت : للأفراد ٧,٥ دنانير ـ للمؤسسات ١٥ دينارًا كويتيًا
• دول العالم : للأفراد ٢٠ دينارًا كويتيًا (أو ما يعادلها).
• الدول العربية : للأفراد ١٠ دنانير كويتية (أو ما يعادلها).
• للمؤسسات: ٢٥ دينارًا كويتيًا (أو ما يعادلها).
ترسل قيمة الاشتراكات في شيك إلى وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية (الرجاء عدم إرسال مبالغ نقدية)

العدد (٥٨٠) ذو الحجة ١٤٣٤هـ/ أكتوبر - نوفمبر ٢٠١٣م

إفاقة بعد مصيبة

د.محمد علي يوسف
باحث في التراث الاسلامي

كان المستورد بن شداد رضي الله عنه في مجلس فيه عمرو بن العاص رضي الله عنه، وبينما هم جلوس حدثهم المستورد أنه سمع النبي ﷺ يقول: «تقوم الساعة والروم أكثر الناس»..

فقال له عمرو بن العاص رضي الله عنه: «أبصر ما تقول!» -أي تبين وتثبت وراجع قولك، هل سمعته من رسول الله ﷺ، قال المستورد: أقول ما سمعت من رسول الله، قال: «تقوم الساعة والروم أكثر الناس»..

هنا وبعد تبين ابن العاص من ثقة رواية المستورد قال عمرو رضي الله عنه: أما لئن قلت ذلك إن فيهم لخصالا أربعا: «إنهم لأحلم الناس عند فتنة.. وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة.. وأوشكهم كرة بعد فرة.. وأرحمهم لمسكين ويتيم وضعيف.. وخامسة حسنة وجميلة: وأمنعهم من ظلم الملوك».

أجد نفسي هنا في حالة من الاندهاش وأنا بصدد تأمل هذا الأثر العجيب الذي رواه الإمام مسلم في صحيحه!

حالة من الاندهاش تسببها عدة جوانب في هذا الأثر، لعل من أهمها ذلك القدر من الانفتاح الحضاري المنصف الذي تقطر به كلمات سيدنا عمرو ابن العاص، وتلك النظرة الثاقبة التي استطاع أن يلحظ بها جوانب القوة في الأمم، ويبصر خصال التمكين الدنيوي التي تؤهلهم لأن يكونوا بين يدي الساعة الأكثر نفيرا والأقوى شوكة.

هذا الانفتاح الحضاري المنصف الذي سبقه تبين وتثبت يضبطه ويربطه بالنص الشرعي الصحيح يذكرني بحال بعض أئمة التجديد في عصرنا هذا، وكيف كان لديهم من الشجاعة والإنصاف ما يؤهلهم للكتابة والبحث في تراث ونتاج الغير، والخروج بالفائدة والنفع الذي لا يضاد ثوابت شرعتنا أو يخالف ضوابط ملتنا الحنيفية السَّمْحة.

من ذلك ما فعله العلامة محب الدين الخطيب رحمه الله تعالى، حيث كان حريصا في كثير من كتاباته على استقاء الفائدة من تجارب الغير حتى وإن كان هؤلاء «الغير» من المعسكر المخالف تماما!

فتجده يكتب يوما ما مقالا في مجلته الزهراء عن «فورد» رائد صناعة السيارات في العالم، وتجده يكثر النقول في مقالاته عن «جوستاف لوبون» المؤرخ الفرنسي الشهير، مستقيا الحكمة من رؤيته وفهمه لمجريات الأحداث التاريخية والرؤى الفكرية وهكذا..

وما فعله عمرو بن العاص في هذا الأثر الجميل يعد في تقديري أصلا لذلك، ويعتبر تجربة رائدة في ميدان الإنصاف الفكري، ينبغي أن نتعلم منها كيف أن رجلا طالما حارب الروم وانتصر عليهم وفتح الله به بلدانا كانت ترزح تحت نير جيوشهم، كمصر والشام لم يمنعه كل ذلك من أن يستقي الحكمة والفائدة من حضارتهم!

والحكمة ضالة المؤمن أنّى وجدها فهو أولى الناس بها.

لقد ركز سيدنا عمرو هنا على خمس خصال في غاية الأهمية، إن وجدت في أمة فقد حققت بها شوطا طويلا في مضمار الرفعة الدنيوية والنجاح الأممي.. الخصال الخمس جميعها تحض عليها الشريعة الإسلامية الغراء، بينما نجد واقع المسلمين بشكل كبير في منأىً عنها، وبدلا من أن نقول: هذه بضاعتنا ردت إلينا، نجد الكثيرين ينأون وربما ينهون عن جُل تلك الخصائص والأخلاق، فما الحلم والقوة والثبات النفسي والمسارعة للنصر بعد الهزيمة والكر بعد الفر والرحمة والبر والتكافل الاجتماعي والعدل ونبذ الظلم والصدع في وجوه الظالمين بالحق لدفع ظلمهم، إلا خصالٌ وقواعد إسلامية تواترت النصوص الشرعية على الحض عليها، وبينما تغافل عنها كثير من المسلمين أدرك غيرهم أهميتها وخطورتها وضربوا في الواقع المعاصر نماذج مذهلة لتطبيقها، فبلغوا في مجال الحقوق والعدالة والتكافل شأنا لا تخطئ رفعته عين متجردة.

لكنني أريد في هذه السطور أن ألقي الضوء على تلك الخصلة الثانية تحديدا لأخصها وأقف معها وقفة «وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة» إنها خصلة في غاية الأهمية، أجد أن الأمة في حاجة ماسة إلى تأملها والنظر في نماذجها العملية المعاصرة (دعونا لا نفعل ما يفعله الآخرون، ولا نستنسخ ما ينتجون، دعونا لا نقلد «مايكروسوفت» أو نطارد «أي بي إم»، الطريقة الوحيدة لنسبقهم هي عبر التفكير بشكل مختلف).

كانت تلك الكلمات هي التي غيرت شكل السوق التكنولوجية في العالم خلال العقد والنصف الأخير!

كلمات قالها «ستيف جوبز» مؤسس أسطورة التفاحة المقضومة الشهيرة

والتي تمثل العلامة المميزة لإحدى أهم شركات الإلكترونيات في العالم والأب الروحي لأجهزة الاستماع الرقمية وأجهزة الحاسوب والهواتف الذكية، وهو أيضا مؤسس شركة «بيكسار» التي صنعت ثورة أخرى في عالم أفلام الرسوم المتحركة.

تحدث «جوبز» بتلك الكلمات عند عودته في أواخر التسعينيات إلى شركته التي كان قد طُرد منها قبل عشر سنوات، بالرغم من كونه مؤسسها، حيث لم ترحمه قوانين السوق القاسية وتم إخراجه منها بشكل مؤسف.

تأمل حجم المصيبة

رجل قضى حياته وصدر شبابه في إنشاء هذه الشركة، ثم فجأة يجد نفسه ملقى على قارعة الطريق يعاني من الإفلاس والفشل، مثل هذا الموقف قد يكسر أي إنسان ويدفع به إلى طريق الاستسلام واليأس، وربما الانتحار لكن هذا لم يحدث.

لقد أفاق «جوبز» سريعا وأعاد بناء نفسه بعد المصيبة، وأسس شركتين جديدتين أعادته إحداهما وهي «بيكسار» لنادي المليارديرات، مما اضطر شركته القديمة للاستغاثة من جديد بمؤسسها الأول صاحب الرؤية الثورية والعقلية المبتكرة والإصرار الرهيب، بعد أن مرت عليها تلك السنوات ثقيلة وكادت أن تُختم بانهيارها أمام منافسها العتيد «بيل جيتس» وشركته «مايكروسوفت».

وهكذا حال أصحاب تلك الروح المتحررة من أغلال اليأس النمطية، يفكرون بشكل عملي ومختلف وبطريقة حاسمة وسريعة ودون إنفاق الوقت الثمين في البكاء على اللبن المسكوب وجلد الذات بشكل «ماسوشي» محموم لا يفيد بشيء ولا يصنع تغييرا.

لقد بث «جوبز» فيمن حوله تلك الروح الحماسية المختلفة، ولم تمض شهور حتى كان في الأسواق أحد أكثر أجهزة الكمبيوتر مبيعًا في التاريخ وهو «الآي ماك» ولقد كان النجاح ساحقا

ومختلفا، لدرجة أن معدل البيع وصل إلى جهاز كل ١٥ ثانية، ثم لم يلبث «جوبز» أن أطلق جهازه الصغير للغاية «الآي بود» الذي شكل نقلة نوعية في عالم التقنية الصوتية.

بعدها كانت المفاجأة وانطلقت هواتفه الذكية التي تعمل بتقنية اللمس، وصار الكمبيوتر يسكن الهواتف المحمولة، وأصبحت التقنيات المبهرة في متناول الجميع ثم تلاه ظهور آخر تحفة تكنولوجية قدمها «جوبز» في مؤتمراته الشهيرة وهو «الآي باد».

إن «جوبز» لم يكن مخترعًا، ولم يكمل دراسته الجامعية، وتعرض للفشل أكثر من مرة، لكن الفارق الذي صنعه، والذي جعله يعود كل مرة ليقف على قدميه من جديد مرجعه إلى تلك الخصلة التي دفعته لأن يرفض الفشل ولا يتكيف عليه ولا على شعور اليأس والإحباط، أو يبحث لنفسه عن شماعات ومبررات تسوغ له ذلك الفشل، لقد ظل دومًا يفكر بشكل عملي ومختلف يبث فيمن حوله تلك الرؤية التي لا ترضى إلا بالأفضل.

وهذا هو الفارق بين الناجح والفاشل، فالأول يرنو إلى السحاب بينما الثاني منشغل بالأرض مخلد إليها، ينفق وقته في البكاء والتعاسة ويستسلم لقيود اليأس وأغلال الإحباط ويضيع حياته في تأمل المصيبة والعويل عليها..

الأول يسمو بين القمم لا يقبل أن يسبقه أحد ولا ينظر إلا للأكمل ولا يقبل المقارنة إلا بالأعلى، بينما الثاني يزاحم الرمم ولا يلحظ إلا من هم أدنى ولا يضره أن يكون متأخرًا في نهاية الصف ما دام مطمئنًا أن هناك من لم يزل متأخرًا عنه، وإن كان فردًا واحدًا.

لذا كان من قادوا التغيير في العالم هم أولئك الذين استطاعوا أن يحلموا وأيقنوا أن لديهم القدرة على تحقيق أحلامهم والحماسة والمصابرة والمثابرة على ذلك في تحد وإصرار وأمل، مهما كانت العوائق والعقبات، ودون البحث عن شماعات ومبررات خارجية تسوغ لهم الفشل.. إنهم أناس أصحاب قلوب قوية قادرة على الحلم ولديها يقين بإمكانية تحقيق هذا الحلم، وإصرار على ذلك، أما أولئك الذين لا ينظرون إلا تحت أقدامهم ولا يملكون تلك الحماسة ولا القدرة على الحلم، ولا الأمل في إمكانية تحقيقه، معتقدين دوما أنه ليس في الإمكان أحسن مما كان، فإن أقصى نشاطهم هو تحريك رؤوسهم وإدارة أعينهم ليراقبوا أولئك الذين قرروا أن يتجاوزوهم بسرعة، ويفيقوا بعد كل سقطة ونازلة ومصيبة، ثم يفكروا ويغيروا.. فقط إذا تحرر هؤلاء من قيود اليأس وأغلال الإحباط، فلم يفقدوا الأمل قط، ووثقوا في إمكانية تغيير واقعهم إلى الأفضل، وهرعوا إلى تلك الخصلة، وكانوا من أسرع الناس إفاقة بعد مصيبة، فحينئذ يرتقون تلك الدرجة في سلم التغيير، وسنة الله في خلقه أنه لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

حرية الرأي والتعبير في الإسلام

منى الموجي- القاهرة
دار الإعلام العربية

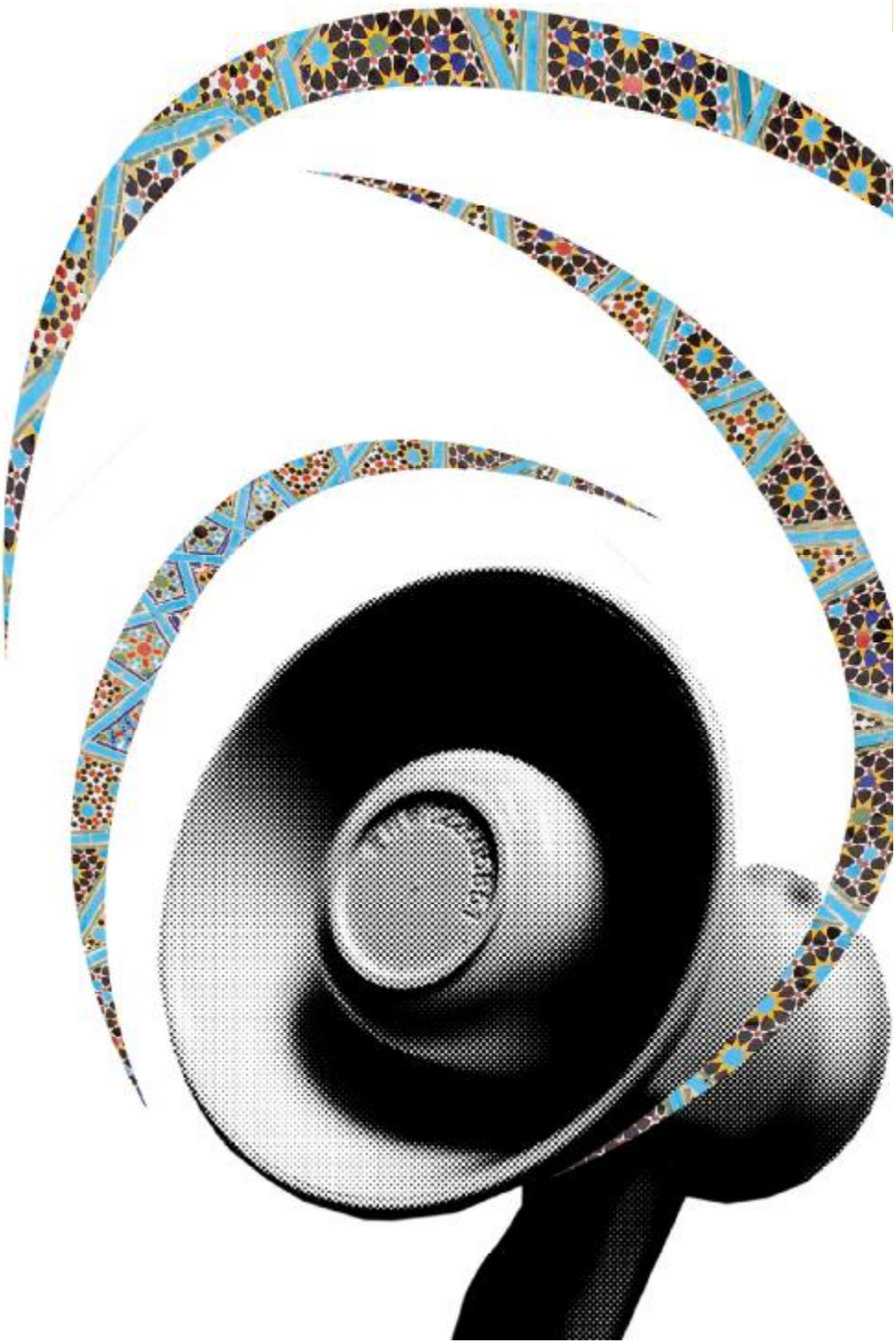

إلى أي مدى أتاح الإسلام لأتباعه حرية الرأي والتعبير والاختيار؟ وهل حقّا يصادر الإسلام رأي أتباعه؟ وهل للديمقراطية العصرية صدى جوهري في حياة المسلمين؟ تساؤلات عديدة تطرحها «الوعي الإسلامي» في ظل ادعاءات وافتراءات عديدة تروَّج باستمرار حول حجر الإسلام على حرية أتباعه وتقييدها في أطر محددة..

البداية مع د.السيد رزق أستاذ الفلسفة الإسلامية بجامعة الأزهر، والذي أكد أن الإسلام دين الله رب العالمين لا يحجر على قول، ولا يصادر رأيًا؛ وذلك من مظاهر الشورى التي أرساها الإسلام منذ فجر الدعوة الإسلامية، مضيفًا أن الله سبحانه وتعالى أوضح للناس كافة المنهج الراشد في إبداء الرأي في قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ

حُسْنًا﴾، وقوله أيضًا في سورة الأنعام: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾، والنبي عليه أفضل الصلاة والسلام قال: «قل الحق ولو على نفسك»، ودائمًا ما كان الصحابة- رضوان الله عليهم- يجهرون بقول الحق، ويعبرون عن آرائهم بمنتهى الحرية، فسيدنا أبوذر الغفاري أعلن رأيه لسيدنا عثمان بن عفان في أمور تهم الدعوة والمجتمع المسلم بلا مواربة أو محاباة.

حرية مسؤولة

وأشار د.رزق إلى أن كل إنسان من حقه أن يعبر عن رأيه، ذاكرًا قصة المرأة التي قامت لسيدنا عمر بن الخطاب في المسجد، وأعلنت رأيها ورفضها لمسألة تحديد المهور قائلة: ليس الأمر لك يا ابن الخطاب فإن الله قال: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾. فقال عمر: «أصابت امرأة وأخطأ عمر».

وأوضح أن حرية الرأي، وإن كانت حقًا كفله الإسلام لكل مسلم، لكنها حرية مسؤولة، أي تقيد بضوابط المصلحة والمفسدة، موضحًا أنه بعد ثورات الربيع العربي بدأت شعوب هذه الدول تنادي بحقها في التعبير عن رأيها ومعارضة الحاكم والوقوف في وجهه إذا أخطأ.. الأمر الذي دفع مجمع الفقه الإسلامي إلى التأكيد على أن المقصود بحرية التعبير عن الرأي هي تمتع الإنسان بكامل إرادته في الإعلان عما يراه صوابًا ومحققًا النفع له ولمجتمعه، كما أقر بأنه حق يصونه الإسلام في إطار الضوابط الشرعية، وهي كما حدّدها مجمع الفقه الإسلامي: «عدم الإساءة للغير، الموضوعية والصدق، الحفاظ على صالح المجتمع، اختيار وسيلة مشروعة للتعبير عن الرأي، أن يتم مراعاة الآثار الناجمة عن التعبير عن الرأي، الاستناد إلى مصادر موثوقة، ألا تتضمن حرية التعبير عن الرأي أي تهجم على الدين أو شعائره أو شرائعه أو مقدساته، ومراعاة عدم الإخلال بالنظام العام للأمة وإحداث الفرقة بين المسلمين».

وحول كيفية التفريق بين الرأي الذي يهدف إلى خدمة المجتمع دون البحث عن منافع شخصية وبين الذي لا يسعى إلى الصالح العام، بل يهدف إلى نشر المفاسد، أكد أن هذا يكون الرد عليه من خلال تفعيل مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فالمقصود بالمعروف كل ما دعا إلى الحسنى، والمنكر كل ما دعا إلى الخبث، ونستطيع التفرقة بينهما من خلال قول الرسول الكريم عن وابصة بن معبد رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال له: «جئت تسألني عن البر والإثم. فقال: نعم.. فجمع أنامله فجعل ينكت بهن في صدري ويقول: يا وابصة.. استفت قلبك واستفت نفسك (ثلاث مرات)، البر ما اطمأنت إليه النفس، والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك».

المشورة واجبة

بدوره، أكد الشيخ عمر الديب، رئيس لجنة حوار الأديان بمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، أن الإسلام هو أول من كفل حرية الرأي والتعبير، وأوجب على الحاكم أن يأخذ المشورة من المحكومين؛ فالرسول ﷺ وهو القدوة للمسلمين كان يستشير أصحابه، ولا ينفرد بالرأي، بل إنه كان يسمح للصحابة بمعارضتهم لرأي الرسول ﷺ في أمور الدنيا، وذلك مثل ما حدث في غزوة بدر الكبرى عندما أراد الرسول ﷺ أن ينزل في مكان لملاقاة العدو، فعارضه الحباب بن المنذر بن الجموح، قائلًا: «يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل.. أمنزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخره؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: بل هو الرأي والحرب والمكيدة. فقال: يا رسول الله، فإن هذا ليس لك بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننزله، ثم تغور ما سواه من القُلُب، ثم تبني عليه حوضًا، فتملؤه ماءً، ثم نقاتل القوم فنشرب، ولا يشربون. فقال رسول الله ﷺ: لقد أشرت بالرأي. فنهض رسول الله ﷺ ومن معه من الناس، فسار حتى أتى أدنى ماء من القوم، فنزل عليه، ثم أمر بالقُلُب فغورت، وبنى حوضًا على القليب الذي نزل عليه، فمُلئ ماءً، ثم قذفوا فيه الآنية».. وهو الرأي الذي أخذ به الرسول ﷺ.

ولفت الشيخ الديب إلى دليل آخر يؤكد حرص النبي ﷺ على

الديب: الإسلام هو أول من كفل حرية الرأي وأوجب على الحاكم استشارة المحكومين

تطبيق مبدأ الشورى مع الصحابة والمسلمين، عندما أخذ برأي أصحابه في أسرى غزوة بدر، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه نقتل رجالهم ونسبي نساءهم وأولادهم، بينما جاء رأي أبي بكر الصديق رضي الله عنه مخالفًا لرأي عمر، حين قال: «يا رسول الله إنهم لأهلك وعشيرتك فأرجو أن تأخذ منهم الفدية».. فنزل الرسول ﷺ على رأي أبي بكر رضي الله عنه، وترك رأي عمر رضي الله عنه، فنزل القرآن الكريم مؤيدًا لرأي عمر كما في قوله تعالى في سورة الأنفال: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

وأشار الديب إلى كثرة الأمثلة في التاريخ الإسلامي على حرية الرأي وتفعيل مبدأ الشورى، خاصة في عصر الرسول ﷺ والصحابة والتابعين من بعدهم، فكان كل إنسان له مطلق الحرية في أن يعبر عن رأيه كيفما شاء وفيما شاء، على أن يتحرى العدالة في كل شيء، وكان الصحابة- رضوان الله عليهم- ينفذون العدالة، ويعارضون الوالي أو الخليفة إذا كانت هذه العدالة غير واضحة في حكمه، فحينما كان الخليفة الفاروق عمر ابن الخطاب رضي الله عنه يقضي بين يهودي وعلي بن أبي طالب فقال عمر لعلي: «قف بجوار خصمك يا أبا الحسن».. فظهر الغضب على وجه علي، فلما قضى بينهما سأل عمر عليا فقال له: «يا علي أغضبت أن قلت لك قف بجوار خصمك»، فرد علي رضي الله عنه: «لا يا أمير المؤمنين، لكن خشيت أن يقول اليهودي ضاع

د.السيد رزق: حق يصونه الإسلام في إطار الضوابط الشرعية

العدل بين المسلمين حين ناديتني أبا الحسن»..

وشرح الديب هذا الموقف قائلًا: إن «أبا الحسن» كنية علي، والكنية في اللغة للتكريم والتعظيم، فخاف علي أن يظن اليهودي أن الفاروق يفضله بهذا التكريم، فحرية الرأي والتعبير مرتبطة بمنفعة المسلمين، وأن يكون على صواب وألا يهدر حق الآخرين.

وحول حرية الاعتقاد في الأديان، أكد الديب: إن هذا الأمر أوضحه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾، كذلك قوله في سورة الكهف: ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾.

لا ضرر ولا ضرار

أما د.عبدالله ربيع، أستاذ أصول الفقه المقارن بجامعة الأزهر، فأوضح أن الحرية مقصد من المقاصد المعتبرة الضرورية في الشريعة الإسلامية، مضيفًا أن المسلم له أن يمارس هذا الحق وقتما شاء، ومن حقه أيضًا الامتناع عن إبداء رأيه فيما شاء، وهذا لا يتنافى أبدًا مع الحق الذي كفله له الإسلام في التعبير عن رأيه، بشرط ألا يضر غيره.. مؤكدًا: حريتي تقف عند حرية الآخرين، فالضرر منهي عنه سواء كان ابتداءً أم حتى على سبيل الرد، والرسول ﷺ قال: «لا ضرر ولا ضرار».

ويفترض د.عبدالله أن إنسانًا حرق بيت آخر، فلا يأتي الآخر ليحرق بيت الأول من منطلق أنه حر، لكن الدين حدد كيفية التعامل في ذلك بأنه من الممكن أن يأخذ تعويضًا عن منزله، مستدلًا بحديث الرسول ﷺ الذي رواه النعمان بن بشير رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقًا ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعًا».

ولفت د.عبدالله إلى أن الهجوم على الدين الإسلامي ومحاولة رسم صورة مسيئة عن الإسلام أمور مبيتة من الغرب؛ لإبعاد الناس عن دينهم، وهذا لا يندرج بأي حال من الأحوال تحت حرية الفكر والتعبير، ورغم كثرة هذه الأعمال غير اللائقة، إلا أن نتيجتها تأتي عكس ما يتمنى هؤلاء، فلقد أصبح كثير من الناس في الغرب يقرأون في علوم الدين الإسلامي ليتبينوا حقيقة ما يروج حوله من حبس مزعوم للحريات، ودخل كثير منهم في الإسلام بعد تأكدهم أنه الدين الأول في إعلاء قيم الحرية، وأصبحوا من المدافعين عنه والداعين له.

الدكتور عبدالعزيز عوض الله رئيس قسم اللغة التركية بجامعة الأزهر:

لا حداثة بدون تدين

شريف أبوالوفا- القاهرة دار الإعلام العربية

ثمّن د.عبدالعزيز عوض الله، رئيس قسم اللغة التركية وآدابها بجامعة الأزهر، الدور الذي تقوم به دولة الكويت وعدد آخر من الدول العربية في مد يد العون للأقليات المسلمة، ولاسيما في تركمانستان، أذربيجان، كازاخستان، قيرغيزستان، طاجيكستان، مؤكدًا أن مسلمي هذه الدول متعطشون للدعم الثقافي الذي يربطهم بدينهم.. وأشار في هذا الصدد إلى مكانة تركيا باعتبارها الدولة الأم التي تفرعت منها هذه الدول، مشيرًا إلى أنها أعطت مثالا واضحًا لدى الغرب عن سماحة الإسلام واعتداله بتطبيقها أنموذجًا يجمع بين الالتزام بتعاليم الإسلام وتطبيق أسس الحداثة.. وتطرّق إلى العديد من التفاصيل نتعرف إليها في سياق حواره مع «الوعي الإسلامي»..

● في البداية.. باعتباركم أستاذًا للغات الشرقية والتركية ومطلعًا على أحوال الأقليات المسلمة في الدول الناطقة بهذه اللغات.. هل لك أن تطلعنا على وضع المسلمين هناك وما يتطلعون إليه من مساندة عربية؟

- بحكم تخصصي في اللغة التركية وأدبها، لابد أن أوضح حقيقة غائبة عن كثيرين في العالم الإسلامي، فالأتراك ليسوا هم سكان تركيا حاليا فقط، لكنهم أكبر من ذلك بكثير، فهناك كثير من الدول مثل تركمانستان، أذربيجان، كازاخستان، قيرغيزستان، طاجيكستان وغيرها من الدول التي ربما نسمع عنها لأول مرة، هي في حقيقتها ذات أصول وعرقيات تركية.. إذن تركيا الحالية تمثل بالنسبة إلينا كعرب وكمسلمين وضعًا خاصا، حيث إنها تمثل غالبية إسلامية مطلقة، فالمسلمون بها أكثر من ٩٩٪، أيضًا أذربيجان يمثل المسلمون فيها أغلبية واضحة، وإذا دخلنا إلى الدول الأخرى ذات الأصول التركية مثل أوزبكستان ومناطق أخرى كثيرة تقع الآن تحت إدارة وسيطرة الصين وهي ما تعرف بـ«تركستان الشرقية»، نجد أن المسلمين يشكلون فيها نسبة كبيرة، إلا إنهم يعانون كثيرًا من الصعاب والعراقيل؛ لذا فإنهم- وكما هو حال غالبية الأقليات المسلمة في مختلف دول العالم- يتطلعون إلى مساندة ودعم إخوانهم العرب، وخاصة فيما يتعلق بالنواحي الثقافية والاقتصادية، أما الناحية الثقافية فهم في حاجة إلى التعرف على أصول الإسلام وترجمات القرآن الكريم وغيرها مما يساعدهم على فهم الإسلام بطريقة صحيحة... وأما الناحية الاقتصادية فهم في حاجة لمعرفة أصول البيع والشراء

كثير من الأقليات الإسلامية في أوروبا تنحدر من أصول تركية

إسهامات علمية

● نعلم أن عددًا كبيرًا من رموز الإسلام مثل البخاري ترجع أصولهم إلى دول غير عربية.. فما أهم إسهامات هذه الدول في الحضارة الإسلامية؟

- هناك مناطق في تركيا أخرجت كثيرًا من العلماء المسلمين خاصة في العصور الأولى للإسلام، على رأسهم الإمام البخاري الذي ولد في مدينة بخارى في إقليم خراسان (أوزبكستان الحالية)، والخوارزمي الذي ولد في مدينة «خوارزم» التي تسمى «خيوا»

تركيا نجحت في إبراز صورة سمحة ومعتدلة للإسلام

حاليا، في جمهورية أوزبكستان، وغيرهما الكثير من كبار العلماء الذين أسهموا في الحضارة الإسلامية في شتى فروعها الدينية والفكرية والفلسفية والهندسية والاقتصادية، ممن يشهد لهم التاريخ بأنهم كانوا مشاعل الحضارة لمدة تربو على الخمسمائة عام، في وقت كانت أوروبا تغط في ظلمات الجهل والتخلف.. ويجب على كل محب للعلم أن يقدر هؤلاء العلماء حق قدرهم ويعترف بفضلهم، ولاسيما أنه في عصرهم كان العلم جامعًا وموسوعيًا، فمن كان متفوقًا في الرياضة كان أيضًا متفوقًا في الطب والهندسة والفلك، وأكبر مثال على ذلك ابن سينا الذي جمع بين علوم شتى وتفوق فيها، فكانت العلوم كتلة واحدة على عكس عصرنا الحالي الذي ينادي بالتخصص.

جهود الترجمة

• هناك كثير من أمهات الكتب الإسلامية كتبت بلغات غير العربية.. فما أبرز جهود ترجمة هذه الكتب سواء من أو إلى العربية واللغات الشرقية؟

- من أبرز ما تركته ترجمة الكتب غير العربية ما تم ترجمته من معاني القرآن الكريم، فهناك تراجم بلغات غير عربية كان الغرض منها تعريف المسلمين من غير العرب بمعاني القرآن الكريم، والأتراك يضعون نصب أعينهم الآية الكريمة: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾؛ لذلك حرصوا على ترجمة أمهات المصادر الإسلامية إلى اللغات غير العربية؛ لكي يفهم هؤلاء الناس أسس وأصول دينهم، ولذلك نرى منهم من تفوق سواء في عالم اللغة أو الدين أو الأدب، وقد أحدثوا وأسهموا في نهضة كبيرة في ظل الإسلام، وأكدوا أن الإسلام ليس حكرًا على العرب، لكن أنزل لكل البشر من أقصى الأرض إلى أقصاها.

• وهل ترى أن المسلمين العرب مقصرون في مد يد العون إلى المسلمين غير الناطقين بالعربية؟

- منذ أوائل التسعينيات من القرن

الإسلام قاسم مشترك ورابط قوي يجمع الشعوب على امتداد جغرافيا العالم

الكويت على رأس الدول العربية التي مدت يد العون للأقليات

الماضي بحثنا في الأزهر الشريف أحوال المسلمين غير الناطقين بالعربية، خاصة بعد تفكك الاتحاد السوفييتي وظهور ما سمي بالجمهوريات الإسلامية في آسيا الوسطى والقوقاز، وأقمنا مؤتمرًا عالميا بحثنا فيه أوضاع المسلمين هناك بين الماضي والحاضر والمستقبل، وناقشنا وضع هؤلاء المسلمين وسبل التعاون وتقديم الدعم لهم، والأخذ بيدهم ثقافيا واجتماعيا، وناقشنا المشاكل التي يتعرضون لها لأداء شعائرهم في ظل الاتحاد السوفييتي السابق، وكيف يمكن مد جسور التعاون من العالم العربي إليهم.. وقد تم تزويدهم بالعديد من الكتب والمصادر الدينية، وإيفاد المتخصصين في علوم اللغة العربية والدين، لسد هذا الجانب، وقامت مصر من ناحية والكويت والإمارات والمملكة العربية السعودية بتقديم الدعم العلمي والمادي بقدر الإمكان، ومازالت، واستطاعت تلك الدول أن تسد قدرًا كبيرًا من احتياجاتهم، وكان من بين المشاكل التي تم التوصل إلى حلها مشكلة إعادة الكتابة بالحرف العربي التي كان يستخدمها أجدادهم إلا إنهم لم يستخدموا الحرف العربي وأخذوا بالحرف التركي؛ بسبب الدور الذي لعبه الإعلام التركي في هذا الشأن، وأظن أن العرب لو كانوا قد أعطوا لهذا الأمر أهمية لكانوا أقنعوا مسلمي آسيا الوسطى بأهمية الحرف العربي وسهولة استخدامه، ولاسيما أن الأتراك القدامى استخدموا الحرف العربي في كتابة لغتهم لقرون طويلة.

إسلام معتدل

● هل ترى أن هناك فجوة بين العرب وتركيا.. وما أسبابها وسبل علاجها إن وجدت؟

- لا توجد فجوة بين العرب والأتراك بشكل عام.. ربما توجد اختلافات سياسية، لكن العلاقة بين الشعوب دائما فوق السياسات.. وإذا نظرنا إلى الوضع الحالي سنجد أن تركيا برزت على الصعيدين المحلي والدولي بصورة كبيرة أثارت اهتمام العالم كله، حيث نجحت في إبراز إسلام معتدل أعجب به الأوروبيون والأميركيون.

● وهل ترى أن النموذج التركي الذي يجمع بين التدين والحداثة هو الأنسب؟

- لكل دولة من الدول ظروفها الخاصة في تطبيق الديموقراطية والأخذ بالنظام الأنسب لها، لكن في كل الأمور إذا اجتمع التدين مع الحداثة فهو الأنسب للدول، سواء كانت عربية أو إسلامية، فلا حداثة بدون تدين يليق بنا كشعوب شهدت مولد الأديان السماوية.

● على امتداد جغرافية العالم الإسلامي تختلف لهجات وتتباين لغات.. ما هو القاسم المشترك الذي يوطد أواصر علاقات العالم الإسلامي؟

- الدين هو القاسم المشترك الذي يجمع تلك الشعوب على امتداد جغرافية العالم.

مفاهيم خاطئة

● هناك عبارات تتضمن مفاهيم خاطئة عن الثقافة الإسلامية في الكتب المدرسية الأوروبية.. على من تعود مسؤولية تصحيح هذه المفاهيم؟

- المفاهيم الخاطئة عند الأوروبيين في مدارسهم متوارثة، يجب أن تنتهي في عصر العلم، وإذا كان يعاب في الماضي ظهور مفاهيم خاطئة انتشرت بين الناس، فهذا يعود إلى عدم وجود مؤسسات تعليمية وعلمية تصحح هذه الأخطاء، ولا ينبغي أن تظل مثل هذه المفاهيم حتى وقتنا هذا الذي تنشر فيه وسائل العلم والتكنولوجيا، وعلى العلماء والمتخصصين السعي بالحكمة والموعظة الحسنة لإزالة كل ما من شأنه الإساءة إلى الإسلام.

● وكيف يمكن تفعيل لغة الحوار الإسلامي مع الغرب إلى لغة مفتوحة للتفاهم؟

- التفاهم يبدأ دائمًا من نقطة التقاء بين الأطراف يجتمع عليها الباحثون، ومن ثم يتناولون نقاط الاختلاف واحدة واحدة للوصول إلى لغة مناسبة يتفق عليها معظم الأطراف.

● أخيرًا.. ما آخر قراءتك لنوعية ترجمات معاني القرآن الكريم إلى لغات أجنبية؟

- هذا التعبير غير علمي؛ لأن ترجمة آية أو معنى آية من القرآن الكريم يتطلب فريقًا من العلماء يجمعون بين كل التخصصات، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى لابد للغة المترجَم إليها من وجود فريق من العلماء في هذه اللغة، ثم يجتمع الاثنان الجانب العربي والأجنبي ليتفقا على أقرب المعاني المناسبة لمعنى الآية القرآنية.. وترتكز مواصفات من يقوم بالترجمة لأي لغة على أن يكون عالمًا في المجال الذي تتم في سياقه الترجمة.

الرؤية الإسلامية للنظام الاجتماعي

الدكتور العياشي ادراوي
كلية الآداب والعلوم الإنسانية - تطوان - المغرب

إن الصورة الجدلية التي يقدمها الدين الإسلامي عن المجتمع الإنساني والحياة البشرية صورة قوامها التدافع بين مبدأ الخير ومبدأ الشر، أو بعبارة أخرى بين من جاءوا بالهدى الرباني لتأسيس مجتمع عادل سليم، ومن وقفوا معارضين لذلك المشروع الاجتماعي العام الذي تحمل الأنبياء والرسل جميعهم عليهم السلام مسؤولية إقامته «ولما كان الأنبياء قادرين على إقامة النظام العادل فإن خلَفهم سرعان ما نسوا مع مرور الزمن، ما عرفوه من الرسالة الصحيحة؛ لذا كانت الحاجة إلى رسول جديد يتناسب مع التطور الثقافي الذي انتهى إليه المجتمع الإنساني بعد مرور فترة من الزمن. وأخيرا ومع اتصال معين للتطور الثقافي الإنساني جاءت آخر صيغة وأشملها للحياة الاجتماعية في الإسلام، على يد النبي محمد ﷺ. وهكذا فإن نظرة الإسلام إلى المجتمع الإنساني نظرة ملتزمة عقائديا»[1].

وباعتبار خصيصة الالتزام العقائدي

هاته، ليس المجتمع الإنساني فقط نظاما، وإنما الوجود كله كذلك. يقول تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (القمر: ٤٩). وما جاء الإسلام إلا لتشييد نظام اجتماعي وأخلاقي وفكري وغيره، على قدر كبير من الإحكام والتماسك، يتحرك وفق ضوابط مصدرها الوحي الإلهي والهدى الرباني. لذا فأي نظام اجتماعي -نموذج اجتماعي- يخرج عن ذلكم الطراز هو مجتمع واقع لا محالة في تناقض وصراع يؤديان به حتما إلى التمزق والتفكك والهلاك، على كافة المستويات.

وإذا تبين هذا تبين معه كذلك أن الإسلام ليس مجرد صيغة عبادات فقط. إنه أيضا طاعة حكم الله في العلاقات الإنسانية من جميع جوانبها: اقتصاديا وسياسيا وأسريا وغيرها. وعليه فأي انتهاك مقصود لهذه القواعد لا يعرض صاحبه لعقوبة المجتمع فقط -بالإضافة إلى عقاب الآخرة- بل إنه يزرع بذور التدمير الذاتي في هذا العالم. وبما أن الإسلام هو القانون الطبيعي للتعامل الإنساني، فلو لم يطبقه مجتمع إسلامي ما، فإن هذا المجتمع يتجه بشكل آلي إلى الظلم والاندحار، ومن جانب آخر حتى لو طبق هذا القانون مجتمع غير إسلامي فإنه ينتعش ويستقيم حاله[٢].

وبناء على هذا فإن أية محاولة لجعل علم الاجتماع موسوما بالصفة الإسلامية يجب أن يحدد العلاقة بين الموضوع المدروس من جهة والنموذج الاجتماعي الإلهي المناسب له. وبالنظر إلى أن «النموذج الإلهي» هو القانون العام أو المثال المنشود فإن الواقع العيني يلزم أن يحققه ويستجيب له.

وفي هذا الصدد يتعين ألا يعزب عن بالنا أن دراسة مَا هو كائنٌ متحققٌ فعليًا، ينبغي ألا يغفل ما يجب أن يكون. بمعنى أن النموذج الإلهي ليس أنموذجا نظريا مجردا سماويا لا علاقة تربطه بالعالم الإنساني، بل إنه واقعي من جهة كون الله تعالى قدر احتواء الواقع إياه واستيعابه له. أي بما هو وجود فطري زرعه الله في الفطرة الإنسانية، فردا و جماعة، في الأمة من حيث هي تيار متواصل ممتد للوجود ينقله العمل المعنوي إلى نطاق الفعل والتاريخ. ومن هنا فإن معيار التمايز بين التوجه الغربي وعلم الاجتماع ونظيره الإسلامي هو الاتجاه بالبحث والتحليل صوب الكشف عن النموذج الإلهي الموجود بالقوة في الواقع الإنساني[٣]. فهذا النموذج هو مجال الاهتمام والبحث المستمرين بالنسبة للباحث الاجتماعي المسلم كما أنه موضوع التطلع والأمل، لكونه ينبغي أن يظل ممارسا لنقد الواقع البشري على ضوء النموذج الإلهي بشكل متصل، بما يمكن من إصلاح اختلالاته (الواقع) والارتقاء به لمستوى أسمى.

ووفق هذا المنظور يبقى في وسع عالم الاجتماع المسلم «أن يضع نقداً جديدا لعلم الاجتماع الغربي، لأن الولاء للوسائل والغايات النفعية انحدر بعلم الاجتماع الغربي إلى دراسات استراتيجية، تؤدي إلى أهداف واضحة لا يدعي أحد أنه من الممكن إثباتها نقديا. أما عالم الاجتماع المسلم فإنه من خلال التزامه بالإسلام لابد أن ينظر إلى الإنسان على أنه خليفة الله، واجبه بالفعل أن يحقق القيمة في التاريخ. وهكذا فإن علم الاجتماع الإنساني يمكن أن يصبغ العلم بالصبغة الإنسانية، وأن يعيد المثال الإنساني إلى حياة الإنسان الذي عوده علم الاجتماع الغربي أن يرى نفسه «دمية» لا حيلة لها، في أيدي قوى عمياء[٤].

إن استحضار مفهوم الاستخلاف (الإنسان خليفة الله في أرضه) إذن في التحليل الاجتماعي والنظر إلى الواقع البشري يفرض الاعتراف بالإنسان على أنه موجود في ملك يحكمه الله قيميا وغيبيا، كما يفرض أن كل معرفة موضوعية للعالم معرفة لإرادته وصنعه وحكمته، وكل إرادة إنسانية وكل جهد إنساني بأمره وبإذنه، كما يقتضي مبدأ التوحيد في أبعاده الكلية.

وعلى هذا فعلماء الاجتماع المسلمون مطالبون بأن تكون تحليلاتهم ودراساتهم دراسات مقارنة، سواء داخل المجتمع الإسلامي أو بينه وبين المجتمعات غير الإسلامية، استنادا إلى رؤية دينية صريحة، وليس رؤية علمانية مادية خالصة للمجتمعات الإنسانية، إذا ما أريد لعلم الاجتماع الإسلامي أن يختلف -ويجب أن يكو مختلفا- عن منهجية التناول في علم الاجتماع الغربي. ومعلوم أن «البحث الاجتماعي الغربي لايزال حتى اليوم يهتدي بافتراضات تنزل بالدين إلى أحد النظم الكثيرة في المجتمع. وبسبب هذه الافتراضات لم يسمح البحث مطلقا بالنظر في التأثيرات الأعلى والأوسع للدين في المجتمع. إن ما نحتاجه هي استراتيجية للبحث تتحدى ولا تتبع هذه الافتراضات الخاصة بالدين والمجتمع»[٥].

وفي غياب توفر هذا المطلب لن يكون في استطاعة علم الاجتماع الإسلامي -وهو يسير على خطى علم الاجتماع

الغربي- أن يحلل الإسلام كدين، بل لعله يجد صعوبات جمة في دراسة المجتمعات الإسلامية نفسها. لأن النتائج في مجال العلوم الإنسانية وثيقة الصلة بالمرجعيات والمناهج والتصورات والآليات، لذا فهي تثبت بثباتها وتتغير بتغيرها.

على هذا الأساس فإن اجترار مفاهيم علم الاجتماع الغربي، التي تعكس روح المجتمع الصناعي خلال القرن التاسع عشر والمجتمع الرأسمالي في النصف الأول من القرن العشرين، تظل غير ذات جدوى، بل عديمة القيمة بالنسبة للبحث الاجتماعي الإسلامي، وذلك لغياب القواسم المشتركة بين خصائص تلك المجتمعات والمجتمعات الإسلامية فكرا وعقيدة وسلوكا. لذا ينبغي أن تحلل القيم والعلاقات الخاصة التي تبلورت في مجتمعنا، والتي تتطابق مع جوهر الحياة والسلوك الاجتماعي والحقائق الموجودة في المجتمع، والكيان العقائدي الحامل لهذا المجتمع، مع الأخذ في الاعتبار صورة المجتمع التي تشكلت في التاريخ الإسلامي. كل ذلك ضمن إطار النظرة التوحيدية للعالم -كما مر بنا- بما هي نظرة تشكل الأساس الفكري والعقائدي لمختلف العلوم الإنسانية، وبخاصة علم الاجتماع.

يقول د.علي شريعتي في هذا الصدد: «التوحيد برمته منزل من السماء إلى الأرض، وهو يقتحم المجالات التعليمية والتحليلية والبحث والجدل الفلسفي والكلامي والعلمي، ليتنازع مع بقية المفاهيم الاجتماعية، ويطرح نفسه وما تنطوي من قضايا في ثناياه، ليعين العلاقة بين المجموعات البشرية، والعلاقة بين الطبقات، وعلاقة الفرد بالمجتمع، والأبعاد الاجتماعية المختلفة، والبنية الفوقية والتحتية للمجتمع، والمؤسسات الاجتماعية والسلوك والعلاقات الاجتماعية والعائلية والفردية والطبقية، والمسؤوليات الفردية والجماعية إزاء المجتمع، لتصبح لهذه المجاميع الاجتماعية ركائز فكرية في التوحيد. وبصورة عامة، فالتوحيد يعد الحجر الأساس للعقيدة، والترسانة الفكرية لبناء المجتمع التوحيدي»[٦].

ولاشك أن هذا النهج الفكري المتميز في مبادئه وغاياته، مفيد بالنسبة إلى كل عالم اجتماع مسلم يصبو إلى أن يخرج عن «النظرة اللاتوحيدية» العلمانية -المادية التي يتأسس عليها البحث الاجتماعي الغربي، بالنظر إلى أنه نهج -كما هو بين- يقدم مبدأ التوحيد بأرضية اجتماعية، كما يربط بين فهم المجتمع ومفهوم التوحيد. الأمر الذي يجعل علم الاجتماع في المنظور الإسلامي -كما تجلى عند شريعتي- انعكاسا للنظرة إلى العام. لقد كان يرى في هذا العلم حربا مستمرة بين «التوحيد الاجتماعي» و«الشرك الاجتماعي» على امتداد التاريخ. و«كما هو الحال في النظرة التوحيدية للكون، التي تعني التوحيد في العالم، فإنه بتحليل الوحدوية في الوجود، يقوم في المجتمع هذا النوع من التحليل للتجمع البشري. وبالشكل نفسه الذي يطرح التوحيد في ساحة الوجود للنظام الكوني. وهو عامل للنضال ضد القوى الداعية للتفرقة والتضاد، وأرباب الأنوار. والقوى الغيبية وما وراء الطبيعة، المؤثرة في تقرير مصير الإنسان والمجتمع. عرف التوحيد في المجتمع البشري أيضا، بصفته عاملا مفندا للأرباب الموجودين على وجه الأرض والمسيطرين على مصائر الناس والغاصبين لقدراتهم. والذين يعينون النظم الاجتماعية وشكل حياة الأفراد، والطبقات والعلاقات الاجتماعية. وبعبارة واحدة عامة هو الشرك الإنساني»[٧].

وبالجملة فإن من المداخل الأساسية لعلم اجتماع إسلامي الانطلاق من مبدأ التوحيد، بأبعاده المختلفة، غير المفصول عن مبدأ الاستخلاف الإنساني، وما يقتضيانه من استحضار للجانب القيمي الروحي، والمعطى الأممي المنفتح الذي تنتفي في نطاقه مختلف النواظم المحدودة الضيقة والاعتبارات االفردية المادية، في مقابل بروز معالم «النموذج الإلهي» الذي جاء به الوحي الرباني، أساسا للتعامل الإنساني تفكرا ونظرا، عملا وفعلا، تمثلا وتطبيقا.

إضافة إلى هذا ينبغي أن تكون النظرية الإسلامية ذات جوهر نقدي، بحيث تنزع نحو التفكيك والتحليل للواقع الإنساني. بهدف خلق التمايز وتحقيق التجاوز، كما ينبغي أن تكون استراتيجية تسعى للتخطيط للمستقبل لأجل الاقتراب ما أمكن من النموذج الإسلامي المبتغى.

الهوامش

١- إلياس بايونس. علم الاجتماع والواقع الاجتماعي المسلم. ص:٥١.
٢- إلياس بايونس. علم الاجتماع والواقع الاجتماعي المسلم. ص:٥٢.
٣- إسماعيل الفاروقي. العلوم الطبيعية والاجتماعية. م. س. ص: ٣٣.
٤- المرجع السابق. ص: ٨٤.
٥- إلياس بايونس. علم الاجتماع. م. س. ص: ٥٧.
٦- علي شريعتي. مسؤولية المثقف. ترجمة إبراهيم الدسوقي شتا. دار الأمير. لبنان. ٢٠٠٥. ص:٤٤.
٧- المرجع السابق. ص: ٤٥-٤٦.

العالم المقرئ
عبدالحكيم خاطر في ذمة الله

هو الشيخ عبدالحكيم عبدالسلام عبدالحفيظ خاطر. ولد في قرية البرمبل مركز أطفيح - الصف- الجيزة بجمهورية مصر العربية، وذلك في ١٩٤٥/٨/١م.

حياته العلمية

التحق بكُتاب القرية منذ صغره، فحفظ القرآن الكريم ثم جوده برواية حفص عن عاصم من طريق الشاطبية.

ثم التحق بمعهد القراءات بالأزهر عام ١٩٦٤م، وتخرج منه وحصل على شهادة التخصص في القراءات عام ١٩٧١م.

ثم التحق بالقسم العالي بكلية الدراسات الإسلامية والعربية بجامعة الأزهر، وتخرج منها وحصل على الإجازة العالية في الدراسات الإسلامية والعربية عام ١٩٧٥م.

ثم عين معيدًا بقسم الشريعة بالكلية عام ١٩٧٦م.

ثم حصل على دبلومين في الشريعة الإسلامية في كلية الشريعة عام ١٩٨٠م.

ثم تعاقد مع الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة مدرسًا بكلية القرآن الكريم عام ١٩٨١م حتى عام ١٩٩٣م.

ثم عين عضوًا باللجنة العلمية لمراجعة مصحف المدينة المنورة بمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ثم عضوًا بالإشراف على تسجيل المصحف المرتل بالمجمع عام ١٩٩٤م.

شيوخه:

١- بدوي خاطر - جد المتوفى-.
٢- الشيخ عبدالعاطي راضي.
٣- الشيخ أحمد خليفة.
٤- الشيخ عبداللطيف سليمان.

أربعتهم قرأ عليهم القرآن الكريم وحفظه ثم جوده برواية حفص عن عاصم من طريق الشاطبية.

٥- الشيخ أحمد عبدالعزيز الزيات، قرأ عليه القرآن كاملًا برواية حفص عن عاصم، بمضمن كتاب روضة ابن المعدل، ثم قرأ ختمة أخرى كاملة بالقراءات العشر الصغرى من طريقي الشاطبية والدرة.

٦- الشيخ عبدالفتاح المرصفي، قرأ عليه القرآن الكريم بالقراءات العشر الصغرى، من أول القرآن إلى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلاهُمُ الحَقِّ..﴾ من سورة الأنعام، ثم توفي الشيخ عبدالفتاح المرصفي.

ومن شيوخه في القراءات أيضًا:

٧- الشيخ محمد السباعي عامر، من كبار علماء الأزهر الشريف.
٨- الشيخ رزق خليل حبة، شيخ عموم المقارئ بالديار المصرية سابقا، وعضو المجلس الأعلى للبحوث الإسلامية بالأزهر.
٩- الشيخ أحمد مرعي.
١٠- الشيخ محمد برافق.

وهم من كبار علماء الأزهر الشريف.

ومن شيوخه الذين تلقى عنهم علم التجويد والفقه والحديث والتفسير والأدب واللغة العربية والسيرة النبوية:

١- الشيخ محمد نجيب المطيعي -صاحب تكملة كتاب «المجموع» للإمام النووي- ويعتبر من أعلى الأسانيد في السنة النبوية المطهرة، فهو محدث فقيه مفسر لغوي.
٢- الشيخ عبدالحليم محمود، شيخ الأزهر سابقًا.
٣- الشيخ الداعية محمد الغزالي السقا.

وفاته: بعد رحلة طويلة مع القرآن الكريم، قضاها الشيخ في المدينة المنورة، ملازما خوخة أبي بكر الصديق رضي الله عنه وقد ختم على يديه مئات من طلبة العلم القرآن الكريم على مدى سنوات طويلة بروايات مفردة وقراءات متعددة، توفي الشيخ ليلة الأربعاء (٢٠١٣/٩/٤) بمنزله بالقاهرة، عن عمر مبارك قارب السبعين.. رحمة الله عليه ورضوانه.. وإنا لله وإنا إليه راجعون.

هل أصبح دم المسلم رخيصا؟!

د.آندي حجازي
كاتبة صحفية أردنية

في هذا العالم وفي هذا الوقت من الزمن أصبحنا نسمع ونرى أمورًا عجيبة يصعب إدراكها بعقلنا البشري، نسمع ونشاهد كل يوم عدادًا يزداد بأرقامه زيادة يومية متواصلة بلا هوادة، إنها عدادات القتلى والجرحى التي تدور بشكل سريع بلا توقف! والغريب أننا لا نرى تلك الغرائب من الفتن والاقتتال بين أبناء الشعب الواحد إلا في بلداننا العربية! مما يثير تساؤلات كثيرة تحمل آراء مثيرة للجدل عن مدى شرعية ما يحدث..

وأول ما يتبادر للذهن في خضم هذه الفوضى والفتن الدائرة اليوم.. هل أصبح الدم العربي والدم المسلم رخيصًا متاحًا منتهكًا إلى هذا الحد؟ ودون إعمال للعقل أو الفكر أو المنطق الحكيم! وبحجة البحث عن الحرية والديموقراطية والحياة الفضلى! ولماذا أصبح المسلم يقتل أخاه المسلم بكل تلك السهولة واللامبالاة على الرغم مما يسببه هذا الانتهاك لحرمة دم المسلم من مصير سيئ لمرتكبه في الدنيا والآخرة؟! وقد عظم الله تعالى حرمة الدم بقوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٩٣)، فجريمة القتل العمد هي الجريمة الوحيدة في القرآن الكريم التي توعد الله صاحبها بخمس عقوبات كما ورد في الآية الكريمة، وليس عقوبة واحدة.

والأكد أن رسول الله ﷺ قد حذر كثيرا من قتل المسلم أخاه المسلم وذلك في أحاديث كثيرة ولكن هل من متفكر؟! ومنها قوله عليه الصلاة والسلام: «والذي نفسي بيده لقتل مؤمن أعظم عند الله من زوال الدنيا» (أخرجه النسائي). وهذا الحديث وحده كاف لبيان عظيم حرمة دم المسلم، فما موقف القاتل وما مصيره عند الله يوم القيامة حيث وقع في دم حرام؟! وذكر ﷺ: «لحرمة دم المسلم أشد عند الله من حرمة الكعبة». وقال عليه الصلاة والسلام: «لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: كفر بعد إسلامه، أو زنى بعد إحصانه، أو قتل نفسًا بغير نفس» (أخرجه أبوداود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه). وفي تحذير لرسول الله ﷺ من حرمة الاعتداء على المسلم بقتله: «لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض» (رواه البخاري ومسلم). وفي خطورة حرمة دم المسلم أيضًا ما ورد في هذا الحديث الصحيح الذي رواه النسائي عن معاوية رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا الرجل يقتل المؤمن متعمدًا أو الرجل يموت كافرًا». وقال ﷺ: «أول ما يحاسب به العبد الصلاة، وأول ما يقضى بين الناس الدماء» (رواه البخاري ومسلم).

فتأمل معي- أخي القارئ- كل هذه النصوص- وهي غيض من فيض- وما فيها من التحذير والوعيد من الاعتداء على المسلم بغير وجه حق، أو من أجل الحفاظ على سلطة أو منصب، أو من أجل حفنة من المال..

والغريب في الأمر أن الإنسان ينسى أنه خلق من تراب ومن نطفة وأنه سيعود للتراب مهما عاش وعمر وبنى من القصور وجمع من المال ومن متع الحياة.. فإنه لا محالة زائل بعد بضع سنوات أو أشهر أو أيام أو عقود، فكم من طاغية تجبر وتكبر فكان مصيره كمصير فرعون وهامان وقارون.. فهل يمكن للطغيان والظلم أن يستمر في ظل رحمة الله تعالى ببني البشر؟ فمهما طال زمن التكبر والتجبر فإنه لن يدوم، فالله تعالى يملي للإنسان ويمد له مدا عله يتراجع أو يتدارك خطأه أو يستغفر خالقه، ولكن طغيان الماديات يعمي ويصم ويجعل البعض ينسى أنه بشر وأنه كائن ضعيف لا يملك حتى صحته أو حياته أو مماته.. فعلام يقتل الإنسان أخاه الإنسان أو يعذبه أو يضطهده؟ وهو زائل لا محالة ولن يأخذ معه سوى رصيد أعماله لا رصيد أمواله!

فالطمع بتكديس الأموال وجمع الأرصدة هو ما يحرك الطغاة اليوم من أجل قتل الآخرين وتدمير بيوتهم وحياتهم دون تفكير، فهم يعيشون وهْم الحياة الأزلية الخالدة على هذه الأرض، لأنهم لا يؤمنون بالحياة الأخرى الخالدة فعلًا عند الله تعالى..

أفلا يرى من نصّب نفسه على البلاد والعباد أن عليه تعمير البلاد بشتى الطرق والوسائل من أجل بلده وشعبه ومن أجل التاريخ- كما فعل الكثير ممن سلف وكما يفعل زعماء الغرب اليوم- ومن أجل مصيره عند الله تعالى بدلا مما نسمع اليوم من أمور لا تصدق من قتل ودمار وتشريد وتعذيب وشتات! فأي تقدم يحمل هؤلاء في جعبتهم لبلادهم؟!

خطوط نفسية

ومن الناحية النفسية ألا يفكر هؤلاء الطغاة والمرتزقة الذين يعتدون على الآخرين من أجل مبلغ زهيد من المال كم من طفل يقتلون بلا ذنب؟ وكم من طفلٍ يخلف بلا أهل أو حضن حنون يحميه فيعيش مرارة اليتم مدى الحياة؟ ألا يفكر ولو للحظة كيف سيعيش هؤلاء الأطفال؟ وما التفاؤل بالمستقبل الذي سيحمله هؤلاء الأطفال بين جنباتهم؟ وكم من الخوف سيملأ قلوبهم وسيترعرع بين جُنُوبهم؟ وكم من الأمل الضئيل بحياة أفضل سينشأ في عقولهم؟ ألا يستحق الأطفال- ذوو القلوب البريئة- التفكير في مستقبلهم وفي تطوير جوانب حياتهم في وطننا العربي بدلا من إهدار دمائهم وتدمير بيوتهم وأحلامهم وآمالهم؟ الكثير من الأطفال محظوظون اليوم لأنهم يعيشون بأمان، ولكن بالمقابل الكثيرون لقوا حتفهم أو انهارت عليهم بيوتهم أو كانوا أقل حظًا بالعيش تحت وابل الرصاص والقناصة والمدافع بلا رحمة، أو باتوا فوق أكوام بيوتهم ومدارسهم، أو بين أحضان أم متوفاة أو والد حبيس القضبان.. فهل نرحم الأطفال والطفولة والبراءة بين أعينهم إن لم نرحم أنفسنا؟!

ألا يفكر من ينوي الاعتداء على النساء والرجال كم من امرأة ثكلى سيخلف وراءه؟ وكم من طفل يتيم سيترك؟! وكم من مأساة ستستمر مدى الحياة دون أن يشعر بها المعتدون؟ وكم من فرصة للإصلاح يضيعون؟ وكم من أمل يقتلون؟ وكم من السنين سنحتاج للإعمار للبلاد ولإعادة الأمور إلى نصابها الحقيقي؟ وكم من السنين والأجيال سنحتاج لإعادة المياه إلى مجاريها بعد التصدع الذي يحدث أو حدث بين أروقتها؟! فأين حب البلاد والإخلاص لها ولشعبها مهما اختلفت توجهاته وديناته ومذاهبه؟ فالحياة منذ أن بدأت والاختلاف موجود بين بني البشر، ولكنها كانت دومًا تستمر بخسائر أقل مما نحن فيه اليوم حيث بتنا في فتنٍ عظيمة لا يعرف القاتل فيها في أيِّ شيء قَتل ولا المقتول في أي شيء قُتل! كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ لما سيحدث في آخر الزمان مع كثرة الهرج والمرج (وهو الموت والقتل بسبب وبدون سبب).

وفي مسند الإمام أحمد عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله ﷺ قال: «إن بين يدي الساعة الهرج» قيل وما الهرج؟ قال: «الكذب والقتل» (وذكر الكذب قبل القتل؛ لأن الكذب وسماعه وترويجه من أكبر أسباب انتشار القتل) قالوا: أكثر مما نقتل الآن؟! قال: «إنه ليس بقتلكم الكفار ولكنه قتل بعضكم بعضًا حتى يقتل الرجل جاره ويقتل أخاه ويقتل عمه ويقتل ابن عمه!». قالوا: سبحان الله! ومعنا عقولنا يومئذ؟! فقال: «إنه لتنزع عقول أهل ذلك الزمان حتى يحسب أحدهم أنه على شيء وليس على شيء».

إن للإعلام بشتى صوره ووسائله وخاصة المرئية منها دورًا كبيرًا في إثارة الفتن بين الفئات المختلفة في الرأي والمعتقدات، وفي إذكاء روح الصراعات واستغلال جهل بعض الجهال وضعف قدراتهم في فهم الصراعات السياسية، مما يثير بواعث الغضب والشعور بالانتقام، فلا تكاد ترى بواعث الفتنة قد أخمدت حتى يعيد الإعلام تأجيج نارها من جديد مرة متحججًا بنقل الحقيقة، ومرة لأجل سبق صحفي، ومرة لأجل المناقشة والمحاورة والمجادلة ما بين مؤيد ومعارض دون وصول إلى أية حلول وسطية ومفيدة! ومرة من أجل المتعة واستمرار نقل الأخبار والمحافظة على أكبر عدد من المشاهدين والمستمعين والزائرين للمواقع والقنوات! وقد روى ابن ماجه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من أعان على قتل مؤمنٍ بشطر كلمةٍ لقي الله عز وجل مكتوب بين عينيه آيس من رحمة الله»، فانظر كم كلمة اليوم تثير الفتن ولا يأبه صاحبها كيف ألقاها.

كما أصبح للإنترنت ومواقع التواصل الاجتماعي دور مهم في تحشيد الحشود وتجميع فئات الشعب في صفوف وراء أفكار ومعتقدات معينة متناقضة مع بعضها البعض، مما يعين على تذكية روح الخلاف والفتن، وبالتالي زيادة أعداد القتلى والمصابين، بل وجرّ البلاد والعباد لخطر الحروب الداخلية والأهلية!

كما أن لوسائل الإعلام دورًا بارزًا فيما تبثه اليوم من أفلام كثيرة في معظمها تحث على العنف والقتل وتوجه لفئات الشباب والأطفال، ما جعل الكثير من الناس يستهين بانتهاك حرمة الدم وكأن شيئا لا معنى له حينما يقتل المسلم أخاه المسلم أو ينتهك حرمته!.

حماية حرمات الإنسان أولى كليات التشريع الإسلامي

محمد سعيد باه
أستاذ جامعي - السنغال

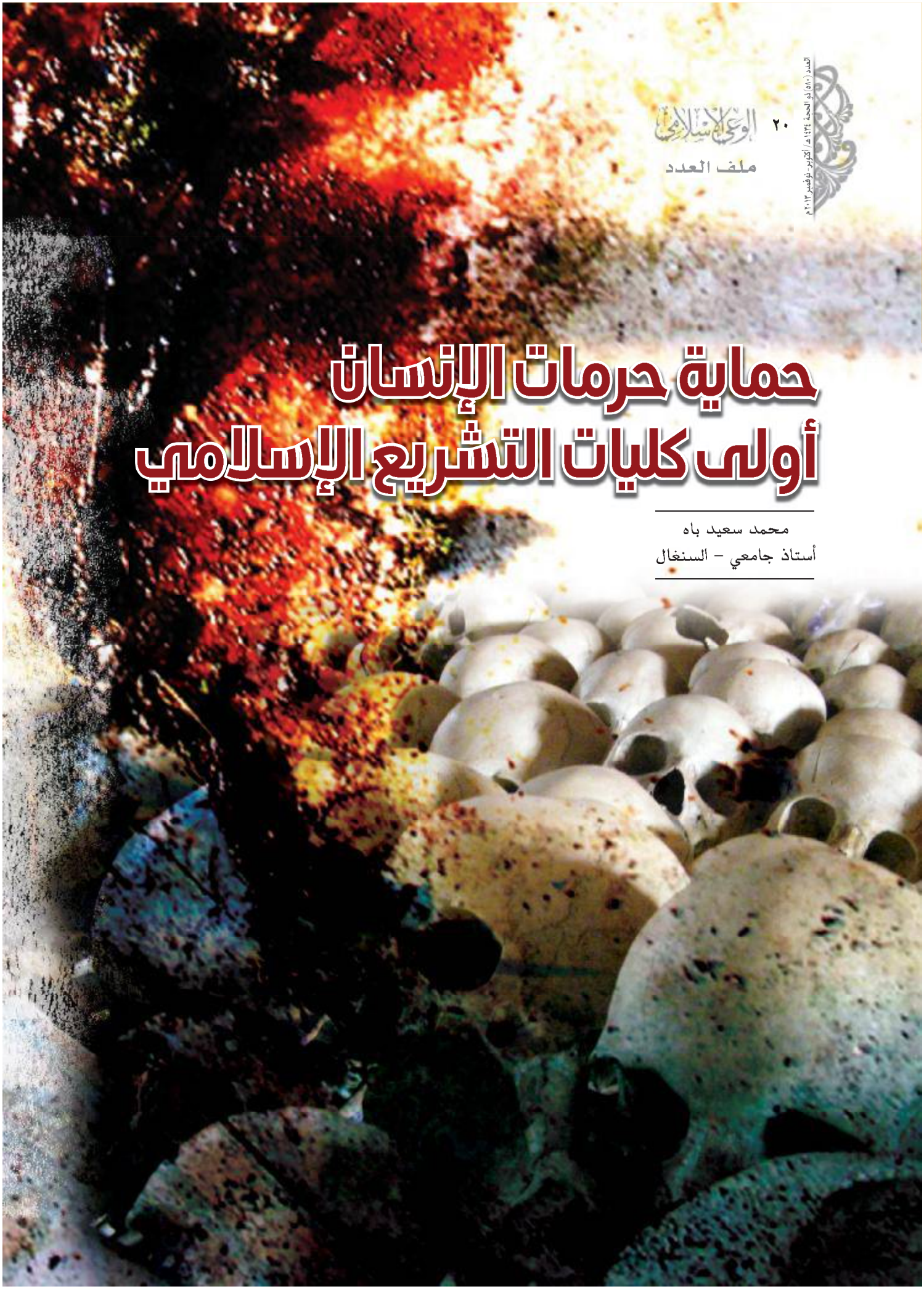

«إن من ورطات الأمور التي لا مخرج لمن أوقع نفسه فيها سفك الدم الحرام بغير حله»، (ابن عمر).

ينتظر العالم الحائر اليوم، ممن يبشر بما يحمله الإسلام للبشرية من حقائق ومنافع، أن يتقدموا بما يلبي نداء الاستغاثة الذي ينطلق من كل مكان في المعمورة، من خلال تناول عميق وواضح لتلك القضايا المؤرقة التي تهدد الحياة البشرية بمزيد من المآسي، وذلك ضمن صياغات قابلة للتوظيف، بعيدا عن الوعود المجنحة والتفريعات المخيبة، بحيث تلامس تلك الصيغ أشد الهموم وقعا، مثل: الملف البيئي المحترق، بناء منظومة عالمية في العلاقات البينية تقوم على ركيزتي العدل والرحمة، تدارك الوضع الاقتصادي والمالي الآيل للسقوط جراء إفلاس المنظومة الربوية التي سادت وأبادت شعوبا وأمما قبل أن تبيد بدورها.

لكن قضية القضايا التي تأتي على رأس قائمة تلك الهموم، والتي ينتظر الناس من يصف لهم معالم طريق الخروج من نفقها الدامس الظلام، تتمثل في ملف «حرمات الإنسان الكلية» التي يعبر عنها اليوم بصورة أقل دقة في نظري، بـ: «حقوق الإنسان»، وهي التي صاغها الأقدمون، الذين كانوا أكثر التصاقا بمنطوق ومفهوم نصوصهم، باصطلاحات تناسب واقعهم أو تستجيب لعقليات وأذواق أزمنتهم مثل «الدماء»، موضوع مقالنا.

الوشاح الأحمر يلف الأرض

من أبرز سمات العصر الحديث اتساع موجة المساس بتلك الحرمات ماديا ومعنويا، لدرجة الترخص في إهراق الدم البشري وبكميات هائلة جدا، وهذا هو الواقع المرير الذي يشهد عليه انتشار ظاهرة حروب الإبادة الجماعية في هذه الفترة العصيبة، ربما أكثر من أي فترة تاريخية أخرى(١)، كما تُرينا هذه الحقائق المرة الإحصاءات التي تصف الأرقام الفلكية عن الأعداد الضخمة من الأرواح البشرية التي تزهق اليوم في العالم، وعلى مدار الساعة، والتي تبلغ (١٤٤٠) وفقا لأحدث الإحصاءات المتعلقة بانتشار السلاح، ما يعني موت شخص لكل دقيقة بسبب العنف المسلح.

ولدينا (٩٣,٥) مليون نسمة التي حصدتها آلة الدمار العمياء خلال الحربين العالميتين اللتين عاشتهما الكرة الأرضية، واصطلى البشر بويلاتهما ما لم تعان منه في أية حقبة تاريخية أخرى، ثم يأتي الرقم المفزع الذي يقدر قتلى القرن الميلادي المنصرم (١٩٠٧ – ٢٠٠٧م) بحوالي ربع مليار شخص.

سيلان الدم الإسلامي

فإذا ضيقنا دائرة التأمل وحصرنا اهتمامنا في الأجزاء التي يقطنها المسلمون في المعمورة، سنجد أن الواقع أشد مرارة بكثير، ما جعل مفهوم كون الدم المسلم أصبح، بعد أن كان مصونا وغالي الثمن، أرخص الدماء في العالم كله، يروج على نطاق واسع، وهذه هي الحقيقة الدامغة التي تتضح لنا من الحقائق التالية:

١- عاشت بلدان العالم الإسلامي، في القارات التي يتمركزون فيها (آسيا وإفريقيا وأوروبا)، منذ مستهل القرن الهجري الحالي ما يبلغ (١٧) حربا ضروسا ملأت جثثها شاشات العالم.

٢- وطبقا لأكثر الإحصاءات مصداقية فإن الخسائر البشرية في هذه الحروب تقدر بالملايين من الأنفس وذلك خلال (٣٤) سنة فقط أي ابتداء من العام ١٤٠٠هـ حتى ١٤٣٤هـ، وتتجاوز هذه النسبة ٧٠ ٪ من إجمالي الحروب التي شهدها العالم خلال هذه الفترة.

مصدر الاختلال

وأمام لوحة بهذه القتامة لنا حق التساؤل: أين يكمن الخلل؟

في حين نعترف بهذه الحقيقة الماثلة للعيان، نجزم بأن مرد ذلك ليس بسبب المنهجية الفكرية التي تتحدد بها مواقف المسلمين من قضية الحياة البشرية من حيث القيمة وطرائق التعاطي معها، وتبعا لذلك لابد من البحث عن العوامل الكامنة وراء الظاهرة المدمرة التي كلفت الأمم والشعوب الإسلامية ثمنا باهظا.

أما العامل الجوهري الذي يكاد يختزل كل المؤثرات، فيتمثل في الاختلال العنيف الذي وقع في الواقع الثقافي عبر العالم الإسلامي، حين سادت في جنباته ثقافة دخيلة حطمت كثيرا من المقومات الفكرية، وبالتالي تبدلت تلك المعادلات التي كانت تتحكم في مفاهيم وقيم وسلوكات المجتمعات الإسلامية، ما جعلها، حين خضعت لإملاءات الإرادة الخارجية، تعجز عن القيام بواجبها الأخلاقي تجاه الآخرين؛ والمتمثلة أساسا في التبشير بثقافة السلام التي هي إحدى أهم العناوين التي تتعاطى من خلالها مع بقية سكان العالم.

هنا لا يمكننا أن نسقط من حسابنا عاملا جوهريا له وزنه الضخم في

خلق هذا الواقع المائل الذي أفرز كل هذه السلسة من المأساة المتكررة (سيلان الدماء البشرية)، ونشير هنا إلى الرؤية الحضارية القائمة على القوة التي طبعت مسلك العالم الغربي، في بداية سيادة نموذجه الحضاري على العالم، وتم تصديره إلينا منذ بداية الاحتكاك، ثم استمر هذا المسار في خط صاعد حتى اليوم.

وهذه الرؤية هي التي تكمن وراء حقيقة جعل «السلاح» بما يرمز إليه من بطش وتنكيل، أهم عنوان لهذا النمط الحضاري، وقد بدأ هذا العامل يرتد إلى نحر أصحابه كما تقول الدراسات التي تتناول اليوم ظاهرة السقوط الحضاري التي تهدد هذا النموذج بخطر الاندحار أمام تقدم نموذج مضاد (المشروع الإسلامي الحضاري البديل أو المستأنف)(٢)، الذي يعتبر من أهم مرتكزاته تقديس الحياة البشرية وجعلها محور الوجود وفي قلب المشروع الذي يبشر به.

الكليات الحامية ودلالتها

كان الإنسان – هذا المخلوق المكرم المستخلف – وسيظل حجر الزاوية في كل منظومة فكرية يمكن أن ننسبها إلى الإسلام، وهذه الحقيقة تتضح في كل الأنساق التي انبثقت عن الإسلام، سواء تعلق الأمر بالتشريعات الضابطة للحياة الاجتماعية والاقتصادية أم بالقيم العليا التي تنتظم بها الحياة العامة، وهي الحقيقة التي لاحظها الأصوليون المسلمون في قراءة دقيقة مستوعبة ثم استخرجوا منها مفهوم «أن جوهر وظيفة الدين هو حماية الكليات الخمس التي تدور في فلكها حياة الإنسان» (النفس، العقل، الدين، العرض، المال).

حتى حين نرتب هذه الكليات ترتيبا تصاعديا منطقيا (طبقا للنسق الذي اعتمدناه اختيارا) سنلحظ جليا أنها تعود لتحتشد حول تحقيق هدف مرتكز، وهو وضع سياج آمن يحتضن مفهومي «حماية حرمات حياة الإنسان وتحقيق كرامته» والحيلولة دون أن تستباحا، نقصد أنه لا معنى لهذه الكليات في المحصل النهائي إذا لم تحقق مطلب بقاء الإنسان كائنا سيدا مطلق اليد في مائدة الكون العامرة، يتحرك في جنباته مرفوع الرأس موفور الكرامة، لا يشترط لوجوده شيء إلا إرادة خالقه الذي برأه واستأمنه على هذه الحياة ليثريها وينميها بقدر ما يجعل حياته هو متناغمة مع جوقة الكون المسبح القانت لربه.

من أروع الصيغ التي تدل على الرؤية الإنسانية التي حددها التشريع الإسلامي لمنع انتهاك حرمة الحياة البشرية، أنه حين اضطر – تجاوبا مع الطبيعة البشرية في قدرتها على الانحراف والإيغال في ارتكاب الفظائع بحيث لا يستثني القضاء على حياة إنسان مثله – إلى وضع تشريع للحد من غلواء الجنوح إلى إراقة الدماء، أحاط ذلك بمفهوم الحياة مستبعدا تجليات الموت وما يتبعه من قساوة في الشعور الإنساني السوي مهما كانت المبررات والدواعي:

﴿وَلَكُمْ فِي القِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ (البقرة: ١٧٩).

ونستأنس في شرح أبعاد هذه القاعدة القرآنية العجيبة في السعي الحثيث إلى منع إراقة دماء الناس بما استنبطه بعض العلماء تعليقا على الآية الكريمة:

يقول الإمام ابن كثير:

«وفي شرع القصاص لكم – وهو قتل القاتل – حكمة عظيمة لكم، وهي بقاء المهج وصونها..»(٣).

أما أبوالعالية فقد عبر عن ذلك بقوله:

«جعل الله القصاص حياة، فكم من رجل يريد أن يَقتل فتمنعه مخافة أن يقتل»(٤).

فداحة جرم إراقة الدم البشري

في البدء نجلي نقطة محورية تتعلق بكون الإنسان يكتسب، من المنظور الإسلامي الأصيل، ببشريته المطلقة خاصية «الحصانة الشاملة»، وأهمية توضيح هذه النقطة تكمن في وجود النظرة النمطية التي بناها خصوم الإسلام حين نجحوا في تصوير الإسلام دينا يصنف ضمن دائرة الأنظمة الأقل تقديرا للحياة الإنسانية، بل إنهم ليقولون بأن النصوص التشريعية في الإسلام لتتسم بأعلى درجة من القسوة المتناهية.

لكن هذه النظرة الخارجية تتقاطع تماما مع المفهوم الأم الذي تبنيه النصوص الأصولية التي يجب الانطلاق منها، وليست من بعض الممارسات المنفلتة وربما المتصادمة مع حقائق الإسلام الثابتة، للوقوف على ما يطرحه هذا الدين من رؤى ويضعه من قواعد عقدية وقيم مفاهيمية وضوابط سلوكية تلتقي كلها عند نقطة تكريس قاعدة «حرمة وخطورة المساس بالحياة البشرية»، وفي النماذج التالية التي نقتطعها دلالة:

﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ

فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾(المائدة: ٣٢).

والنقطة التي تلفت النظر بقوة، فضلا عن اتباع النهج التعميمي في النتائج المترتبة على اختيار سلوك إحدى الطريقتين إما الإماتة وإما الإحياء لكافة الخلق، ربط تعمد القضاء على حياة بشرية واحدة بجرم الإفساد في الأرض في الحيثيات: «أو فساد في الأرض»، وفي التعقيب التالي: «ويسعون في الأرض فسادا».

تكاد عبارة علماء التفسير تلتقي على المعنى العميق للآية، وهو أن الكف عن قتل النفس إحياء لها فضلا عن المعنى المتبادر الذي تفقهه العامة، والمتمثلة في أن كل جهد نبذله لحماية هذه الحياة (علاجا وترشيدا وحماية ودفاعا...) إحياء لكل الأنفس التي خلقها الله وأراد لها الحياة الكريمة، ولا يحق لأحد أن يضع لها حدا إلا بارئها طبقا لتقديراته الكونية أو التشريعية.

«لايزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دما حراما»(رواه الإمام البخاري).

«والذي نفسي بيده لقتل مؤمن أعظم عند الله من زوال الدنيا»(أخرجه النسائي من حديث عبدالله بن عمرو).

وتفيدنا التجربة التاريخية الماثلة صدق هذه المقولة النبوية العجيبة، وذلك إذا ألقينا نظرة على مآلات أولئك الطغاة من الأفراد والجماعات التي أسالت الدماء بغيا وعدوانا، حيث نرى عجيب انتقام الله فيهم.

لقد جعل تغلغل هذه التربية القرآنية وهذا التوجيه النبوي، في وجوب حماية «حرمات الإنسان» بدءًا وانتهاء بدمه، الأمة الإسلامية تقف من محاولة العبث بالدم البشري موقفا لا يعرف المهادنة ولا الملاينة، مهما كانت الظروف أو الأوضاع أو الجهة المتورطة في ارتكاب هذا الجرم، يقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

«لو تمالأ عليه (يقصد غلاما اشترك سبعة أشخاص في قتله) أهل صنعاء لقتلتهم»(٥).

«من لقي الله لا يشرك به شيئا ولم يتند بدم حرام دخل الجنة»(رواه الترمذي من حديث عقبة بن عامر الجهني).

البحث عن طوق النجاة

تسعى النصوص الإسلامية، بمستوياتها الثلاثة: المفاهيمية، التشريعية، الأخلاقية، إلى تعميق المعنى الحقيقي لقدسية الحياة الإنسانية، وتسلك شتى الدروب لتعميق هذه الحقيقة في العقل والوجدان، حتى إذا استقرت ووضحت انبثق عن ذلك سلوك مغاير تماما لما عليه البشر اليوم في التفنن في إهدار الدم الإنساني إلى حد العبث.

ولتقرير أثر هذه التربية الإيمانية نعيد قراءة هذه القصة الفريدة التي تثبت نجاعة هذا الخيار حتى في أشد اللحظات حراجة، روى عدد من الثقات عن أبي هريرة رضي الله عنه قوله:

«دخلت على عثمان – يوم الدار – فقلت: جئت لأنصرك، وقد طاب الضرب، يا أمير المؤمنين! فقال: يا أبا هريرة، أيسرك أن تقتل الناس جميعا وإياي معهم؟ قلت: لا! قال: فإنك إن قتلت رجلا واحدا فكأنما قتلت الناس جميعا؛ فانصرف مأذونا لك!»(٦).

نحن مستيقنون بأن وضع «حماية حرمات الإنسان وصون كرامته» سيتحسن كثيرا، وسيتوقف سيلان الدم المسلم خاصة، حين نعدل الرؤية من خلال نهج تربوي يقوم على مثل هذا النمط من ضبط المفاهيم ووضع سلم صحيح لترتيب الحقائق والأوضاع.

عن عبدالله بن عمر بن الخطاب (رضي الله عنهما) قال: رأيت رسول الله ﷺ، يطوف بالكعبة ويقول: «ما أطيبك (يخاطب الكعبة) وأطيب ريحك، ما أعظمك وأعظم حرمتك، والذي نفس محمد بيده لحرمة المؤمن أعظم حرمة عند الله منك، ماله ودمه وأن نظن به إلا خيرا» (رواه ابن ماجه، وحكم المحدث الألباني بصحته).

الهوامش

١- هنا مؤشر مهم يتلخص في أن عدد الضحايا الذين سقطوا في جميع المعارك التي خاضها الإسلام في عصر النبوة، ومن الجانبين، لا يتجاوز، حسب أكثر الإحصاءات دقة (١٥٠٠) قتيل.

٢- من آخر وأهم ما صدر من كتب جادة تعالج هذا الموضوع «عالم ما بعد نهاية أميركا» من تأليف الكاتب فريد رفيق زكريا، في مجلة «النيوزويك» الأميركية الشهيرة.

٣- تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير.

٤- المصدر نفسه.

٥- وبناء على عدم مخالفة أي من الصحابة الذين كانوا وافرين يومه مذهب الخليفة، استخرج ابن كثير من ذلك موقفا إجماعيا حول المسألة، رغم ما سيشجر بعد ذلك من شقاق فقهي حيال المسألة، وهو الجدل الذي لا يعول عليه كثيرا، إذا نظرنا إليه على ضوء الواقع الثقافي والاجتماعي الذي كان سائدا آنئذ.

٦- ممن أورد القصة الإمام ابن كثير في التفسير ونسبه إلى الأعمش وغيره عن طريق أبي صالح يرفعه إلى أبي هريرة رضي الله عنه، كما ورد أيضا في سنن سعيد بن منصور، جزء ٢.

العدد (٥٨٠) ذو الحجة ١٤٣٤هـ/ أكتوبر- نوفمبر ٢٠١٣م

٥ خطوات لحقن الدماء

السنوسي محمد السنوسي
كاتب مصري

«الإنسان» هو عماد الحضارات.. لكن أي «حضارة» تبقى إذا أريق دم هذا الإنسان بغير حق؟!
و«حقوق الإنسان» هي من أعظم ما استقر في حضارتنا المعاصرة من منجزات إنسانية.. لكن ما قيمة تلك «الحقوق» إذا أبيح دم صاحبها وأزهقت روحه بغيا وعدوانا؟!

إذن نحن في هذه القضية -وهي تأكيد حرمة الدماء- لسنا بإزاء قضية فرعية، أو أمر هامشي يمكن أن نتغاضى عنه أو نتجاوزه؛ بل نحن أمام قضية تمثل جوهر قضايا متعددة، وأمام استحقاق تأسيسي تنبني عليه بالضرورة مواقفنا من تفريعات كثيرة.

فمن يستهين بحرمة الدماء، هل يمكن أن يبني حضارة؟!

ومن لا يعظم صنعة الله، هل يمكن أن يقر لها بحقوق؟!

لهذا، كان التأكيد على حرمة الدماء مطلبا حضاريا عمرانيا إنسانيا مجتمعيا، قبل أن يكون فريضة شرعية وواجبا أخلاقيا.

صنعة الله

إن الإنسان هو ذلك الكائن الذي خلقه الله بيديه، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وسخر له ما في السموات والأرض جميعا منه، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، وفضله على كثير ممن خلق تفضيلا.

ومن هنا، كان الاعتداء -بغير حق- على هذا المخلوق المكرم، وتلك الصنعة المميزة من بين الكائنات على ظهر الأرض؛ اعتداء على أمر الله في الخلق والتكوين والمشيئة.

بل إن الاعتداء على النفس والاستهانة بالدماء، حرام على الإنسان حتى منه على نفسه وبيده! فكما يحرم على أحد أن يعتدي على أحد، كذلك يحرم على الإنسان أن يعتدي على ذاته.

وفي الحديث القدسي يقول الله عز وجل عن المنتحر، الذي يبادر بإزهاق روحه بيده: «بدرني عبدي بنفسه، حرمت عليه الجنة»(متفق عليه).

فالحفاظ على الذات، وتحريم سفك الدم، ليس «حقا» للإنسان بالمعنى المفهوم من كلمة «حق»، أي يجوز له أن يتخلى عنه أو يهبه لغيره؛ بل هو «واجب» على الإنسان، يأثم حين يفرط فيه، حتى لو كان هذا التفريط بيد الإنسان نفسه على ذاته.. فكيف لو وقع الاعتداء من آخرين؟!

لا تهاون في الدماء

إن النصوص الإسلامية -من القرآن الكريم والسنة النبوية- الواردة بشأن تعظيم الدماء، أكثر من أن تحصى.

يكفي أن نشير إلى أن الآية الوحيدة في القرآن الكريم التي جمعت في عقوبة الآخرة بين الدخول في النار، والخلود فيها، وغضب الله، ولعنته، والعذاب العظيم؛ هي الآية المتعلقة ببيان عقوبة القتل العمد، قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٩٣).

وفي كثير من المواضع استخدم القرآن الكريم كلمة «النفس»، في التحذير من سفك الدماء، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا﴾ (الإسراء: ٣٣)، وقال أيضا: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ (المائدة: ٣٢)؛ وذلك تأكيدا منه سبحانه وتعالى على حرمة «النفس».. مطلق النفس.

وكان الأمر بعدم الاعتداء على النفس مما تواصى به الأنبياء، ومن الوصايا العشر التي وصى بها موسى عليه السلام قومه[1]، ومما ذكره النبي ﷺ بخطبة الوداع[2]؛ وهي الخطبة التي حرص فيها صلى الله عليه وسلم على أن يؤكد معالم الإسلام ويجملها ويوجزها.

ولمَ لا تكون لعصمة الدماء تلك المكانة الكبيرة من بين مقاصد الإسلام، وأولى خطايا بني آدم: القتل، حين اعتدى قابيل على أخيه هابيل بسفك دمه؟!.. ومن ثم، كان على قابيل وزر من كل نفس تقتل -بغير حق- من بعده إلى قيام الساعة، كما جاء في الحديث الشريف[3].

الدماء تهدم الحضارات

«الإنسان مدني بطبعه».. تلك حقيقة

مقررة يتفرد بها الإنسان من بين الكائنات؛ وقد أثبتها ابن خلدون في مقدمته، وهي تعني أن الإنسان من شأنه وطبعه أن يألف ويؤلف، ويعيش في جماعات لا فردا؛ حتى يستطيع أن يشيد حضارة، ويرسخ مجتمعا، ويقيم بنيانا... أما الحيوانات -مثلا- فعندها من الاكتفاء الذاتي ما يحقق لها استقلالية تغنيها عن بني جنسها، فضلا عن الآخرين.

ولنا أن نتصور أي بؤس وشقاء يحل بمجتمع من المجتمعات، أو يتسلط على حضارة من الحضارات، حين يكون سفك دم الإنسان أهون من سفك دم البعوض؟! أو حين لا يكون الإنسان في مأمن على حياته وحقوقه؟!

هل يمكن أن تقوم حضارة أو يتماسك مجتمع؟!

إن الأهواء حين تتلاعب بحرمة الدماء، يصير قانون القوة -حينئذ- هو الحكم، وأجواء الغابة هي المسيطرة.. وساعتها لا تسأل عما دون ذلك من حقوق!

ولذلك كان حق، بل واجب صيانة الدماء هو الركيزة التي تبنى عليها بقية الحقوق، ومن ثم تتأسس الحضارات.. ومتى تأكدت حرمة الدماء، فما بعدها أيسر.

ولنا في التاريخ الحديث عبرة!

هل شقيت أوروبا واكتوت بنار حربيها العالميتين، الأولى والثانية، اللتين راح ضحيتهما أكثر من ٧٠ مليون نفس، إلا بسبب الاستهانة بحرمة الدماء، والسير الأعمى وراء قادة أعمتهم ذواتهم المتضخمة، وساقتهم أنانيتهم المتوحشة إلى أتون نار متقدة؟!

وفي المقابل.. هل استقرت مجتمعات، وشيدت حضارات، إلا بعد أن عرف للإنسان إنسانيته، وعظمت حقوقه؛ التي على رأسها حفظ بنيانه، وتحريم دمائه، بغض النظر عن دينه أو لونه أو عرقه؟!

فيا لسعادة مجتمع تكون فيه حرمة الدماء حقيقة راسخة، وحرما آمنا لا يسمح بالاقتراب منه، فضلا عن العبث فيه.

كيف نحقن الدماء؟

هذا سؤال ينبغي أن يكون ضمن أولوياتنا، بعدما عرفنا أهمية ترسيخ حرمة الدماء، والمخاطر الكارثية التي تتكبدها البشرية جراء خدش تلك القيمة الكبرى.

وهذه بعض الخطوات مما يمكن أن نسهم به في حقن الدماء:

- ترسيخ حقوق الإنسان في واقعنا، فكرا وممارسة؛ وإدراك أن هذه الحقوق كما أنها «ثمرة» لتقرير حرمة دم الإنسان، فهي أيضا «سياج» لعدم خدش هذه الحرمة.. فالعلاقة بينهما تبادلية.
- الوعي بأن حقوق الإنسان ليست ترفا فكريا، ولا «ديكورا» نتجمل به؛ بل هي فريضة شرعية، وضرورة واقعية، وحتمية لازمة للبناء الحضاري.
- اعتماد الحوار -والحوار فقط- سبيلا لتقريب وجهات النظر وحسم الخلافات، وعدم اللجوء للعنف والقوة، وإدراك أن العنف دليل على ضعف الموقف واختلال الإسنادات المطلوبة لإقناع الآخرين عن طريق الحوار والسلم.
- فتح الأبواب أمام منافذ التعبير عن الآراء بالطرق السلمية؛ حتى لا يبرر البعض لنفسه اتخاذ طريق القوة والعنف، مما يترتب عليه بالضرورة إراقة الدماء.
- إعادة النظر في مناهج التربية الأسرية، وفي الخطاب الديني، وكذا الإعلامي؛ بما يرسخ قيم احترام الآخرين، ويجعل الحوار آلية للتعايش وإدارة الخلاف، ويؤكد حرمة الدماء.

الهوامش

١- وردت الوصايا العشر في سورة الأنعام، الأيات ١٥١: ١٥٣.

٢- روى البخاري بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ خطب الناس يوم النحر، فقال: «يأيها الناس أي يوم هذا؟ قالوا: يوم حرام. قال: فأي بلد هذا؟ قالوا: بلد حرام. قال: فأي شهر هذا؟ قالوا: شهر حرام. قال: فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا. فأعادها مرارا، ثم رفع رأسه فقال: اللهم هل بلغت، اللهم هل بلغت. قال ابن عباس رضي الله عنهما: فوالذي نفسي بيده، إنها لوصيته إلى أمته؛ فليبلغ الشاهد الغائب، لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض».

٣- روى البيهقي في «السنن الكبرى» عن عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من نفس تقتل نفسا ظلما، إلا كان على ابن آدم الأول كفل منها؛ لأنه سن القتل أولا».

دماء المسلمين وهدم الكعبة

تحقيق : نشوه صالح

دم المسلم لماذا حرمته الشريعة الإسلامية؟ وماهو الواجب على المسلمين عندما تكثر الفتن والصراعات التي تؤدي لمزيد من سفك الدماء؟ وماذا عن رأي الشرع في المفقودين في الأزمات والفتن التي تفتك بالمسلمين؟ هذه الأسئلة وغيرها طرحتها «الوعي الإسلامي» على رجال الدين الذين أكدوا على ضرورة الحفاظ على دماء المسلمين، لأن الله عز وجل أمر بعدم إباحتها بأي حال من الأحوال، بل إن الأمر يصل لأن تكون دماء المسلمين أهم عند الله من هدم الكعبة المشرفة.

وبينوا بأن الإسلام ينبذ العنف والقتل وترويع الآمنين، لافتين إلى أن ما يحدث الآن في عدد من دول الأمة الإسلامية فتنة واضحة بين أهل الإسلام تستدعي عدم الانجرار في القتل رحمة بدماء هذه الأمة.. وإليكم التفاصيل:

بداية تقابلنا مع الداعية الإسلامي عضو مجمع البحوث الإسلامية الشيخ محمود عاشور الذي أكد بدوره على ضرورة حقن دماء المسلمين، وإنها من الواجبات الأساسية في منهج الشريعة الإسلامية التي تأمر المسلم بألا يشهر سيفه في وجه أخيه المسلم، والحديث النبوي الشريف في ذلك واضح، حيث جاء في صحيح البخاري: «حدثني أبوكامل فضيل بن حسين الجحدري حدثنا حماد بن زيد عن أيوب ويونس عن الحسن عن الأحنف بن قيس قال: خرجت وأنا أريد هذا الرجل فلقيني أبوبكرة فقال أين تريد يا أحنف؟ قال: قلت أريد نصر ابن عم رسول الله ﷺ يعني عليًا قال: فقال لي يا أحنف ارجع فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار قال: فقلت: أو قيل: يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول قال إنه قد أراد قتل صاحبه» كما أن الآية الكريمة في سورة النساء تقول: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾.

آملاً أن يسعى علماء الدين الإسلامي الحنيف في نشر الجوانب المشرقة

في الدين الحنيف، لأنه ليس دين ترويع الناس وإباحة دمائهم بل هو دين الحفاظ على النفس البشرية التي خلقها الله عز وجل.

أما الداعية الإسلامي والخطيب في وزارة الأوقاف المصرية الشيخ أحمد موسى الذي علق على الأحداث الدموية التي تمر بها بعض الدول العربية قائلًا: الأمة الإسلامية يختبرها الله عز وجل ما بين الوقت والآخر، وأعظم المصائب التي حرمها الإسلام هي أن يقتل المسلم أخاه المسلم، سواء أكان ذلك لأغراض سياسية أو دنيوية بحتة، كما جاء في سورة الحجرات: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾، وفي مواضع كثيرة يحذر الله تعالى من سفك الدماء، منها: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾، وكذلك يقول رب العزة: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا. يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا. إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ فأين الذين يبيحون دماء المسلمين بغير ذنب.

ويتفق الداعية الإسلامي الأستاذ بجامعة الأزهر د.فؤاد عبدالمنعم مع الآراء الداعية لحقن دماء المسلمين، حيث أكد بأن الدين الإسلامي يشدد على عدم الاقتراب من حرمة الدماء بين المسلمين كما أن سماحة الدين الإسلامي تأمر المسلمين بعدم استباحة أهل الديانات الأخرى، وفي هذا يقول الرسول محمد ﷺ «من آذى ذميًا فقد آذاني» لافتًا إلى أن الإسلام طلب من المسلمين ضرورة التعاون على البر والتقوى، ورفض التعاون على الإثم، موضحًا بأن ما يحل بالأمة الإسلامية من فتن صارخة شجعت أن يقتل المسلم أخاه المسلم بدم بارد بصورة تقشعر لها الأبدان مطالبًا كل الأطراف المتنازعة بالجلوس على طاولة الحوار، لأنه من الممكن معالجة كل هذا بعيدًا عن الدماء، سواء كانت خلافات عائلية بسبب الميراث، أو خلافات سياسية يكون باعثها الصراع على الحكم، داعيًا بضرورة الاقتداء بالصحابة رضوان الله عليهم، حيث إنهم بعد وفاة الرسول محمد ﷺ اختلفوا فيمن يكون خليفة للمسلمين، ولكنهم في الأخير أقروا البيعة للصحابي الجليل أبوبكر الصديق رضي الله عنه.

وكل الصحابة امتثلوا لذلك من أجل الحفاظ على تماسك الدولة الإسلامية، مشددًا على أهمية تعاون كافة المؤسسات التعليمية بزرع قيم التسامح ونبذ العنف من أجل الحفاظ على دم المواطن والجندي ليحل الوئام بين أفراد الشعب، مطالبًا بضرورة الابتعاد عن التشدد في الرأي والمبالغة والتهويل واستخدام الوسائل الإعلامية في بث الفتن، لافتًا إلى أهمية أن يتعلم المسلم احترام الرأي الآخر دون حملات التخوين والتشهير التي تزيد من حالات الاحتقان.

وفي هذا الإطار يحذر الخبير الإعلامي محمد الحملاوي من وسائل الإعلام الموجهة التي تغذي الصراعات والفتن، خاصة وأن هذه الأبواق تكون في أحيان كثيرة وقودًا لنار الحروب، لافتًا إلى أن الإعلام إما أن يكون أداة للتصالح وإشاعة أجواء التسامح، وإما أن يكون شرًا على المجتمعات، وأكد أن الإعلام قد لعب دورًا كبيرًا في تأجيج الفتن بين التيارات السياسية المتناحرة، وبين الشيعة والسنة، وبين المعارضين والمؤيدين للحكم في بعض الدول العربية، وأعرب الحملاوي عن امتعاضه من بث مشاهد الجثث والدماء المتناثرة الناتجة عن هذه الصراعات، ويحلل أستاذ علم النفس د.صلاح عبدالهادي نفسية المسلم الذي يتقبل رؤية دماء أخيه دون أن تتحرك مشاعره، لافتًا إلى أن هذا المسلم يعاني من خلل نفسي ناتج عن حالة ارتباك وغموض بسبب عدم وضوح الرؤية أمامه، خاصة وأن وسائل الإعلام تلعب دورًا كبيرًا في غسل الأدمغة عن طريق شحن العقول بالكذب حتى يصدق المسلم هذا الكذب، وطالما أن الإعلام لديه قدرة على قلب الحقائق فمن الطبيعي أن تجد بعض النفوس لا تتحرك بالحزن على مخالفيهم حتى ولو وجدوهم في بركة من الدماء، بل إن الأمر وصل إلى التشمت في هذه الدماء، لافتًا إلى أن هذه المآسي تكثر في المجتمعات التي تستخدم الحروب الدعائية لتشويه الآخر، وأشار إلى أن خطر الإعلام في بعض الأحيان يكون أقوى من الأسلحة الفتاكة، ويطالب د.عبدالهادي الآباء والأمهات أن يبعدوا أولادهم عن المشاهد التي تبثها وسائل الإعلام التي تظهر القتل وأشلاء الجثث والدماء المتناثرة حتى لا يشب الأبناء على رؤية هذه المشاهد.

العدد (٥٨٠) ذو الحجة ١٤٣٤هـ/ أكتوبر - نوفمبر ٢٠١٣م

صلاح الدين الأيوبي في بيت المقدس

محمد إلهامي
باحث في التاريخ والحضارة الإسلامية

«وأُحذرك من الدماء والدخول فيها والتقلد لها، فإن الدم لا ينام، وأوصيك بحفظ قلوب الرعية والنظر في أحوالهم»

(من وصية صلاح الدين لابنه الأفضل)

ليس من لحظة في تاريخ الإسلام كان يُمكن أن يرتكب فيها المسلمون المذابح الواسعة دون أن يتهمهم أحد بالقسوة مثل هذه اللحظة التاريخية.. لحظة استرداد بيت المقدس من أيدي الصليبيين بعد نحو قرن من الزمان؛ ذلك أن دخول الصليبيين لبيت المقدس شهد واحدة من أكبر المذابح المروعة في التاريخ الإنساني، حتى عدَّ المؤرخون من قُتِل من المسلمين يومئذ بسبعين ألفًا، وروى بعضهم أن الخيول كانت تخوض في الدماء حتى رُكَبِها.

لكن هذه اللحظة صارت أكثر خلودًا وتألقًا ولمعانًا حين سجلت ما فعله صاحبها الخالد.. السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي..

لقد ترفع صلاح الدين عن سفك الدم وعن الانتقام، وأبدى من الفروسية والرحمة والسماحة ما أُخِذ عليه في بعض الأحيان، إذ كان من ضمن الذين عفا عنهم ذوو غدر وخسة أثخنوا في المسلمين بعد ذلك، لكن الخسارة الوقتية في الحرب لا تقارن بالكسب التاريخي في الأخلاق، ولئن قالت ميادين الحروب إن صلاح الدين كان رحيمًا أكثر مما ينبغي لقائد عسكري، فإن ميادين القلوب وقفت منبهرة أمام الفارس الذي تعفف عن سفك دم مقاتليه، وفَضَّل أن يحفظ دماءهم وأرواحهم، رغم كثرة الدواعي الدافعة لإزهاقها.

يمكن للمرء أن يكتب كتابًا كبيرًا عن صلاح الدين دون أن يخط جملة واحدة من عنده، بل يمكنه أن يكتب مجلدًا أو اثنين دون أن يخط جملة واحدة لكاتب عربي أو مسلم، فلقد بلغ انبهار المؤرخين من غير العرب والمسلمين بشخصية صلاح الدين وأخلاقه وفروسيته ورحمته ما جعله واحدًا من أكثر الشخصيات التي كُتِب عنها في التاريخ الإنساني.

وما ذلك إلا لأن الرجل تعفف عن سفك دماء كثيرة كان يملك أن يسفكها! فليتأمل القادة والساسة والعسكريون كيف يكون الخلود!

«لقد أجمعت الآراء على أن صلاح الدين كان أنبل من اشترك في الحروب الصليبية»[١]، إذ «لما غزا الصليبيون الأرض المقدسة سنة (١٠٩٩م)، خلفوا وراءهم في كل مكان الموت والدمار، بيد أنه لما رد صلاح الدين الصليبيين على أعقابهم، لم يلجأ إلى وسائل الانتقام، ولم يخرب المسلمون الأماكن التي فتحوها، كما فعل المقاتلون الدينيون السابقون لهم من الممالك الأخرى»[٢].

«حين تمكن صلاح الدين الأيوبي من استرداد بيت المقدس- التي كان الصليبيون قد انتزعوها من قبل بعد أن سفكوا دماء أهلها في مذبحة لا تدانيها مذبحة وحشية وقسوة- فإنه لم يسفك دم سكانها من النصارى انتقاما لسفك دم المسلمين، بل إنه شملهم بمروءته، وأسبغ عليهم من جوده ورحمته، ضاربًا المثل في التخلق بروح الفروسية العالية، وعلى العكس من المسلمين، لم تعرف الفروسية النصرانية أي التزام خلقي تجاه كلمة الشرف أو الأسرى»[٣].. «لم يشأ السلطان صلاح الدين أن يفعل في الصليبيين مثل ما فعله الصليبيون الأولون من ضروب التوحش، فيبيد النصارى عن بكرة أبيهم، فقد اكتفى بفرض جزية طفيفة عليهم مانعًا سلب شيء منهم»[٤].

«كان صلاح الدين مستمسكًا بدينه إلى أبعد حد، وأجاز لنفسه- في الحرب- أن يقسو أشد القسوة على فرسان المعبد والمستشفى[٥]، ولكنه كان في العادة شفيقًا على الضعفاء، رحيمًا بالمغلوبين، يسمو على أعدائه في وفائه

بوعده سُمُوًّا جعل المؤرخين المسيحيين يعجبون كيف يخلق الدين الإسلامي- الخاطئ في ظنهم- رجلًا يصل في العظمة إلى هذا الحد، وكان يعامل خدمه أرق معاملة، ويستمع بنفسه إلى مطالب الشعب جميعها، وكانت قيمة المال عنده لا تزيد على قيمة التراب، ولم يترك في خزانته الخاصة بعد موته إلا دينارًا واحدًا، وقد ترك لابنه قبل موته بزمن قليل وصية لا تسمو فوقها أية فلسفة مسيحية»[٦].

إن «أخلاق صلاح الدين الأيوبي وحياته التي انطوت على البطولة، قد أحدثت في أذهان المسيحيين في عصره تأثيرًا سحريًّا خاصًّا، حتى إن نفرًا من الفرسان المسيحيين قد بلغ من قوة انجذابهم إليه أن هجروا ديانتهم المسيحية، وهجروا قومهم وانضموا إلى المسلمين»[٧]، وإن «شرف الفروسية الإسلامية سيكون مثار انبهار الأوربيين، بل سيدفعهم نبله هذا إلى العديد من المواقف المحرجة، فما كان منهم إلا التماس أن السبب وراء أخلاقه الرفيعة والكريمة ما هو إلا لأن لديه دماء أوروبية تجري في عروقه... ومثل هارون الرشيد، تجد القصص التي تحيط به لها طابع رومانسي وأسطوري»[٨].

لقد «وصل الأمر إلى حدٍّ أنه ظهرت في القرن الرابع عشر قصيدة طويلة جرى العرف على تسميتها «صلاح الدين»، وأعيدت فيها صياغة حوادث الأساطير القديمة، وذلك لأن فارسًا من هذا الطراز الرفيع يجب بالضرورة أن يصبح منتميًا إلى الأسرة المسيحية، وهكذا قيل إن أمه هي الكونتيسة بونثيو التي تحطمت سفينتها على الساحل المصري، وأنه هو نفسه اعتنق المسيحية وهو على فراش الموت»[٩].

لم يزل صلاح الدين معظمًا عبر العصور، ويوم أن زار وليام الثاني- آخر الأباطرة الألمان- الشرقَ (١٨٩٩م)، وقف أمام قبر صلاح الدين، وخطب عنده خطبة أعلن فيها حبه للعرب وحمايته لهم، ووضع على القبر لوحة من البرونز صنعها له خاصة، فهيَّج ذلك قريض أمير الشعراء أحمد شوقي فأنشأ يقول:

عظيمُ الناس من يبكي العظاما
ويندبهم ولو كانوا عظاما

رعاك الله من ملك همام
تعهَّد في الثرى ملكا هماما
أتدري أيَّ سلطان تحَيي
وأيَّ مُمَلّك تهدي السلاما
دعوت أجلّ أهل الأرض حربا
وأشرفهم إذا سكنوا سلاما

الهوامش

١- ول ديورانت: قصة الحضارة- ١٤١/١٣.
٢- رونالد ف بودلي: الرسول- ص١٤٧.
٣- زيجريد هونكه: الله ليس كذلك- ص٣٤.
٤- جوستاف لوبون: حضارة العرب- ص٣٢٩.
٥- فرسان المعبد وفرسان المستشفى هي كتائب مسيحية تابعة للكنيسة مباشرة، وكانت من أعنف وأشرس الكتائب في حربها على المسلمين.
٦- ول ديورانت: قصة الحضارة- ١٥/ ٤٤، ٤٥.
٧- توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام- ص١١١.
٨- مايكل هـ مورجان: تاريخ ضائع- ص٢٦٨.
٩- مكسيم رودنسون: الصورة الغربية والدراسات الغربية والإسلامية، منشور في «تراث الإسلام» بإشراف شاخت وبوزوروث- ص٤١، ٤٢.

عندما يكون السلوك جميلا

كمال عبدالمنعم خليل
كاتب صحفي

إن الحياة التي نحياها مليئة بالمتناقضات، وبالتالي فهي مليئة بالتصادمات بين بني البشر، بل بين بني الملة الواحدة، والأمة الواحدة، واللسان الواحد، لأن النفوس قد يغلب عليها الطمع والأثرة وحب الدنيا، والرغبة في الانتقام، لذلك ينبغي على المسلم الصادق مع الله أن يراجع سلوكه وتصرفاته من آن لآخر، فهو ليس معصوما من الخطأ، ولكنه يستطيع تهذيب هذه النفس، وترشيد سلوكه نحو الأحسن، ليصل به إلى الأقوم والأهدى والأرشد والأنفع له وللمجتمع بأسره.

والمتدبر للقرآن الكريم يجد أن الله تعالى قرن الجمال بعدة أنواع من السلوك لم يقرن به غيرها، فقد قرن الجمال بالصبر بل وأمر به الأمة في شخص النبي ﷺ، فقال تعالى:﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ (المعارج: ٥)، وقال الله تعالى على لسان يعقوب عليه السلام حينما فقد ابنه يوسف ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾(يوسف: ١٨)، وقال حينما فقد ابنه الثاني بنيامين ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾(يوسف:٨٣)، وقرن الجمال بالهجر، فقال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾(المزمل: ١٠)، وقرنه بالصفح فقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾(الحجر: ٨٥)، وقرنه بسراح الزوجة، فقال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ (الأحزاب: ٢٨).

وإذا غاب الجمال عن سلوك الإنسان فإن النتيجة ما نراه من كثرة الظلم، وازدياد الجرائم، والرغبة في الانتقام، وغياب الآداب والأخلاق التي هي شعار ديننا الحنيف، فإن الهدف الأسمى من بعث الرسل والأنبياء، هو إرساء دعائم الأخلاق، وإتمام مكارمها، روى البخاري في الأدب المفرد، وأحمد في المسند، والحاكم، وغيرهم، وصححه الألباني من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»، وفي رواية «إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق».

ونعود إلى جمال السلوك فنقول: إن الله تعالى أمر بالصبر الجميل، وهو الصبر الذي لا شكوى فيه كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-، وهذه الدنيا دار ابتلاء، لا تستقيم على حال، فالإنسان فيها بين الصحة والمرض، والسعادة والشقاء، والفرح والحزن، والغنى والفقر، والرضا والغضب، فينبغي عليه أن يكون وسطا في كل أحواله، لا إفراط ولا تفريط، فقد كان رسول الله ﷺ يمزح ولا يقول إلا حقا، وكان يحزن ولا يقول إلا ما يرضي ربنا، وكان يغضب ولا يغضب لنفسه، بل كان يغضب إذا انتهكت حرمات الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ. الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾(البقرة: ١٥٥ - ١٥٦)، وليس الصبر الجميل في البلاء فحسب، إنما يكون في كل تعاملات الإنسان مع الغير، ونلاحظ في وقتنا هذا نفاد الصبر من عند كثير من الناس، فلا يطيق ذبابة أن تقف على وجهه، ولا يقبل أن يتناقش معه أحد في أمر من الأمور، بل يثور ويمور، يصرخ ويهذي، يكسر ويدمر ما يجده أمامه، وما هذا بسلوك أبدا، فقد غاب الجمال عن صبرنا لو صبرنا، وأصبح السلوك المعتاد الجزع من أي شيء، وإظهار التبرم والشكوى في صور لا تليق بمسلم أبدا.

إن الرسول ﷺ ضرب أروع المثل في الصبر الجميل حينما تعرض لأشد ما يتعرض له البشر، فقد ولد يتيم الأب، وفقد الأم وهو في سادس عمره، وفقد جده وهو في الثامنة، وعمل برعي الغنم، وهي من أشق المهن وأصعبها، وحينما أوحى الله تعالى إليه، وبدأ إبلاغ قومه لاقى ما لاقى من الأذى بكل صنوفه وأشكاله، وحوصر هو والمؤمنون في الشِّعب حتى أكلوا أوراق الشجر، وتشققت أشداقهم، وصبر على فراق زوجه خديجة وعمه أبي طالب، كما صبر على موت أبنائه في حياته إلا فاطمة رضي الله عنها، وصبر على فراق الوطن الذي نشأ فيه، ونزلت بأرضه أول آيات القرآن الكريم، كما صبر النبي ﷺ على جفاء بعض الناس، الذي وصل إلى حد التطاول على شخصه، واتهامه في وحيه، والتشكيك في القرآن المنزل من ربه، واتهام زوجه في حادث الإفك، كما صبر في ميادين القتال حتى أصيب في رأسه، وكسرت رباعيته، وأشيع مقتله، كل ذلك وهو صابر الصبر الجميل، فأين نحن من هذا الخلق؟ وأين نحن من الاقتداء بمن جعله الله تعالى لنا أسوة، وللعالمين رحمة؟.

كذلك الهجر من السلوك الذي قرنه الله تعالى بالجمال في القرآن الكريم، قال الله تعالى ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾(المزمل: ١٠)، والإنسان معرض في تعاملاته مع الناس للرضا والغضب، فإذا ما اقتضى الأمر الفراق بين اثنين، فلا بد أن يكون في صورة تليق بأخلاق الإسلام، فلا فجور ولا إهانة، لأن هذه من صفات المنافق إذا خاصم، روى البخاري ومسلم في صحيحيهما

من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال: «أربع من كن فيه كان منافقا خالصا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها، إذا اؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»، والهجر المشروع بين الخلان لا ينبغي أن يزيد على ثلاثة أيام، روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال، يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا وخيرهما الذي يبدأ بالسلام».

ويدخل في الهجر الجميل هجر الزوجة في المضجع، وهو وسيلة من وسائل التأديب للزوجة عند نشوزها، قال الله تعالى: ﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾(النساء: ٣٤)، ولا يصح أن يقترن الهجر بالضرب المبرح أو الإساءة باللفظ القبيح أو لطم الوجه، أو الامتناع عن مجالسة الزوجة في الطعام والشراب -كما يفعل البعض-، كذلك فإن القرآن الكريم حدد الفترة الزمنية التي لا يجوز للزوج أن يتجاوزها عند هجر زوجته، قال الله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ. وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٢٦ـ ٢٢٧)، أما الهجر الذي لا جمال فيه أبدا، فهو هجر كتاب الله تعالى، سواء كان هجر تلاوة، أو هجر تدبر، أو هجر عمل به، أو هجر تحاكم إليه، فهذا ما يحزن الرسول ﷺ يوم القيامة، قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ (الفرقان: ٣٠).

الصفح الجميل

أما الصفح الجميل فقد بينه الله تعالى وأمر به فقال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾(الحجر: ٨٥)، وكثير من الآيات جاء فيها الأمر بالصفح والعفو، بل إن الله تعالى جعل الصبر مع العفو من عزم الأمور، قال الله تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾(الشورى: ٤٣)، والصفح الجميل معناه، الإعراض عن ذنب الغير، والعفو بلا عتاب أو تأنيب، في الوقت الذي يستطيع صاحب الحق أن ينتصر لنفسه أو ينتقم، والصفح نوع من اليسر في معاملة الناس، روى البخاري في صحيحه من حديث عروة بن الزبير عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنهم أجمعين قالت: «ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما، فإن كان إثما كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله، فينتقم لله بها»، والذي يتدبر السيرة المطهرة يجد أنها مليئة بمواقف الصفح الجميل الذي أمر الله تعالى به رسوله ﷺ، فهذا ملك الجبال يستأذنه في أن يطبق الأخشبين على أهل الطائف فيأبى، ويدعو الله تعالى لهم بالهداية، وهاهي قريش يوم الفتح، يتذكر أهلها ما حدث منهم طوال أكثر من عشرين عاما تجاه النبي ﷺ وصحبه رضي الله عنهم من أذى واضطهاد وتهجير وقتال وتحزب، حينما قال لهم النبي ﷺ: «ما تظنون أني فاعل بكم؟» إلا أن النبي ﷺ تعامل معهم بألين ما يكون التعامل قائلا: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»، مثله كمثل يعقوب عليه السلام حين قال لأبنائه: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾(يوسف: ٩٢).

الانتقام

كذلك لم يعاقب النبي ﷺ المرأة اليهودية التي دست السم له في الطعام لتقتله، ولم يعاقب الرجل الذي سحره، ولم يعاقب المنافقين حين تكلموا عنه وعن أصحابه قائلين: ﴿لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾(المنافقون: ٨)، ولم يعاقب من جذبه من ردائه وأغلظ له القول، إذ كيف ينتقم ويقتص وقد قال الله تعالى له: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (الأعراف: ١٩٩)؟، جاء في تفسير ابن كثير -رحمه الله- لهذه الآية ما رواه ابن أبي حاتم عن جابر بن عبدالله -رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ لما نزلت «خذ العفو..... الآية» قال ما هذا يا جبريل؟ قال: «أن تعفو عمن ظلمك، وتعطي من حرمك، وتصل من قطعك»، ولقد دل النبي ﷺ على العفو كأفضل ما يطلبه العبد من ربه في أفضل ليلة، فقد روى الترمذي في سننه -وقال: حسن صحيح- عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها

قالت: يا رسول الله، أرأيت إن وافقت ليلة القدر ماذا أقول؟، فقال: قولي: «اللهم إنك عفو كريم تحب العفو فاعف عني».

وعلى هذا النهج سار الخلفاء الراشدون والسلف الصالح وكل من أراد أن يسلك السلوك الجميل في تعاملاته مع الناس جميعا، فهذا أبوبكر الصديق رضي الله عنه يقسم بالله على ألا يتصدق على مسطح بن أثاثة حينما خاض مع الخائضين في حادثة الإفك، إلا أن الله تعالى أنزل في حقه قرآنا يتلى بعد أن أظهر براءة عائشة -رضي الله عنها-، فقال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(النور:٢٢)، فقال أبوبكر الصديق رضي الله عنه: أحب أن يغفر الله لي، وكفر عن يمينه ووصل مسطح بن أثاثة رضي الله عنه.

كذلك فإن عمر بن الخطاب تعامل بالصفح مع الناس في مواقف شتى، فقد اتهمه عيينة بن حصن الفزاري بقوله: إنك يا أمير المؤمنين لا تحكم بالعدل، ولا تعطي الجزل (أي: الشيء المغني من الحاجة)، فغضب عمر رضي الله تعالى عنه إلا أن الجد بن قيس كان بجواره فقال له يا أمير المؤمنين، إن الله تعالى يقول: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾(الأعراف: ١٩٩)، وهذا من الجاهلين، فعفى عنه الفاروق.

كذلك عفا بلال بن رباح رضي الله عنه عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه حين طلب منه العفو بعد أن أخطأ في حقه ببعض الكلمات، وألصق خده بالأرض ليطأه بلال بقدمه، لكن بلالا قال له: قم يا أخي فقد عفوت عنك.

أهل الفضل

والصفح الجميل يتميز صاحبه به يوم القيامة حيث يعد من أهل الفضل الذين يعظم جزاؤهم، بدخول الجنة بغير حساب، فقد ذكر القرطبي في كتابه «التذكرة» ما رواه أبونعيم في الحلية والبيهقي في شعب الإيمان عن عبدالله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال: «ينادى يوم القيامة، أين أهل الفضل؟ فيقوم أناس، فيقال لهم: ادخلوا الجنة، فينطلقون إلى الجنة، فتستوقفهم الملائكة وتقول لهم: إلى أين؟ فيقولون إلى الجنة، فتقول الملائكة: قبل الحساب؟ فيقولون: نعم، فتقول الملائكة: من أنتم؟ فيقولون: نحن أهل الفضل، فتقول الملائكة: وما فضلكم؟ فيقولون: كنا إذا ظُلمنا صبرنا، وإذا جهل علينا حلمنا، وإذا سيء إلينا عفونا، فتقول الملائكة لهم: ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين»، وجاء هذا الخبر عن طريق علي بن الحسين -رضي الله عنهما- (قال علماء الحديث: مرسل).

وروى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا». وقال الشاعر:

على ماذا التناحر والضغينة؟
وفيم الحقد أفقدنا السكينة؟
علام نسد أبواب التآخي؟
ونسكن قاع أحقاد دفينة؟
أيهجر مسلم فينا أخاه
سنينا لا يمد له يمينه؟
أيهجره لأجل حطام دنيا
أيهجره على نتف لعينة؟
ألا أين التسامح والتصافي؟
وأين عرى أخوتنا المتينة؟!

فليكن الصفح الجميل والعفو شعارنا فهو من السلوك الذي أمرنا الله ورسوله به.

السراح الجميل

أما السراح الجميل، فهو من السلوك الذي ينبغي أن يكون بين الزوجين حينما تنسد كل أبواب الإصلاح، وتفشل كل محاولات رأب الصدع للعلاقات، ويكون الطلاق أبغض الحلال يومها، ولك أن تعلم أن نسب التطليق عن طريق القاضي في المحكمة أعلى بكثير مما يحدث عن طريق الجلسات الودية والحوار الهادئ، فأين نحن من قول الله تعالى: ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾(الأحزاب: ٤٩)؟.

إن العلاقات بين الزوجين لابد أن يعلوها الود والسكينة والرحمة، فهذه أسس الحياة الزوجية، وإذا استحالت العشرة لسبب ما فإن السراح الجميل هو الحل الأمثل والأقوم، بعيدا عن الظلم والإساءة وهضم الحقوق، والضحية في كل الأحوال هم الأبناء.

إننا نريد العودة إلى كل جميل من السلوك حتى في حال الهجر، أو الطلاق، فإذا ما اتصفنا بذاك الجمال فإننا نكون أهلا لنيل رضا الله تعالى وعفوه، ويوم القيامة يكون الجزاء الأوفى منه سبحانه وتعالى، أسأل الله تعالى أن يحسن أخلاقنا، ويجعلنا من الكاظمين الغيظ والعافين عن الناس، ومن المحسنين.

نور من كل جانب

محمد رشيد العويد
مدير تحرير مجلة النور الكويتية

ما إن أنهى الشيخ درسه الذي ألقاه في المسجد حتى رفع أحد المصلين يده وقال: ممكن سؤال؟

رد عليه الشيخ: تفضل.

قال الرجل: أنا طبيب، ورغم علمي وخبرتي فإني أحيانا لا أوفق في تشخيص مرض المريض، فأصف له دواء لا يفيده، بل لعله يضره ويؤذيه، فهل هناك دعاء أدعو به حتى أتجنب هذا الخطأ؟

همَّ الشيخ بإجابة الطبيب عن سؤاله لكنَّ رجلا آخر قال: أنا أيضا أعاني هذا في عملي.

سأله الشيخ: أنت أيضا طبيب؟

قال: بل أنا مهندس، وأحيانا أرتكب بعض الأخطاء في رسم المخططات أو في تنفيذها، رغم خبرتي الطويلة التي امتدت أكثر من عشرين سنة.

بادر رجل ثالث بالسؤال قائلا: شيخي أنا مدرس رياضيات ورغم تحضيري للدروس جيدا فإنني أحرج أمام الطلبة حين يُغلق علي فلا أنجح في حل بعض المسائل.

التفت الشيخ إلى من حوله من الحاضرين وقال: هل لدى أحدكم أي سؤال قبل أن أبدأ بالإجابة؟

رفع أحد الحاضرين يده فقال له الشيخ: تفضل، ما سؤالك؟

قال الرجل: أنا أعاني من عدم إمساكي أعصابي حينما تجادلني زوجتي فأغضب وأصرخ فيها وأضربها أحيانا.. ثم أندم بعد ذلك.

قال الشيخ: أنتم جميعا تعانون مشكلة واحدة، وهي فقدانكم للرؤية المبصرة، فتقعون فيما تقعون فيه من أخطاء.

سأله أحدهم: الرؤية المبصرة؟ وكيف نحصل على هذه الرؤية المبصرة؟

أجاب الشيخ: حتى تحصلوا عليها لابد لكم من نور، نور يضيء لكم ما أمامكم وما خلفكم وما حولكم، نور يضيء لكم عقولكم وقلوبكم ونفوسكم، نور يمتد مئات الكيلومترات، ويستمر طوال الأيام والشهور والسنوات.

سأله الرجل نفسه: وأين نجد هذا النور؟

قال الشيخ: لست أنا من يدلكم عليه؟

سأل الرجل ثانية: من يدلنا عليه إذن؟

أجاب الشيخ: لقد دلكم عليه نبيكم ﷺ في هذين الحديثين الشريفين:

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال «من قرأ سورة ﴿الكهف﴾ في يوم الجمعة، أضاء له من النور ما بين الجمعتين» (حديث صحيح أخرجه الحاكم والبيهقي).

وفي رواية أخرى عنه رضي الله عنه قال النبي ﷺ «من قرأ سورة ﴿الكهف﴾ يوم الجمعة أضاء له النور ما بينه وبين البيت العتيق» (حديث صحيح أخرجه البيهقي).

فالحديث في الرواية الأولى يُبشر قارئ سورة ﴿الكهف﴾ في يوم الجمعة بأن يضيء له من النور ما يمتد زمانا ليشمل المدة الواقعة بين الجمعة التي قرأ فيها السورة إلى الجمعة التالية لها، فإذا قرأ ﴿الكهف﴾ فيها أيضا وحافظ على قراءتها في كل جمعة فهذا يعني أنه سيضيء له نور طوال حياته.

والحديث في الرواية الثانية يبشر قارئ ﴿الكهف﴾ يوم الجمعة بأن يضيء له نور يمتد مكانا إلى البيت العتيق، بيت الله الحرام، مهما كان بعيدا عنه، وهذا يشير إلى نور

يضيء طريقه أمامه حيثما اتجه وأينما ذهب.

وهكذا فإن الحديث بروايتيه يبشر قارئ ﴿الكهف﴾ بنور يمتد زمانا ومكانا، فالزمان يشمل حياته كلها إذا حافظ على قراءتها كل يوم جمعة، ومكانا يشمل ما حوله ويتصل بنور بيت الله الحرام في مكة المكرمة.

وما أحسب مسلما يستغني عن هذا النور ببعديه الزماني والمكاني، هذا النور الذي يحتاجه كل إنسان في عمله وأسرته بل في حياته كلها.

الطبيب يحتاجه في تشخيصه داء مريضه، فعلمه وحده لا يكفيه، إنه يحتاج إلى نور يضيء له عقله وقلبه، ويحتاجه في العمليات الجراحية التي يجريها[1].

والمهندس يحتاجه في رسم المخططات، وبناء العمارات، وتقدير الكميات، ولا تكفيه خبرته وعمله وحدهما ما لم يوفقه الله ويُنِرّ له عقله وطريقه.

والمعلم يحتاجه في تعليم طلبته، وإرشادهم وتوجيههم، وهو أحوج إلى هذا النور ليفتح الله عليه، ويفتح له عقول طلبته وقلوبهم، ومن دون هذا النور لن يحقق ما يريد على الوجه المرجو والمأمول.

وهكذا كل إنسان في هذه الحياة الدنيا لا يستغني عن هذا النور الذي يضيء له ما أمامه من زمان ومكان، فيحفظه الله تعالى من أخطاء وسقطات وعثرات: ما كان ليراها لولا هذا النور الذي أضاءه الله له بفضل قراءته سورةَ الكهف يوم الجمعة.

وكاتب هذه السطور لا يُخفي عنكم أنه يجد لقراءته سورة الكهف كل يوم جمعة نورا يضيء له طريق الكتابة أمامه، فيطوِّع الله له كلماتها، ويُسهِّل عليه أمرها، ويبارك له في أوقاتها.

والنبي ﷺ يرشدنا إلى ما يزيد هذا النور حولنا بالدعاء الذي علمنا إياه «اللهم اجعل في قلبي نورا، وفي لساني نورا، وفي بصري نورا، وفي سمعي نورا، وعن يميني نورا، وعن يساري نورا، ومن فوقي نورا، ومن تحتي نورا، ومن أمامي نورا، ومن خلفي نورا، واجعل لي في نفسي نورا، وأعظم لي نورا» (متفق عليه).

الهوامش

(١) جاء في بحث أميركي أن واحدا من بين كل ثلاثة أشخاص في الولايات المتحدة سيواجه نوعا من الخطأ أثناء إقامته في مستشفى، وهذا يؤكد أن العلم والخبرة لا يكفيان وحدهما.

مظاهر تكريم الإنسان في الآيات البينات

الدكتور محمد بن محمد الحجوي
أستاذ التعليم العالي - سلا - المغرب

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾(سورة الإسراء: ٧٠).

تكريم الإنسان وإعطاؤه المكانة التي تليق به وتفضيله على كثير من المخلوقات ظاهرة متميّزة في الآيات البينات، وقد اكتسب الإنسان هذه المكانة لكونه تحمّل المسؤولية، وخصه الله بصورة مميّزة في خلقته، وفي قدراته العقلية والنفسية، التي مكنته من استيعاب حقيقة الرسالات السماوية، ومن أداء واجبه الديني والعملي والإصلاحي بوعي تامّ.

وكان الخطاب في الآيات البينات للناس جميعا بدون تمييز بين جنسهم ولونهم ولغتهم ووضعهم الاجتماعي، فكلهم مطالبون بالالتزام بما جاء فيها، يعبدون الله وحده ويقرّون بما أنعم عليهم من نعم ظاهرة وخفية، وبما رزقهم من الطيبات، ولا يعيثون في الأرض فسادًا، ولا يحرّمون ما أحلّ الله ولا يحلّون ما حرّم، ولا يرتكبون الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا يقتلون النفس التي حرّم الله إلا بالحق.

وهذه الإشارات لها دلالة قوية في كون الإنسان مخلوق مكرّم ومفضّل، فقد صوّره الله في أحسن صورة وأمر الملائكة بالسجود له، وأسكنه فسيح جنّاته قبل أن ينزل إلى هذه الأرض، وجعل له عقلا، وسخّر له كل ما في الأرض من طيبات وأرسل له الرسل، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾(سورة الأعراف: ١٠).

والسجود لآدم هنا ليس عبادة له، وإنما هو تكريم وتبجيل لمخلوق له خصائص فكرية وبيولوجية ونفسية لا توجد في مخلوقات أخرى، وحينما امتنع إبليس عن السجود فلأنه لم يدرك الخصائص التي ركّبها الله في الإنسان معتبرا نفسه أفضل ممن خلق من طين.

ويظهر تكريم الإنسان في أسمى تجلياته وكماله في أن الله جلّ جلاله جعل المخلوقات مسخّرة لخدمته ولتوفير حاجياته وتخفيف المشاق عنه، فالنجوم والأقمار والشمس والسحب والأرض والجبال والبحار والأنهار والنباتات والحيوانات الأليفة وغير الأليفة وجدت لتوفر للإنسان التوازن المطلوب لاستمرار حياته على هذه الأرض بشكل طبيعي، قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤)﴾(سورة إبراهيم:٣٤-٣٤) وهذه بعض مظاهر تكريم الإنسان كما أوضحتها الآيات البينات.

أولا: في الهيئة التي خلق الله عليها الإنسان إن أفضال الله ونعمه التي لا تعد ولا تحصى على الإنسان تبدأ من تسويته وخلقته على الصورة التي هو عليها في أتم كمالها وبهائها، إنها صورة تليق بآدميته وبالتكريم الذي حظي به من خالقه، صورة في أبهى وأجمل هيئة وأحسن خلق، لقد خلقه الله من طين وتدرج في التكوين من نطفة فعلقة ثم مضغة، لتتحول المضغة إلى عظام ثم تكسى لحما، هكذا تستوي صورة الإنسان في أتم خلق بجميع أعضائه وحواسه وعقله، وبهذا الاكتمال يكون قادرا على أداء ما يطلب من عبادات وأعمال صالحة، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (سورة المؤمنون: ١٢-١٤).

إنها القدرة الإلهية التي لا يعجزها شيء في الأرض ولا في السماء، إذا أراد الله شيئا فإنما يقول له كن فيكون، وكل ما في هذا الوجود أحسن خلقه وأبدعه بالصورة التي أرادها لمخلوقاته

﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾(سورة السجدة: ٦).

إن الإنسان حينما ينظر في تركيب أعضائه الظاهرة والباطنة يشعر بهذه النعمة العظيمة والتكريم الذي خصه به خالقه، فلولا تلك النعمة لما استطاع القيام بالأعمال التي يمارسها بسهولة في حياته، فهو يسخّر الأشياء الكبيرة والصغيرة لخدمته ويتفنن في تطويرالصناعة والزراعة وشق الطرق، وتخطيط المدن وجلب كل ما يحتاجه، ألا يشعر هذا المخلوق بأن هذا تكريم من خالقه وتفضيل له على مخلوقات كثيرة لا تستطيع فعل ذلك، إن ما وهبه الله من تناسب تام في الأعضاء والحواس وفي القدرات العقلية والنفسية هو الذي مكّنه من فعل كل ذلك بسهولة ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾(سورة المؤمنين: ٧٩).

إن الإنسان مأمور بالعبادة مثل سائر المخلوقات، لكنه يمتاز عليها بتحمّل مسؤولية كبيرة هي إصلاح الأرض وإعمارها والحفاظ على البيئة بكل ما فيها من مخلوقات ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾(سورة المائدة: ٣٤).

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي دعيت إليه أمّة الإسلام في قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(سورة آل عمران: ١٠٤)، هو دعوة إلى الإصلاح الشامل والحفاظ على البيئة في جميع مظاهرها، ونشر العدل والأمن والسلام، واجتناب الفساد بجميع أشكاله وأنواعه ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾(سورة المائدة: ٦٤)، ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾(سورة الأعراف: ٨٤).

إن الإنسان موجود في هذه الحياة الدنيا لعبادة الله وللعمل في كل المجالات التي تسعده وتسعد مجتمعه، أعمال يرضى عنها الله ورسوله، فهو مخلوق ذو طموح يسعى دوما لبلوغ أعلى المراتب اجتماعيا وفكريا، وأسمى الفضائل ومكارم الأخلاق التي تحقق الاستقرار لمجتمعه، وهذه الطموحات لا تسعى إليها مخلوقات أخرى، وفي هذا يكمن سر تكريمه وتفضيله.

لقد وهبه الله عقلا يفكر به، ونطقا يتواصل به، وأعضاء يبني بها ويشيد، فتمكن من صنع حضارة تميزت بالابتكار والتجديد والبناء والإعمار، ولم يصل إلى كل هذا إلا بفضل ما وهبه الله من قدرات وطاقات وما سخّر له في هذه الحياة الدنيا ﴿إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ (٣) وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤) وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(سورة الجاثية: ٢-٤)، ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾(سورة لقمان: ١٩)، ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾(سورة الأنعام: ٩٨).

إن الله العليم بخلقه الحكيم في تدبير الأمور لم يخلق الكائنات الحية في البر والبحر والسماء عبثا، وإنما لغايات نبيلة كلها خير وفضائل، ولعلّ من هذه الغايات إسعاد الإنسان وتوفير حاجياته وإحداث توازن وجمال في الكون ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (سورة البقرة: ١١٦)، لقد أراد الله لهذا الكون أن يكون بديعا ومتناسقا ومحكما للدلالة على إحكام صنعه وبديع خلقه وقدرته المطلقة، وليتدبر الإنسان هذا الصنع العجيب الذي لا يقدر على إيجاده مخلوق مهما أوتي من قوة: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾(سورة الفرقان: ٦١).

إن الله وهب للإنسان العقل والإحساس والشعور ليدرك الغاية من وجوده، وليتأمل ما في هذا الكون من أسرار وبدائع هي آية في الجمال والاكتمال، فلا ينبغي أن يعطل فكره ووجدانه وشعوره وحواسه فيتساوى مع مخلوقات أدنى منه: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾(سورة الأعراف: ١٧٩)، إن كل ما في هذا الكون يهدي إلى

الإيمان بالله القوي القادر، والإيمان يهدي إلى الحق واليقين والرضا الذي يجعل الإنسان يسير في طريق آمن من الزلل والعثرات وبذلك يستحق التكريم والتفضيل.

ثانيا: نعمة العقل

وهذه نعمة جليلة من الله عزّ وجلّ على الإنسان، فبالعقل والإحساس الواعي، والشعوراليقظ تطورت المجتمعات البشرية عن باقي الكائنات الحية في المعاملات والسلوك، وأسلوب الحياة ونمط التفكير، وما نرى من تطور هائل في العلوم والصناعات والمواصلات والتقنيات الحديثة هو نتيجة من نتائج التفكير العقلي، والعمل الجادّ الذي بذله الإنسان منذ أن أوجده الله في هذه الأرض، فلم يترك شيئا في السماء ولا في الأرض ولا في البحار إلا واستغله استغلالا عقليا من أجل رفاهيته، وسلامته وتحسين عيشه، كما أن الإنسان بفضل هذه النعمة الإلهية تحمّل المسؤولية في كل ما يصدر منه من أعمال وأقوال وسلوك، لأن له القدرة على التمييز بين الخير والشر، والنافع والضار، فاختياره يكون عن وعي وإدراك لما يقدم عليه، ومن هنا جاءت مسؤوليته عن إعمار الأرض والحفاظ على البيئة والكائنات الحية، وهذا التكليف هو تشريف وتكريم للإنسان، ولذلك خاطبته الرسالات السماوية وأمرته بعبادة الله وحده، ونهج السبيل الذي يقرّبه من طاعة الله في كل ما يصدر منه من أعمال وأقوال وسلوك، فكيف أبرزت الآيات البينات أثر نعمة العقل على حياة الإنسان؟

إن الآيات البينات أوضحت بشكل جلي نعمة العقل في مواضع لا يمكن عدها أو حصرها في كتاب الله، سواء باللّفظ الصريح أو بالعبارات الدالّة على ذلك، وهذه الكثرة لها دلالة قوية في كون هذه النعمة من أجلّ النعم التي توجب الشكر: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾، وتاريخ الإنسان على هذه الأرض شاهد على ما حقق من منجزات بفضل العقل، فمنذ أن خلقه الله لم يقف لحظة عن تطوير حياته نحو الأفضل في عيشه وفي علاقاته الاجتماعية، وظروفه الاقتصادية، ومنجزاته العلمية، فقد عمّر الأرض وأصلحها، وبنى وشيّد وطوّر الصناعة والفلاحة وتربية المواشي، وقرّب المسافات بينه وبين الآخرين مهما بعدت الشقّة بتطوير المواصلات بمختلف أنواعها، وما اخترع من تقنيات حديثة لم تبق معها حدود وفواصل؛ كل هذا كان يقوم به وهو يفكّر في كل ما يسهل له معيشته ويجنبه الأوبئة والأمراض والكوارث الطبيعية، وما كان للإنسان أن يحقق كل هذه الإنجازات الهائلة لولا عقله الذي أنار له السبيل ومكّنه من حفظ حضارته وإرثه الثقافي والفكري، ولذلك فإن كتاب الله يجعل العقل والحكمة من أجلّ وأفضل النعم على الإنسان، قال الله تعالى:﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (سورة البقرة: ٢٦٨)، وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ (سورة ص:٢٠)، فبالحكمة يعلو شأن الإنسان وتصبح له القدرة على الاختيار السليم، والتنظيم المحكم والعيش في ظروف تسعده وتسعد الآخرين.

والآيات البينات التي أشارت إلى نعمة العقل ذكّرت الإنسان بأهمية هذه الهبة الربّانية، وطلبت منه أن يحافظ على عقله ويستخدمه في كل ما هو بين يديه وما يشاهده بعبارات تدل على أن أصحاب العقول ملزمون بالتفكير المتأني الذي يقود إلى النتيجة السليمة، ولذلك فإن أفضل الطرق للدعوة إلى الله ينبغي أن تكون بالعقل والحكمة والموعظة الحسنة، وفصل الخطاب الذي يجعل ذوي الألباب يتفكرون بحكمة فيما يشاهدونه: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (سورة النحل: ١٢٤)، بل إن الله تعالى جعل من يعطّل عقله بإرادته أو باستعمال ما يفسده من مسكرات ومخدرات في مرتبة الدوابّ الصمّاء البكماء الذين هم شر الدوابّ عند الله: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (سورة الأنفال: ٢)، ولا يوجد سبب يجعل الإنسان يعطّل عقله، فقد أعطاه الله كل ما يعينه على استخدامه وبخاصة الحواس التي تعينه على تبليغ المعلومات للعقل بالمشاهدة واللّمس والشمّ والإحساس: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ (سورة الأعراف: ١٧٩)، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (٩) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ (سورة البلد: ٨-١٠)، كل هذا تذكير للإنسان بوجوب استعمال كل ما وهبه الله من أعضاء وحواس من أجل إسعاد نفسه في الحياة الدنيا ونجاته من عذاب الله يوم لقائه.

وكتاب الله فصلت آياته البينات

للعقلاء والعلماء وأصحاب الألباب، الذين يتدبّرون الأمور بحكمة ولا يصدرون حكما على شيء مَا إلا بعد العلم والتفقه فيه، فلذلك جاء بلسان القوم المخاطبين حتى لا يتعلّلوا بعدم فهمه: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (سورة فصلت:٢)، إنهم كانوا يعلمون ما في هذه الآيات من معان ودلالات، وقد جاءتهم مفصّلة ومبيّنة لأحكام الدين ولما ينبغي أن يتّبعوه في علاقاتهم الاجتماعية، فتدبّرها بحكمة وروية واجب لمعرفة عظمة الخالق والغاية من خلق هذا الكون المتناسق في كل مظاهره، وما يجب فعله في العلاقات الاجتماعية، وليتأمل كل إنسان قوله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١) وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ (سورة الذاريات: ٢١)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ (سورة الحجر: ٧٥)، وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (سورة يونس: ٥)، وقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ (سورة يس: ٣٥)، وقوله تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (٣٤) لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ (سورة يس: ٣٢-٣٤)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ (٣) وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤) وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (سورة الجاثية: ٢-٤).

هذه الآيات البينات تذكير للإنسان بأن أفضل ما يسعى إليه في هذه الحياة الدنيا هو طلب العلم الذي يقرّبه من خالقه وينير عقله، فيسلك المسالك التي تسعده في الدارين، قال الله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (سورة طه: ١١١). لأن العلم الذي يدرك به المخلوق عظمة خالقه يجعله أكثر تقربًا لله وأشد خشية منه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ (سورة فاطر: ٢٨)، والعلماء هم الذين أوتوا الحكمة التي تقودهم إلى طاعة الله ورسوله: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (سورة البقرة: ٢٦٨)، وهم الذين يبيّنون أحكام الشريعة للناس لأنهم الأقدر على فهمها واستنباط الأحكام منها: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ (سورة سبأ: ٦).

إن دلالات هذه الآيات البينات تبيّن أن الله وهب الإنسان العقل وجعله مصدر المعرفة، وكان مجيء الرسالات السماوية من أجل الزيادة في تنوير العقول، ومعرفة الأمور الغيبية على حقيقتها دون تخبّط أو تأويل غير سليم، ولذلك كان الخطاب في كل الرسالات السماوية لأصحاب العقول وذوي الألباب، فهم الذين يدركون عظمة الله وقدرته وسر خلق هذا الكون.

وإذا كان الله قد زوّد الإنسان بالعقل والحواس، وأرسل له الرسل مبشرين ومنذرين فلكي تقوم الحجّة عليه ولا يجد سببا يجعله يتهرّب من المسؤولية فيدعي أنه لم يكن على علم بخالقه ولم يرسل إليه الرسل ليبيّنوا له الحقائق، ولم يعنه بالآلة التي تسهّل عليه فهم أحكام الشريعة: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ (سورة الزمر: ٣٨)، وقوله عزّ وجلّ: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (سورة غافر: ١٦)، والعلماء مطالبون بتوضيح الحقائق وعدم كتمانها وعقابهم يكون أشدّ وأفظع إذا لم يبلّغوا الحقائق كما بيّنها الله في كتابه وبلّغها رسوله الأمين، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (سورة آل عمران: ٧٦).

هذه هي مكانة العقل في الإسلام، فالعقلاء هم الذين يستوعبون حقيقة الرسالات السماوية ويقدّرون عظمة الخالق، ويدركون الغاية من إيجاد

المخلوقات، ويسيرون في الطريق الذي ينجيهم من غضب الله.

وبهذه الآيات البينات نرد على كل من يدّعي أن الإسلام دين لا يخاطب العقل وهذا ما جعل المسلمين يتأخرون ويتقدم غيرهم، فلذلك نادوا بفصل الدين عن كل مرافق الحياة كما فعل الغرب الذي حقق نهضته العلمية والفكرية التي نشهدها الآن بهذا النهج. إن هذا الكلام مجرد هراء وتغطية على الحقائق، ودعوى لا أساس لها من حقيقة هذا الدين، إن لإسلام لم يغلق الباب أمام الناس لاستعمال عقلهم في كل شيء يطور حياتهم نحو الأفضل شريطة الالتزام بشرع الله، وبالعدالة والمساواة بين جميع الناس، وهذه مبادئ وفضائل إنسانية لا ينكرها عاقل، فشرع الله جاء لتنظيم حياة الناس ودعوتهم للعمل وإصلاح دينهم ودنياهم بطرق لا ظلم فيها للمستضعفين، وإذا كان الغرب قد ثار على الدين فلأن لهم الأسباب الموضوعية التي دعتهم إلى ذلك، فالكل يعلم تسلّط رهبان الكنيسة في العصور الوسطى على عقول الناس ونهب أموالهم، وسوقهم كما تساق البهائم والأنعام للحروب من أجل تحقيق أطماع الكنيسة، فإذا انتفضوا على دينهم وعلى رهبانهم فلأن لهم ما يبرّر ذلك، أما الإسلام فلا توجد فيه وصاية أحد على آخر، فالمسلم مطالب باتباع ما جاء في الكتاب والسنة وفي أثر السلف الصالح الذين التزموا بشرع الله وبما دعاهم إليه عقلهم النير الذي هداهم لإصلاح البلاد والعباد، فنالوا رضا الله ورضا الناس وأصبحت سيرتهم نهجا يتّبع لكل من أراد أن يسلك مسالك الخير، وبهذا لا يستطيع جاحد أن ينكر دور العقل في الإسلام على مستوى العبادة والعمل والتفكيروأسلوب الحياة، إن هذه الرسالة التي ختم الله بها سائر الرسالات جاءت بقوانين وتشريعات تقوم على أساس العدل والمساواة والتكافل الاجتماعي والتضامن والحرية والكرامة، فدعتهم لاستعمال عقولهم لتحقيق ذلك واختيار الأصلح منها، فلا يستطيع أحد مهما بلغ نضج فكره أن ينكر الفضائل التي دعا إليها الإسلام، أو يشك في أثرها على سعادة الناس وأمنهم واستقرارهم.

ثالثا: نعمة الاجتماع والتآلف

وهذه من النعم التي كرّم الله بها الإنسان إذ جعله مخلوقا يميل إلى الاجتماع والتآلف، وفي ذلك مصلحة كبيرة لتأمين عيشه وتوفيراستقراره الاجتماعي والنفسي، وخصلة التآلف والاجتماع أوجدها الله في كل الحيوانات لحماية نفسها من أعدائها، ولتأمين الطعام لنفسها ولصغارها لكن شتّان بين صفة التآلف عند الحيوانات وعند الإنسان، فالإنسان لا يكتفي بتوفير الأمن والعيش فقط وإنما يسعى إلى أبعد من ذلك من أجل إيجاد أفضل السبل للعيش الكريم والأمن الدائم وتطوير المجتمع نحو الأفضل حيث يسترشد بشريعة الله، وبما يضع من أنظمة وقوانين تنظم حياة الأفراد والجماعات في علاقاتهم ومعاملاتهم التي تتعدد صنوفها وأشكالها في التجارة والصناعة والسكن والتعليم والمنازعات، وغيرها من القضايا الاجتماعية التي هي جزء من حياة الناس، والناظر في الشرائع والقوانين التي تتعامل بها المجتمعات البشرية سماوية كانت أو وضعية يلاحظ أن تلك القوانين لم تهمل صغيرة أو كبيرة في العلاقات الاجتماعية، وفي السلوك والأخلاق، والاقتصاد والتجارة والعدل، وهذه العلاقات تتشابك وتتفرّع حتى إننا نجد فقهاء الشريعة والقانون الوضعي لا يقفون لحظة عن الاجتهاد في خلق القوانين ووضع التشريعات ومناقشة النوازل التي تظهر بحكم تطور المجتمعات، وهذا يدل على أن البشرية لها نمط مضبوط ومقنّن في علاقاتها الاجتماعية والنفسية والخلقية، إن خرجت عليها اختلّ توازنها، بخلاف الحيوانات التي تعيش دوما في صراع تكون فيه الغلبة للقوي، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(سورة الحجرات: ١٣)، يحمل هذه الدلالات القويّة في نظام الاجتماع والتآلف والروابط التي ينبغي تحقيقها في المجتمعات البشرية، فالتعارف هو لقاء وودّ ومحبة، وبحث عن المصالح من أجل العيش في سلام وأمن واستقرار، ولذلك كان الخطاب في الآية الكريمة للناس جميعا، لا فرق بينهم في العرق واللّون والجنس، إن التعاون لفعل الخير والبر والإحسان واجب إنساني إذا كان يسعد البشرية جمعاء، وحتى الذين نختلف معهم في العقيدة يجب أن نستفيد من علومهم وخبراتهم وتجاربهم إذا كان ذلك في صالح الأمّة.

ونلاحظ هذا النهج الذي دعت إليه الآية الكريمة في المعاملات من أجل المصلحة الإنسانية هو الذي يسود في عصرنا الحاضر بين جميع الأمم في البحث العلمي والمناهج التربوية، وفي التجارة والصناعة والفلاحة والمواصلات والتقنيات الحديثة، وهذا هو النهج السليم، فالمجتمعات الإسلامية في المرحلة الراهنة من واجبها أن تبحث في كل ما يمكن أن يسعدها ويطوّرحياتها نحو الأفضل بالعلم وباكتساب الخبرات والتجارب التي سبقتها بها الأمم المتقدمة.

ولو تأمّل كل فرد ما في نعمة الاجتماع والتعارف على تأمين حياته وتوفير أمنه واستقراره لقدّر هذه النعمة حق قدرها وشكر الله عليها مثل سائر نعمه التي لا تعدّ ولا تحصى، ولينظر الإنسان إلى أثر هذه النعمة في ميدان واحد فقط وهو تربية النشء ورعايتهم وتوجيههم إلى ما يسعدهم ويصلح أحوالهم في المستقبل، إن تربيتهم وتكوينهم وتعليمهم يحتاج إلى جهود من أطراف عديدة تبدأ من الأسرة ثم المدرسة والمعاهد والجامعات والمجتمع المدني، المتمثّل في الجمعيات الثقافية والحقوقية والرياضية، وكل هذه الميادين تتوفّر على مربين وخبراء وتقنيين وفنيين اكتسبوا تجارب وخبرات في التربية والتكوين والسلوك النفسي، والنشء لكي يحصل على توجيه سليم يحتاج إلى جهود وخبرات كل هؤلاء في مراحل نظمتها المجتمعات، ولايتم ذلك على الوجه الصحيح إلا بالتآلف والاجتماع والتعاون.

رابعا: نعمة إرسال الرسل والأنبياء

وهذه نعمة من نعم الله على الإنسان ومظهر من مظاهر تكريمه وتفضيله، لقد أرسل الله له الرسل على فترة من الزمن مبشرين ومنذرين وحملوا لهم شريعة الله وقوانينه التي ينبغي أن يلتزموا بها ليسعدوا في دنياهم وأخراهم، وهذه رحمة من الله بعباده، فالإنسان برغم ملكته العقلية لا يستطيع أن يتوصّل بمفرده لمعرفة الغيبيات والحقائق التي فوق قدراته العقلية، ولا يمكنه أن يضع شرائع وقوانين مضبوطة تنظم العلاقات والسلوك والمعاملات التي تحفظ حقوق الأفراد والجماعات بلا مظلم، فالقوانين الوضعية هي اجتهادات بشرية قد يصيب فيها واضعها أو يخطئ، أو قد تضعها جهة تريد المصلحة لنفسها أو عشيرتها، أما قوانين الرسالات السماوية فهي رحمة للناس كافّة، تعصمهم جميعا من الخطأ وتبيّن لهم الأحكام الصائبة وتساوي بينهم، فلا يفضل أحدهم على الآخر إلا بالتقوى والعمل الصالح، كما أن الرسالات السماوية حجة على الإنسان أمام الله، فلا يستطيع إنكار ما جاء به الرسل: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ (سورة النساء: ١٦٤)، والقرآن الكريم الذي جاء به خير ولد آدم عليه الصلاة والسلام جاء بلسان عربي مبين، وهي لغة القوم الذين خاطبهم الرسول الأمين عليه الصلاة والسلام: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ (سورة طه: ١١٠)، وهو عليه الصلاة والسلام من صميم القوم وأشرفهم، يعرفون نسبه وأخلاقه وسيرته، وقد ذكر الله فضل الرسول الأمين عليه الصلاة والسلام على قومه، فقال عزّ وجلّ: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (سورة آل عمران: ١٦٤).

لقد أرسله الله بالهدى ودين الحق لقومه وللناس جميعا في كل زمان ومكان حتى لا يكون للناس حجة على الله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (سورة النساء: ١٦٩)، وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (سورة سبأ: ٢٨).

والمسلمون مطالبون بتبليغ هذا الدين في كل زمان ومكان بالحكمة والموعظة الحسنة، فلا إكراه في الدين بعدما تبيّن الرشد من الغيّ، لأن كل ما جاء به رسول الله عليه الصلاة والسلام من ربّه وما دعا إليه في أقواله وأفعاله وتقريراته هو صدق ينبغي أن يلتزم به المسلم ويبلّغه بأمانة ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (سورة الأحزاب: ٢١).

فلينظر الإنسان وليتأمل بعقله لكي يقدّر كل نعم الله عليه، فلم يتركه للأهواء والظنون ولا لعقله المحدود، فالله الخبير العليم بكل الأمور يعلم أن الإنسان خلق ضعيفا في قدراته الجسمية والعقلية والنفسية، فاقتضت رحمته الواسعة الأخذ بيده ليسلك طريق الخير التي يبيّنها له الرسل والأنبياء، فكان الوعد والوعيد وبيان ما حاق بالأمم الظالمة التي سبقت عبرة لكل من يتذكر وينيب إلى الله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ (سورة الأنعام: ٧).

هذا جزء بسيط من رحمة الله الواسعة بعباده وفضله وكرمه عليهم، وتفضيله على كثير من المخلوقات، فلينظر الإنسان إلى هذه الرحمة وهذا التفضيل بتأمل ويشكر الله على ما أعطاه وسخّر له.

فنون الاتصال الجماهيرى والإعلام الدبلوماسي في الإسلام

د. وليد خلف الله
أستاذ الإعلام الجماهيري

حقق التقدم التكنولوجي الحديث في وسائل الاتصال الدولية في النصف الثاني من القرن العشرين، تطورًا ملحوظًا مما زاد من أهمية الدبلوماسية الإعلامية في العلاقات بين الأمم، وقد دفع عددًا من الباحثين لدراستها والكتابة عنها، ومحاولة التعرف على نشأتها ومراحل تطورها وبيان ما لها من آثار ونتائج، ومع هذا الاهتمام العام بالدبلوماسية الإعلامية في الآونة الأخيرة فقد رأى الكاتب أن يخصص جزءًا من كتاباته لتناول الدبلوماسية والاتصال الجماهيري وكذلك العلاقات العامة الدولية الإسلامية من زاوية إعلامية وأثرهما على استراتيجيات نظم الدبلوماسية الإعلامية المعاصرة وذلك لعدة أسباب.

عند التأريخ للدبلوماسية والبحث عن أصولها والمراحل الأولى لتطورها، فإن غالبية الباحثين في العلاقات الدولية لم يبحثوا عنها إلا في التراث اليوناني القديم، وفي ما استحدثته الدول الأوروبية في العصر الحديث، الأمر الذي ترك انطباعًا وكأنه لم تنشأ خارج العالم الأوروبي، قديمه وحديثه أصول وقواعد الدبلوماسية، وبدا للبعض وكأن العرب والمسلمين لم يسهموا فيها بقدر ذي أهمية.

ولعل المراقب يلحظ عددا من الأسباب تقف وراء هذا الاحتكار الأوروبي لهذه الصورة التي تغيب العرب ودورهم في هذا المجال الحيوي منها:

قصور العرب في عدم ترجمة أمهات الكتب الإسلامية إلى اللغات الأجنبية، وعدم نشرهم لقواعد الإسلام الصحيحة، وعدم ذكر المعاملات والعلاقات الدولية للعرب والمسلمين في صدر الإسلام وتعريف الغرب بها، والصعوبة التي يلاقيها الغربيون في فهم أفكار الفقهاء المسلمين كتقسيم العالم إلى دار الإسلام ودار الحرب.. وهكذا.

ادعاء البعض أن المسلمين في علاقاتهم الخارجية لم يعرفوا إلا السيف لمن لم يؤمن بالكتاب وألصقوا بالإسلام تهما ومزاعم باطلة، وهم عندما يذكرونه يقرنونه بالعنف والنزعة لسفك الدماء، وهذه كلها مزاعم لا تقوى على الصمود أمام الدراسات الموضوعية والبحث العلمي النزيه.

الادعاء في السنوات الأخيرة بأن الإسلام دين إرهاب، وأن النظم الإسلامية وسياستها الخارجية مبنية على التطرف والإرهاب، وتشويه صورة الإسلام وأنظمته أمام العالم وعدم وضوح الرؤية الصحيحة للمعاملات الإسلامية الصحيحة.

وبما أن العلاقات الدبلوماسية وجدت بوجود الإنسان، فقد عرف العرب التبادل الدبلوماسي منذ القدم مثلما حدث في القرن العاشر قبل الميلاد، وبالتحديد في عهد الملكة «بلقيس» ملكة اليمن، إذ تعتبر زيارتها لنبي الله سليمان عليه السلام، ممارسة دبلوماسية على مستوى رفيع بتعبير العصر، أو كما يسمونها بلقاء القمة، وإلى سفير سيدنا سليمان «الهدهد» إلى ملكة «سبأ» والرسالة التي حملها والتي تميزت ببساطتها ووضوحها(٢)، كما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾(النمل: ٣٠-٣١).

كما كانت للعرب علاقات واسعة مع البلدان المجاورة، خاصة أن طبيعة العرب في حب الأسفار لأغراض تجارية واجتماعية وثقافية سهل لهم إقامة علاقات تتسم بالود والسلم، وكانت ممارسة الدبلوماسية عند العرب تتركز في تنظيم التجارة وحل المشاكل فيما بينهم، وذلك عن طريق الرسل والمبعوثين الذين كانوا يتمتعون بحماية خاصة عرفت عند العرب «بالأمان»، وذلك قبل ظهور الإسلام الذي أكد على ذلك التقليد فيما بعد وعززه بتعاليمه، فكان يمنح السفير «الرسول» حصانة خاصة لحمايته بحيث لا تنتهك حرمته.

النظم الدبلوماسية في الإسلام من زاوية إعلامية

مفهوم الدبلوماسية والدبلوماسي في الإسلام: تعتبر كلمة «الدبلوماسية» اليونانية الأصل: دخيلة على اللغة العربية، ولكنها اندمجت فيها، أما كلمة السفارة فمشتقه من الفعل «سفر» وتعني وضح وانكشف، كما تعني أيضا الفعل «ارتحل»، وكذلك نجد أن كلمة سفير أصلها سفر، وسفر بين القوم أي أصلح، ومصدرها سفر وسفارة بكسر السين وفتحها، وقيل للوكيل ونحوه سفير، وسفر الشيء سفرًا أي أوضحه وكشفه، فالسفير يوضح ما ينوب فيه ويكشفه، وكلمة سفير ليست من السفر بمعنى قطع المسافة والخروج للترحال، فيقال سفر الرجل سفرًا فهو سافر مثل راكب وصاحب.

تطور العلاقات الدبلوماسية عند العرب

- الدبلوماسية الإعلامية في العصر الجاهلي:

ركزت الدبلوماسية في العصر الجاهلي على ممارسة التجارة، وتأمين مرور قوافلها من الشام في الشمال، حيث توجد إمبراطورية الروم وإلى اليمن في الجنوب، وذلك في رحلتي الشتاء والصيف، اللتين ورد ذكرهما في القرآن الكريم، وكان العرب الجاهليون يعقدون المحالفات لتأمين هذه التجارة، فكثر اتصالهم بشعوب الدول المجاورة، كما استهوى البيت الحرام في مكة أفئدة أهالي الأقاليم المجاورة، ولقد وجد العرب في سوقي عكاظ وذي المجاز -قرب مكة- فرصة لتجميع رؤساء القبائل وحكامها في الأشهر الحرم، حيث يتوقف القتال، وتلجأ القبائل إلى عقد الهدنة المؤقتة، وتتحول هذه المناسبة، إلى ما يشبه مؤتمر قمة، يتم فيه الاتفاق على حل المشاكل سلميا، وعلى عقد الصلح،

والاتفاق على تبادل الرسل لحل ما يتبقى من خلافات بالمفاوضة.

-الدبلوماسية الإعلامية في صدر الإسلام:

بطبيعة الحال لم يكن للدبلوماسية في الجاهلية من الأهمية ما أصبح لها في الإسلام، فبظهور الإسلام تحققت وحدة العرب السياسية وأسست الدولة الإسلامية الأولى في المدينة برئاسة النبي محمد ﷺ، ومن ثم أصبح العرب قوة منيعة، ولم تعد علاقاتهم مع جيرانهم مجرد علاقات تجارية أو محدودة، بل تطورت إلى ما هو أوسع وأهم في ميدان العلاقات الدولية، وأصبحت الدبلوماسية إحدى وسائلهم لتنفيذ سياستهم الخارجية.

أخلاقيات الاتصال الجماهيري والدبلوماسية الإعلامية في الإسلام

لاشك أن الكثير من أصول النظم الدبلوماسية الإسلامية وقواعدها يرجع إلى الشريعة الإسلامية، فالقرآن الكريم مصدر أساسي لا غنى عنه في توجيه مسارات العلاقات الخارجية للمسلمين، سواء أكان ذلك فيما يتعلق بالجهاد وشروطه، أو العلاقات السلمية بما في ذلك العلاقات الدبلوماسية، كما أن سنة الرسول ﷺ حافلة بتفاصيل وعناصر أساسية متعلقة بالعلاقات الخارجية ونشاط المبعوثين والرسل والمراسلات والمعاهدات والهدن، وتشمل السيرة النبوية الشريفة القواعد والأخلاقيات التي قامت عليها المعاهدات التي عقدها المسلمون مع الدول والإمارات غير الإسلامية.

ومعنى هذا أنه حينما جاء الإسلام وحددت مبادئه في القرآن الكريم والسنة النبوية، فقد كان الدين أكثر وضوحا في التأثير في الإدارة والنظام الإسلامي الشامل، فكان التخصص وتقسيم العمل، والتخطيط والتوجيه والقيادة والرقابة، أوضح قانون في التنظيم الإداري الإسلامي.

وقد أسهمت الحضارة الإسلامية بدور بارز في تطوير ممارسات العلاقات العامة والعلاقات الدولية بفضل حثها على الشورى في القرآن الكريم، والإنسانية في معاملة الناس (والتي هي من صميم فكرة الدبلوماسية) ويحوي الفكر الإسلامي منهجا خاصًا بإعلام متميز يستمد أصوله من القرآن الكريم وسنة سيدنا محمد ﷺ وذلك كاستراتيجية من استراتيجيات نجاح النظام الدولي الإسلامي.

وفي مجال العلاقات العامة أولى الإسلام عناية فائقة للاهتمام بظاهرة الرأي العام، وكشف عن المقومات الموضوعية للرأي العام، وحدد الوظائف المنوطة به للدلالة على أهمية العمل الدبلوماسي وخصائصه في الإسلام.

وعلى هذا الأساس يمكن القول بأن القرآن الكريم وحياة الرسول ﷺ أقوالا وأفعالا وتقريرات، تطبيقًا لمفاهيم العلاقات العامة بمفهومها الحديث، وتعد هذه الفترة التي شهدت نشر الدعوة الإسلامية على يد النبي ﷺ فترة تاريخية لها دورها في تطور العلاقات العامة بما جاءت به من مبادئ ومثل ذات الطابع التوجيهي والإرشادي.

استراتيجيات الاتصال الجماهيري والنظم الدبلوماسية الإعلامية الإسلامية

يتضح من متابعة تطور الدبلوماسية العربية عبر القرون أنها انعكاس طبيعي للعلاقات التاريخية القائمة في كل مرحلة من مراحل ذلك التاريخ، ففي عهد الرسول ﷺ كان الهدف من إرسال سفرائه نشر الدعوة للدين الإسلامي، ثم اتسع نطاق الدعوة، واتسمت علاقة المسلمين بالدول المجاورة بمحاولة تثبيت دعائم الإسلام، وبعد أن استقرت سلطة الدولة الإسلامية اتسعت دائرة العلاقات الخارجية من سياسية وتجارية وثقافية.

أولا: استراتيجيات الإعلام الدولي الإسلامي

أوفد الرسول مبعوثيه في بداية الدعوة للاتصال بزعماء القبائل المجاورة أولا، ومن ثم إلى ملوك وأباطرة الدول المحيطة بالحجاز، وذلك لدعوتهم للدخول في الإسلام: وهذه هي أول استراتيجية استخدمها الرسول في بناء الأمة الإسلامية، وهى «ممارسة الإعلام المحلي والدولي» بهدف التعريف بالدين الجديد، مستخدمًا عنصر الإقدام والعرض للرسالة المحمدية، ودحض الإعلام المضاد الذي يدعي بأن هذه الرسالة لا أساس لها أو أنها باطلة، وأن هذا النبي غير صادق ويجب عدم اتباعه، وهذا تكنيك مهم من أساليب الإعلام الإسلامي الذي استخدمه الرسول في سياسته ونظمه الدولية، وهذا يعد أول عنصر من عناصر نظرية الدبلوماسية الإسلامية.

كانت دعوته ﷺ دعوة «عالمية» وذلك مصداقًا لقوله تعالى ﴿إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾، فاستخدم كل عناصر الاتصال الدولي والإعلام الإسلامي في نشر دعوته واستخدم وسائل الاتصال كإرسال الكتب والاتصال الشخصي بواسطة أشخاص لتوصيل الرسائل وعقد المؤتمرات لشرح فنون

السلام، فاستخدامه لوسائل الإعلام جعلته يصل إلى هدفه بسهولة ويسر، واستخدامه الاستخدام الأمثل للرسل الذين يرسلهم واستغلاله الرق لكتابة رسائله وكان يختمها بخاتمه في أسفلها، حيث كانت تكتب بحبر أسود وخط بدائي، وهذا يدل على مدى قدرته ﷺ على التعامل مع أشكال وفنون الكتابة الصحفية ومعرفة قواعدها.

سار الخلفاء الراشدون على منهج الرسول الكريم ودأبوا على نشر الدعوة الإسلامية وإيفاد الرسل والمفاوضين إلى الدول المعادية للإسلام لعقد المعاهدات وحل المنازعات.

هذه استراتيجية مهمة من استراتيجيات نجاح الممارسة الدبلوماسية الإسلامية، حيث إن النموذج أو التخطيط الاستراتيجي لبناء الأمة لا يتوقف عند موت شخص أو قائد حتى لو كان هذا هو رسول الله، وإنما امتدت الخطة أعوامًا وقرونًا، لأن الهدف واحد برغم تغير الأشخاص ورغم تفكك الأمة الإسلامية إلى دويلات، إذ إن العمل مؤسسي وليس شخصيا، وهذه استراتيجية يجب أن تفطن لها الأمة العربية والإسلامية وأنظمتها السياسية والحكومية.

الإسلام دين دعوة عالمية: لأنه كلف جميع المسلمين بما فيهم السفراء والرسل بالمسؤولية الإعلامية والمسؤولية الدولية نحو العالم، حيث جعل الوظيفة الإعلامية لا تقل في أهميتها عن الصلاة والزكاة، كما في قول رسولنا الكريم: «الدين النصيحة» وما النصيحة؟ إنها الإعلام الصادق الأمين، وبهذا كان الدعاة والتجار الرحالة وكذلك السفراء والرسل مطالبين بنشر الإعلام عن الدين وبعولمة الدين الجديد بكل الطرق والوسائل، وهذه ركيزة أساسية واستراتيجية مهمة أيضًا من استراتيجيات نظرية الدبلوماسية الإسلامية في أنها تسخر الإعلام وتكيفه وفق الطرق والظروف التي تمر بها الأمة الإسلامية.

استخدامه ﷺ لأسس معايير انتقاء واختيار الأخبار الدولية وعدم اعتماده على مصادر أخرى حتى لا تفقد الرسالة الإعلامية مضمونها: مثلما حدث في تعليمه لصحابته فنون وجودة اللغات الأخرى كزيد بن ثابت، لأنه فطن ادعاءات وكالات الأنباء الأخرى، ولهذا السبب وضع قواعد وأساليب لهذه الأخبار، وهذه أيضا استراتيجية مهمة من استراتيجيات الإعلام الإسلامي الذي استند إليها الرسول لإنجاح مهامه الدبلوماسية في إقامة الخلافة الإسلامية، ولعل الدول النامية والعربية تركن إلى تصفية أخبارها وتسعى لخلق كوادر عربية مدربة تستطيع أن تحصل على المعلومة بالشكل الصحيح بعيدًا عن الزيف والتضليل، وصولاً إلى قرارات سليمة وتوصيل الحقائق كاملة للجمهور حتى نكون على دراية بما يحدث للأمة من أحداث ونستطيع أن نعالجها بالشكل الصحيح.

ثانيًا: استراتيجيات العلاقات العامة الدولية

بدأ ﷺ في إرسال رسائل خاصة بسفراء معدين إعدادًا جيدًا إلى ملوك وأمراء العالم كالمقوقس عظيم القبط في مصر، وكسرى والنجاشي ملك الحبشة وغيرهم: وهذا يدل على أهمية هؤلاء الملوك ومنزلتهم الرفيعة، كذلك إرسال وفود مميزة لها دور مهم في إضفاء أهمية لهذه الرسائل وكذلك احترامًا وتقديرًا لهؤلاء الملوك ولضمان نجاح هذه الرسائل وفعاليتها، كل هذه العوامل جعلت من هذه الرسائل رسائل اتصالية فريدة أجبرت زعماء وملوك العالم أن يتعاملوا معها بشيء من اللطف واللين، واستطاع الرسول أن يحقق أهدافه في أنه استطاع أن يخترق هذه الحواجز بعيدًا عن التشويه والتضليل، وأسرع بعرض دعوته في برنامج علاقات عامة دولية ناجحة باستخدام متحدثين رسميين محترفين على أعلى مستوى من اللباقة وفهم مضمون رسائلهم، وهذا نوع مهم من التكنيك الاستراتيجي للعلاقات العامة الدولية في الاعتماد على الانفتاحية والصراحة واستخدام مقومات رجل الاتصال والعلاقات العامة الدولية الناجح في توصيل الرسالة وكيفية إنجاحها.

وهذا يعطينا الدرس والفائدة في كيفية انتهاز الفرص للأحداث الدولية ونشر ما يود المسلمون أو العالم الإسلامي من قيم ومبادئ، كذلك التطلع إلى نقل الرسائل والصور والأحداث إلى العالم بالطريقة التي يرتضيها العالم الإسلامي، بالشكل الذي يريده والجمهور الذي يستهدفه.

تفعيل دور السفارة الإسلامية في عهد الرسول واستخدام أدوات العلاقات العامة الناجحة من تسخير الإعلام بالشكل الصحيح وأدواته، وعقد المؤتمرات الصحفية بأسواق عكاظ وغيرها، وبالمتاجر وفي الطرقات: وكذلك تعليم المسلمين القراءة والكتابة من أسرى الأعداء رغم احتياجهم للمال أكثر في هذا الوقت، ولكنه ﷺ فطن لدور الإعلام في نشر الدعوة كأداة من أدوات العلاقات العامة الدولية

الناجحة، وكذلك الإعداد الجيد للممارسين والمحترفين لنشر الدعوة الإسلامية، وكلها استراتيجيات مهمة استطاعت أن تثري قواعد الدبلوماسية الإسلامية الصحيحة لتحقيق الهدف المطلوب.

ثالثًا: تكنيك الدبلوماسية الإسلامية

سجل التاريخ أن النبي ﷺ أرسل مبعوثيه إلى كل من: النجاشي ملك الحبشة والمقوقس عظيم مصر، وهرقل إمبراطور الروم، وكسرى ملك الفرس، وأسقف نجران وزعماء يهود خيبر وملوك عمان والبحرين واليمن، بالإضافة إلى مجموعة أخرى من زعماء القبائل المتفرقة في شبه الجزيرة وعلى أطرافها، هذه الموجة الأولى من المبعوثين الدبلوماسيين قاموا بدور التمثيل وتشبيها فإنهم قاموا «ببعثات خاصة» بهدف معين ولمدة زمنية محددة، إذ قاموا بمهمة حمل الرسائل من الرسول، وقد تبعتها موجات من البعثات الدبلوماسية الإسلامية الأخرى، قامت بالمهمة الثانية للدبلوماسية ألا وهي «المفاوضة» من أجل عقد الهدنة وفداء الأسرى وعقد الاتفاقيات والمعاهدات والصلح بعد الحروب (كصلح الحديبية).

وهذا يعني أن الدبلوماسية الإسلامية هي المهيمنة على الأفكار والعقول وفرض سيطرتها وأدواتها على شبه الجزيرة العربية وعلى أطرافها، رغم إمكاناتها المحدودة، وكانت همزة الوصل بين القبائل الأخرى وكانت متزعمة عقد الاتفاقات والمعاهدات والصلح، وهذه طبيعة النظم الدبلوماسية الإسلامية القوية والتي نأمل أن تعيد الدبلوماسية العربية الآن مجدها وقوتها وعزتها، وأن تستمد قوتها وأصولها من قواعدها الدبلوماسية الإسلامية الأولى، وتسعى إلى فعاليتها وتأصيلها والأخذ بأساليبها حتى تسود وتهيمن على العالم.

أرسى النبي ﷺ «فكرة حصانة المبعوث» بقوله لمبعوثي مسيلمة الكذاب: «والله لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما»، وهذا يدل على مدى أهمية الدبلوماسية بالنسبة للرسول، ودور الدبلوماسي أو السفير في نقل رسالة دولته إلى الدول الأخرى، إضافة إلى أنه أرسى قواعد الاستقبال والبروتوكول من كرم الرسول أو السفير واستقباله الحار، وإنزاله بقصر الضيافة وتوديعه بالهدايا وغيرها، كل هذه العوامل أصلت في قواعد وتأسيس الممارسة الدبلوماسية العالمية ومنها أيضًا:

تأسيس جهاز دبلوماسي كبير في عصر الدولة العباسية، وتنظيم وتطوير ديوان الرسائل (وزارة الخارجية)، واختيار موظفين مناسبين له، وكانت مهمتهم تحرير وصياغة المراسلات الدبلوماسية المرسلة من الخليفة والرد على ما يرد من رسائل له، وكذلك صياغة الاتفاقيات والمعاهدات.

حسن اختيارهم للسفراء: فبالإضافة لاختيارهم رجال الفكر والعلم والفلسفة لهذه المهمة الصعبة، فإن دهاءهم دفعهم لاستخدام رجال الدين المسيحيين الذين كانوا يعيشون في كنفهم كسفراء لهم.

حمل العباسيون سفراءهم جوازات سفر دبلوماسية أو ما كان يعرف (بوثيقة الطريق): مدونا فيها اسم السفير ولقبه وصفته ووجهته، مع رجاء تقديم كامل المساعدة له ليقوم بمهمته على خير وجه، وهذا يدل على أهمية الحصانة الدبلوماسية للسفير في توصيل رسالته.

ألبسوا كذلك سفراءهم ملابس رسمية ليقابلوا بها رؤساء الدول الأجنبية.

كان المبعوث أو السفير وحاشيته يعفون من القضاء الجنائي والرسوم الجمركية ويحترمون في ممارستهم لديانتهم.

خاتمة

يضاف إلى ذلك أن قواعد النظام القانوني للرسل «القانون الدبلوماسي الحالي»: مارستها العديد من الدول منذ فجر التاريخ، ولم تختلف أو تشذ الدولة الإسلامية عن ذلك، ويكفي أن نشير إلى أن محكمة العدل الدولية اعترفت بخصوص القانون الدبلوماسي بدور الإسلام في تكوينه، وذلك في حكمها الصادر في ٢٤ مايو ١٩٨٠م (بخصوص قضية الرهائن الأميركيين في طهران). كذلك فقد جاء في مذكرة قدمتها الدول الإسلامية بخصوص المادة ٩ من النظام الأساسي للمحكمة الدائمة للعدل الدولي ما يلي: «إن النظام القانوني الإسلامي هو نظام ذو أصالة لا يرقى الشك إليها، بل إن مؤتمر القانون المقارن الذي عقد في لاهاي عام ١٩٣٢م، قرر أن القانون الإسلامي يعتبر مصدرا مستقلا للقانون المقارن، وفي هذا المعنى فإن حكومات الدول الإسلامية أرسلت إلى السكرتير العام لعصبة الأمم المتحدة رسائل توضح فيها الآتي: لا يمكن المنازعة أن المدنية الإسلامية تشكل بماضيها المجيد وإشعاعها الحالي إحدى أشكال المدنية، ومن ناحية أخرى يعتبر القانون الإسلامي، والذي يحكم جزءا كبيرا من سكان المعمورة نظاما قانونيا مستقلا بمصادره الخاصة به وهيكله ومفاهيمه الخاصة.

في أي مرحلة تمر الأمة؟

حسن قاطرجي-داعية لبناني

لفتت نظري وهزتني عبارة كتبها على صفحته الكاتب الإسلامي العراقي المعروف الدكتور أحمد خيري العمري: «عالقون في الطائف... ولكن بلا عداس ولا عنب! ولا يثرب في الأفق»!!

واضح من هذه العبارة أنها تعبر عن حالة فكرية ونفسية! وهي حالة يعيشها السواد الأعظم من المسلمين في هذه اللحظة التاريخية الصعبة القاسية التي تمر فيها أمتنا.. كما يلاحظ أنها تستحضر في بعض كلماتها الرمزية أحداثا تاريخية مرت بالرسول الأكرم صلوات الله وسلامه عليه في لحظة صعبة للغاية -أيضا- حيث سد الأفق إلا من الأمل برحمة الله وفرجه.. وهو ما عبر عنه عليه الصلاة والسلام بدعائه المخبت الرقيق الذي ناجى به ربه سبحانه وتعالى وهو في الطائف، بعدما تتالت عليه المحن ﷺ.

وذكر هذه العبارة في حالتنا اليوم تشير إلى أننا نعيش حالة «خضة عنيفة»، خاصة في البلدان الملتهبة -وعلى رأسها سورية ومصر- وتلك المتأثرة بحرارة أحداثها المرتفعة جدا وتحديدا لبنان والعراق وغزة.. مما يفرض علينا أن نفهم أبعاد ما يجري، وأن نتحضر لما يجب علينا أن نؤدي -وفاء لديننا وحفاظا على هوية أمتنا الثقافية والحضارية، وتحصيلا لخبرة إدارة الصراع الحاد في مرحلتنا هذه-، ولما علينا أن نتوقع حدوثه على ضوء الحقائق القرآنية والنبوية والسنن التاريخية..

وإليكم هذه الومضات الفكرية:

أول ما يجب تأكيده هو أن الأمة فيما تواجهه، على الرغم من قساوة مخاطره وحدة آلامه وفظاعة وحشيته، فإن الله عز وجل يريد بها خيرا في مآلات ما يمر بها، فهو سبحانه الذي قال: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

والذي يجب وعيه الآن أن الأمة مازالت في مرحلة «الابتلاءات» لأسباب كثيرة في واقعها، ولحيثيات كثيرة، ثم لحكمة «التمحيص» و«التأهيل» لدور يريده الله لها ويعدها من أجله.. دور يتطلب مستوىً رفيعا عاليا من الصفاء في الوعي والمنهج والنية والراية، كما يتطلب قدرا متميزا من الخبرات والقدرات والذكاء السياسي، ومهارات الإدارة المجتمعية والدولية، في عالم معقد ومتشابك ومتطور تكنولوجيا إلى حد الذهول!

ولكن كما أنها ليست في مرحلة «الانتصار» الذي أوهمته الثورات، وإن تحقق بها العديد من الإنجازات المهمة، وانكشفت العديد من الحقائق الخطيرة.. إلا أنها أيضا ليست في حالة «انكسار وهزيمة» بل على العكس تماما، فهي في مرحلة صعود و«شق طريق إلى النصر» ولكن مع آلام «الامتحان» وتحديات «التدريب».

ولابد من التذكير بأن «أمل النصر» سيتحقق بإذن الله لا محالة، في الوقت الذي يريده الله.. يسرعه الإخلاص لوجهه وحده، وركل التطلع إلى البروز والوجاهة والمناصب تحت الأقدام، بعزيمة المجاهدة للأهواء، كما يسرعه مقدار متميز من وضوح المنهج وصفاء الراية، وحرص على توحيد الصفوف وتحشيد الطاقات والسير وراء قيادة واحدةربانية وعقلانية.

أخيرا يجب ألا يساورنا الشك في قدوم «نصر الله»، وكيف يساورنا والله عز وجل يقول: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾.. لذا كنت أتمنى أن لا يغلق الدكتور أحمد أفق الأمل.. ولنثق أنه على طريق الابتلاءات سيرسل الله لنا عناقيد العنب، وآلافا من الرجال بطيبة عداس، وسيفاجئنا سبحانه بكرمه وفضله بمفاجأة «يثرب» وبلد «النصر» ومدينة «السلام» وعاصمة «الإسلام»!.. وما ذلك على الله بعزيز.

القرآن الكريم في الجوال ومسائله الفقهية

عرض : علاء عبدالفتاح

تحت عنوان «القرآن الكريم في الجوال.. مسائله الفقهية» يقدم لنا الأستاذ الدكتور فهد بن عبدالرحمن اليحيى أستاذ الفقه في كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة القصيم بالمملكة العربية السعودية بحثا محكما في موضوع افتقرت إليه المكتبة العربية الإسلامية.. في هذا الكتاب مجموعة من المسائل المهمة التي ظهرت بعد استخدام القرآن الكريم في الجوال، منها ما يتعلق بوجود القرآن الكريم في الجوال من حيث اشتراط الطهارة للمسه، ومن حيث الدخول بالجوال ذي المصحف إلى الخلاء، إضافة إلى حكم استخدام قراءة القرآن كنغمة اتصال، وكنغمة جرس للتنبيه.

إلى أن يتناول البحث -المهم- حكم قراءة القرآن من الجوال، ثم حكم إلحاق القراءة من الجوال بالقراءة من المصحف.

ويصف مدير جامعة القصيم خالد بن عبدالرحمن الحمودي الكتاب بقوله: وجدته مؤلفا رصينا، عالج موضوعا معاصرا يتعلق بالعديد من الأحكام الفقهية المترتبة على وجود القرآن الكريم في جهاز الجوال، وغيرها من المسائل التي تهم كثيرا من الناس.

وبالرجوع إلى أصل هذا الكتاب نجده بحثا محكما نشر في مجلة علمية محكمة، ثم حاز على جائزة التميز البحثي في جامعة القصيم لعام ١٤٣٠، يقول المؤلف: وكانت المجلة تصرفت في العنوان فنشرت البحث بعنوان «تخزين القرآن الكريم في الجوال وما يتعلق به من مسائل فقهية» وهو العنوان الذي أعلن في جائزة التميز، ولكن الآن أنشره بعنوانه الأصلي الذي أراه وأرتضيه.

ويضيف في مقدمة الكتاب: من تلك

الخدمات التي تشتمل عليها كثير من أنواع «الجوال» إمكانية تخزين نسخة من القرآن الكريم في ذاكرة ذلك الجوال، ومن ثم استخدام هذه النسخة ،على اختلاف في كيفية التخزين وآليته، والبرامج التي من خلالها يمكن تشغيل تلك النسخة.

ولما شاعت هذه التقنية تساءل البعض عن مسائل في هذا الاستخدام، وهو دليل على حرص الناس على معرفة الحلال والحرام، أسأل الله تعالى أن يزيدنا جميعا علما نافعا وعملا صالحا، وخدمة لكتاب الله تعالى، ثم لأولئك الذين يبحثون عن حكم الله ليتبعوه رغبت أن أكتب في تلك المسائل مجتهدا في تلمس الحكم الشرعي لعل الله يفتح به علي، أو أكون سببا في عرض المسائل فيقيض الله من يحرر الحكم فيها ويجليه.

وقد جاء هذا البحث في تمهيد وأربعة مباحث وخاتمة، وتناول التمهيد التعريف ببعض برامج القرآن المصممة لأجهزة الجوال، بينما تناول المبحث الأول ما يتعلق بوجود القرآن الكريم في الجوال من حيث اشتراط الطهارة للمسه، ومن حيث الدخول به إلى الخلاء، أما المبحث الثاني فيتناول حكم استخدام قراءة القرآن كنغمة اتصال.

ثم نأتي للمبحث الثالث، حيث حكم استخدام قراءة القرآن كنغمة جرس للتنبيه، ويأتينا الرابع بحكم قراءة القرآن من الجوال في الصلاة.

وفيه مطلبان: المطلب الأول: حكم القراءة من المصحف في الصلاة، والمطلب الثاني: حكم إلحاق القراءة من الجوال بالقراءة من المصحف، ثم تأتي المقدمة بأهم نتائج البحث وتوصياته.

ولنعرض بشيء من التفصيل لإحدى المسائل التي تناولها الكتاب حيث يقول المؤلف: لا يخفى خلاف أهل العلم في اشتراط الطهارة عند لمس المصحف.

وليس المقصود من هذا البحث عرض الخلاف في هذه المسألة، بل مسألتنا هي ما يتعلق بمس الجوال المشتمل على المصحف، هل تشترط له الطهارة بناء على قول عامة أهل العلم في اشتراط الطهارة عند لمس المصحف، وهو الراجح في هذه المسألة.

ويضيف: لا يخلو الجوال المشتمل على المصحف من حالين: الحال الأولى: أن يكون المصحف مغلقا (أي في غير حالة التشغيل) والحال الثانية: أن يكون المصحف مفتوحا (في حالة التشغيل)، فأما الحال الأولى: فإنه لا يعتبر له حكم المصحف، لذا فمس الجوال لا تشترط له الطهارة، ولم أجد من الفقهاء المعاصرين من قال باشتراط الطهارة في هذه الحال، وأما الحال الثانية: وهي حال فتح برنامج المصحف في الجوال (في حال التشغيل)، حيث تظهر على شاشة الجوال صورة آيات المصحف، فهذه المسألة في نظري تبني على مسألتين من مسائل مس المصحف: المسألة الأولى: مس المصحف من وراء حائل، والمسألة الثانية: مس كتب التفسير.

ووجه كونها تبني على هاتين المسألتين: أن المس في الجوال لا يكون غالبا للشاشة مباشرة، وإنما من خلال الجهاز، وهو حائل بين اليد وبين الآيات ذاتها، كالجلد الذي يكون على المصحف. ولذا فلو كان المس مباشرة للشاشة خرج من الإلحاق بمسألة الحائل وبقيت المسألة الأخرى.

أما أهم نتائج البحث فتتلخص في أن الجوال الذي يضم المصحف إن كان مغلقا (أي في غير حالة التشغيل) لا يعتبر له حكم المصحف، لذا فمس الجوال لا تشترط له الطهارة، وإن كان المصحف مفتوحا (في حالة التشغيل)، فهذه المسألة تبني على مسألتين: مس المصحف من وراء حائل، ومس كتب التفسير، والأرجح هو عدم اشتراط الطهارة لمس الحائل ولو كان متصلا بالمصحف، وعدم اشتراط الطهارة لمس كتب التفسير، فكذلك الجوال لا تشترط الطهارة لمسه إذا كان في وضع التشغيل بشرط عدم مس الشاشة ذاتها، لأن مسها حينئذٍ مس للمصحف فتشترط له الطهارة.

وفي مسألة الدخول بالجوال ذي المصحف إلى الخلاء ينبغي التفريق بين حال تشغيل البرنامج بحيث تظهر الآيات على شاشة الجوال، وبين حال عدم التشغيل، ففي الحال الأولى يعتبر الدخول به كالدخول بالمصحف، وأما في الحال الثانية فلا يعتبر دخولا بالقرآن إلى الخلاء، نظرا إلى عدم ظهور تلك الآيات.

أما حكم استخدام قراءة القرآن كنغمة اتصال، وكنغمة جرس للتنبيه فينبغي الإشارة إلى الفرق بين نغمة الاتصال ونغمة جرس التنبيه، فإن علل المنع أو الكراهة في اتخاذ صوت القرآن كنغمة جرس أوضح منها في المسألة الأخرى.

كما عرضت الخاتمة للخلاف في حكم القراءة من المصحف في الصلاة، مرجحة أن الأصل الإباحة في هذه المسألة، وعلى من يمنع الدليل.

يقع الكتاب في ٨٠ صفحة من القطع المتوسط ونشرته دار التدمرية بالرياض.

العدد (٥٤٠) ذو الحجة ١٤٣٤هـ/أكتوبر-نوفمبر ٢٠١٣م

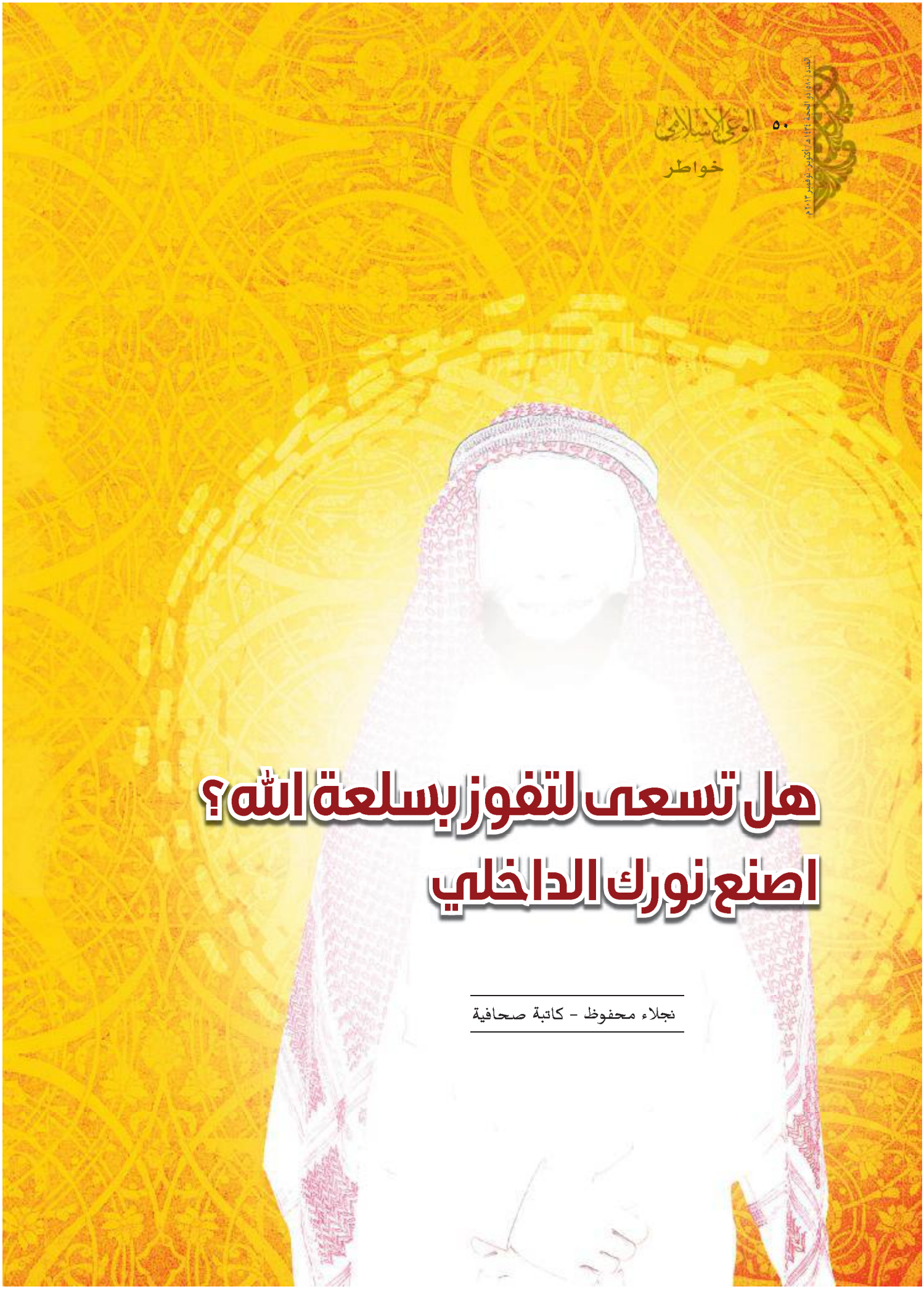

هل تسعى لتفوز بسلعة الله؟ اصنع نورك الداخلي

نجلاء محفوظ - كاتبة صحافية

من منا لا يواصل السعي والتخطيط للفوز بكل ما يسعده دنيويا، ومن منا لا يدفع كل من يحب لنيل أفضل ما يمكنه من مكان ومكانة بالحياة؟.
ومن منا لا يحرص على السعي بجدية ومثابرة للفوز «بأغلى» السلع لنستمتع بها؟

النجاح الحقيقي

نحن نحترم بالطبع السعي الحثيث لصنع النجاح الباهر بكل جوانب الحياة، ونطالب بضرورة ألا تترك لغير المسلمين بدعوى الزهد، فالزاهد الصادق يترك ما بيديه بالفعل قربى للرحمن ولا يدعي التخلي عما عجز عن الوصول إليه..
ونرى أن النجاح الحقيقي لابد أن يتواكب فيه السعي لصنع دنيا ناجحة مع التنبه للفوز بسلعة الله الغالية..
ففي الحديث الشريف: «ألا إن سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله الجنة».

يقظة وفرح

وكأي سلعة غالية لابد أن نستشعر جمالها وأهميتها لنزرع بعقولنا وقلوبنا «حتمية» السعي بيقظة وبحب وبوعي وبفرح أيضا، فالفرح «بإمكانية» الفوز بها سينير لنا الطريق بمشيئة الرحمن بالطبع، ويضاعف طاقاتنا المعنوية والذهنية والجسدية لبذل السعي المتواصل حتى آخر ثانية بأعمارنا للفوز بها.
ويربت الفرح بالسعي للفوز بسلعة الله على الإنسان ويمنحه أحاسيس عذبة تزيل أوجاعه الدنيوية، وتذكره بأن الحياة مهما طالت ستغادرنا فجأة، ومن الذكاء ألا يبدد طاقاته بالتفكير فيما سينتهي، ويترك آخرته ومقره «الحقيقي» الدائم، ونكرر أن هذا لا يتعارض مع النجاح بالحياة، فالمؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف... كما في الحديث الشريف.

رفق وتدرج وعزم

ونتذكر قول رسولنا الحبيب ﷺ: «إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا تقوم حتى يغرسها فليغرسها».
ونهتف بالوقت نفسه بقول الإمام علي رضي الله عنه: يا دنيا غري غيري، وقوله: آه من قلة الزاد ووحشة الطريق وطول السفر.. وهو من هو! فما بالنا لا «نحنو» على أنفسنا ونجتهد برفق وبتدرج وبعزم لا يلين، ولا يسمح بأي تراجع للسعي للفوز بسلعة الله الغالية!!

لا للانحناء

وكأي سعي بالحياة لابد أن توجد به عقبات وعوائق، وأمامنا دوما اختيارات: أولها الانحناء لها والاستسلام، والمؤمن لا ينحني إلا لخالقه عز وجل، أو الصمود الجميل والاستمتاع بتفتيت هذه العقبات الواحدة تلو الأخرى، واضعين أمام أعيننا وقلوبنا وجوارحنا الوصية النبوية الشريفة: «احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز».
ولا يوجد ما ينفعنا قدر السعي للفوز بسلعة الله الغالية، فلنبذل أعمارنا برضا وحسن الظن بالرحمن، ونتذكر الحديث القدسي: «أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء».

أسباب ونوايا

ولنجدد التبرؤ من حولنا وقوتنا ولنتدبر القول الصادق: ترك الأخذ بالأسباب معصية والتوكل على الأسباب شرك.
ولنتدبر قول نبينا وقائدنا العظيم ﷺ: «لن ينجي أحدا منكم عمله، قال رجل: ولا إياك يا رسول الله؟ قال: ولا إياي إلا أن يتغمدني الله منه برحمة، ولكن سددوا». وفي رواية: «برحمة منه وفضل». ولنأخذ بالأسباب ونحدد النوايا في كل أفعالنا، وأن نكون صادقين في نية التعبد للرحمن حتى أثناء النوم والترفيه المباح، فضلا عن العمل الدنيوي وحسن التعامل مع الناس، ليكون الواحد منا دعاية متحركة عن الإسلام الحق.
وكما قال رسولنا ﷺ «الدين المعاملة» ولنتذكر قوله: «أقربكم مني مجلسا يوم القيامة أحسنكم أخلاقا» وفي ذلك لنتنافس جميعا.

احذر الفيروسات

ولنحرص على أخذ فترات للترويح عن النفس لإفراغها من الانشغال الزائد بمتطلبات الحياة اليومية، ولمضاعفة المناعة الدينية لتقضي أولا بأول – بمشيئة الرحمن بالطبع- على كل «الفيروسات» التي يرسلها لنا شياطين الإنس والجن لتحبط من سعينا للفوز بسلعة الله.

اطرد الشوائب

وكما نحس بالفرح عند «اقترابنا» للفوز بأي سلعة غالية بالدنيا ونخطط لحمايتها، وأحيانا للتأمين عليها ومتابعة صيانتها أولا بأول..
فلنفعل ذلك عندما يكرمنا الرحمن بأي عمل يغمرنا بإحساس لطيف من الرضا عن النفس لشغفنا بالحصول على رضا الرحمن ولنطرد أي «شوائب» للاغترار، ولنسارع للسجود شكرا للرحمن فسبحانه «وحده» عز

وجل صاحب الفضل في هدايتنا وتوفيقنا لعبادته سواء بالقول أو بالفعل أو بالمال، ولتهتف قلوبنا بالآية الكريمة: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ (النحل: ٥٣).

خوف وكراهية

ولا توجد نعمة أسمى وأغلى من نعمة الخوف من إغضاب الرحمن عز وجل، وكراهية ذلك والسعي للفوز برضاه، فاللهم ارزقنا السعي للفوز برضاك ويسره لنا وأنر أعمارنا بطاعتك واجعلنا من عبادك الطائعين التوابين الأوابين المنيبين والمخبتين والمستغفرين، وامنن علينا يا من لا تخذل أبدا -سبحانك وتعاليت- من يستجير بك ولا تسلط علينا الدنيا واجعلها تأتينا راغمة وسخرها وسيلة لإرضائك «ومتعنا» بالسعي للفوز بسلعتك الغالية.

راقب توقعاتك

ونؤكد دوما أن كل إنسان مسؤول عن توقعاته، فإذا توقع أحد أن النجاح بالدين والدنيا سيكون سهلا فسيهزم نفسه.

وإذا بالغ بتقدير الصعوبات كان كمن ينال من إرادته ويوهنها بيديه.

وخير الأمور الوسط، فلا نهون من عقبات السعي للفوز بسلعة الله الغالية ولا نبالغ فيها، «ولنزرع الثبات» بقوة والتشبث بإحسان الرحمن وفضله ورحمته، ولنذكر أنفسنا أن الطريق طويل وأن الكثيرين ممن نقابلهم بالحياة قد يسعون بقصد أو دون وعي لتعطيلنا عن سعينا، ولا ننسى بالطبع كلا من النفس المهلكة والنفس الأمارة بالسوء، وشياطين الأنس والجن.

ولنتدبر وجود كل هؤلاء «الخصوم» ليس لنرتاع من مواجهتهم ولكن لنتيقن من أن سلعة الله الغالية هي الملاذ والملجأ والأمان، لذا يحاربنا أعداؤنا في كل ثانية وساعة من أعمارنا للحيلولة دون استمتاعنا بها.

لا تتراجع

ولنزرع بداخلنا قوى جبارة من التحدي، فالرحمن كرم بني آدم، ومن العار الاستسلام لأي تحريض من الخصوم لإبعادنا عن الاستمتاع بالنهل من الينابيع العذبة والمتجددة والخالدة لسلعة الله الغالية.

ولنقم بمراقبة أنفسنا بحب واحترام وبرفق، ولنقاوم أي تراجع أولا بأول، ولا نسرف بجلد الذات حتى لا نحس باليأس، وهو ما يريده إبليس اللعين ولنتدبر الآية الكريمة: ﴿إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ (يوسف: ٨٧).

التقصير الذكي

وإذا وجدنا تحسنا فلنربت على أنفسنا بود ولطف، ولنجعل من إحساسنا بالفرحة الناعمة وقودا للمزيد من السعي مع زرع الإحساس بالتقصير الذكي لقلوبنا وعقولنا ليدفعنا لتحسين كل أساليب السعي للفوز بسلعة الرحمن.

ويختلف عن الإحساس بالتقصير السيئ الذي يسلب الراحة النفسية وتدريجيا يقود للتقليل من حب العبادات ولنحذره جميعا.

ولنتنافس مع أنفسنا ومع جميع المؤمنين والمؤمنات في طلب العلم الديني والدنيوي وحفظ اللسان والجوارح وتقوى القلوب وتجديد التوبة، بالاستغفار وتجديد الإيمان وطرد الغفلة ومساعدة المسلم بحب واحترام، وصلة الرحم وإتقان العمل، ونواصل ذلك بجدية ومثابرة حتى آخر ثانية من العمر.

حرمان ومكاسب

لنسأل الله العون دوما ونتبرأ من حولنا ومن قوتنا ولندعُ: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ﴾، ولنتدبر أننا نحس بالحرمان لعدم امتلاكنا لبعض السلع بالدنيا، وماذا عن سلعة الله! ألا يجب أن يتملكنا الرعب من انتهاء حياتنا دون تمتعنا بها؟ ولنسارع بتعويض «أنفسنا» عن تقصيرنا، وكلنا مقصرون، ولنضع مكاسبنا من سلعة الله أمامنا لنضاعف من السعي ولنهون الصعاب ولنضع نصب أعيننا الآية الكريمة: ﴿كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ. وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ. كِتَابٌ مَّرْقُومٌ. يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ. إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ. عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ. تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ال نَّعِيمِ. يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ. خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ. وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ﴾(المطففين: ١٨-٢٧).

بصائر لأولي النهى

د. محمد محمد المعلمي
(تطوان- المغرب)

صاح:
تأمل هذه العناصر الأربعة، تجدها ناطقة بأسرار باهرة:
ماء وهواء، يجود بهما الباري كيف يشاء، وكل حياة بدونهما هباء.
ودم ومني، الحق بهما حفي، وكل إنسان بهما حيّ.
فسبحان الذي جعل من الماء كل شيء حي.
وسبحان الذي خلق كل دابة من ماء.
وسبحان الذي أنزل من السماء ماء فأخرج منه نبات كل شيء، وأخرج به ثمرات مختلفا ألوانها، وأنبت به جنات وحب الحصيد.

❖❖❖

وتبارك الذي خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى.
وتبارك الذي جعل نسل الإنسان من سلالة من ماء مهين.
وتبارك الذي خلق من الماء بشرا فجعله نسبًا وصهرًا.

❖❖❖

صاح:
هذه بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون.
صاح:
هذه آيات لقوم يؤمنون.
وآيات لقوم يتفكرون.
وآيات لقوم يعقلون.
وآيات لقوم يسمعون.
فصلها سبحانه لقوم يعلمون.
وفصلها لقوم يفقهون.
وفصلها لقوم يذكرون.
فمن أظلم ممن كذَّب بآيات الله وصدف عنها.
ومن أظلم ممن ذُكِّر بآيات ربه فأعرض عنها.

❖❖❖

صاح:
كن من الحامدين الشاكرين المتبتلين، الذين يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض، ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك.
وكن من الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله.
وكن من الذين لا يمشون في الأرض مرحًا، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلامًا.
وكن من الذين لا يقربون الفواحش ما ظهر منها وما بطن.

❖❖❖

صاح:
هذه نفحات فاحت في لحظات طيبات، أهديكها مقرونة بأجمل التحيات، وأغلى المتمنيات، فاذكرها في كل الحالات، ولا تنسني من صادق الدعوات، في الحياة وبعد الممات.

العدد (٥٤٠) ذو الحجة ١٤٣٤هـ / أكتوبر - نوفمبر ٢٠١٣م

القول المأثور في إحياء الصواب المهجور (١٤)

عبدالله أيت الأعشير
مفتش منسق جهوي لمادة اللغة العربية - المغرب

يدرك المتَرَهيُّون الذين هُدُوا إلى المُنْتَقَرِ المُحْصَدِ من الرأي، أن القرآن الكريم والشعر العربي المبين أخَوَانِ يجريان من وادٍ واحد؛ حيثما سُمعا كان للعربية وجود. ويعدّ هذا التعانق والاتصال بين القرآن الكريم والشعر العربي العمود الفقْريَّ للغة العربية الفصحى، والسبيل الناهجة التي تدعو أخلاف أمتنا العربية إلى الحرص عليهما وصيانتهما والاستمداد منهما، اتباعا لمنهج الأسلاف، لأنهما نُقَاخُ العروبة، والقانون الفطري الذي يجب أن يفرض سلطانه على الأفواه والأقلام، وعلى كل ما ينشر اليوم على الشابكة. كما أن التواشج والاتصال بين ذيّك المصدرين وغيرهما من مُنتقرات أبّيناء الكلام العربي البليغ، من القضايا الأساسية التي تلحُّ علينا في هذا الزمن العولمي الذي يزداد فيه التجانف عن الفصحى؛ ليبعدنا رويدا رويدا عن تلك الينابيع الصافية التي حفظت للعروبة وحدتها وأصالتها واستمرارها وذخيرتها ومستودعها اللفظي؛ فضلا عما تمثله تلك الأصول من أبعاد عاطفية وثقافية وحضارية تذكي في الأمة مشاعر التواصل والدفاع عن الكيان العربي الموحد، وتبعث فيها الولاء الخالص للعروبة التي فرضت سلطانها، كما فرضت سحر لغتها الفصحى على كل البلدان التي وصل إليها الإسلام لحظتئذ.

ذلك غيض من فيض آلاء العربية الفصحى أيام جدتها، فإنْ يكفُرْ بها كثير من أبناء جلدتنا اليوم، فقد وكّل الله بِهَا

فئة من الثقات ليسوا بآلائها بجاحدين حتى يشيب الغراب الأسحم، لا يرضون أن يندسَّ إلى أساليبها ما لا ترضاه وما لا يتوافق مع منطقها وحكمتها؛ وقد يقول قائل: إن القرآن الكريم والشعر العربي البليغ والأحاديث النبوية الصحيحة لم تطرد بعض الاستثناءات التعبيرية التي تخالف ما تقرر من القواعد الصارمة، إلا أن التمحيص الدقيق يظهر أنها كانت مجرد عادات لغوية قليلة مقبولة لا تفارق السجيَّة التي فطر عليها العربي الصميم مثل لغة: ﴿وأسَـرُّوا النَّجْوَى الذين ظلمُوا﴾ الواردة في (الأنبياء: ٣)، و﴿السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ﴾ في (المزمل: ١٨)، حيث حُملتْ لفظة «السماء» على معنى السقف. وفي سورة الشعراء آية ١٦ ﴿فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، حيث حُمل لفظ «رسول» على معنى رسالة... كما استعمل الرسول ﷺ بعض الصيغ للمحافظة على التشاكل الصوتي، مثل الحديث المأثور: «خَيْر المال سِكَّة مَأبُورَةٌ ومُهْرَةٌ مأمُورَة» أي كثيرة الولد، وكان يجب أن يقال «مُؤمَّرة» لكنه أتبع. كما قالوا: «أوْبَة وَطوْبَة» والأصل «وطيبة» فقالوا بالواو لمحاذاة «أوبة». كما قالت العرب: «آتيه بالغَدَايَا والعَشايَا» مع أن الغداة لا تجمع على «الغدايا» ولكنهم أجازوه للمطابقة بين لفظتي «الغدايا والعشايا» على الإتباع، كما أن الشعراء المُفْلِقينَ الذين يُعدُّون أمراء الكلام، يقصرون الممدود، ويقدمون، ويختلسون، وهلم على ذلك جرا وسحبا؛ لكن كل ذلك كان وَفْق مرتكزات الخفة والسلامة التي ألِفَتْها نفوسهم، ونشأت عليها طباعهم، حتى صارت ملكة راسخة لديهم.

إذا ثبت بالأدلة القاطعة أن الأوائل قد يَعْدِلونَ عن الأفصح طلبا للخفة والتذاذا بالإتباع والإيقاع، فما عسانا نقول عن هذا المناخ اللغوي الفاسد الذي لم يترك لنا لا سماءً ولا أرضا إلا نشر فيه بَوْغَاء اللحْنِ. وهي حقيقة صادمة أشهر من أن تُستر وأنْ يُطوى عَنْها الكَشحُ ، ليس فقط في ما يتفوه به العامة، ولكن امتدَّ هذا الطوفان إلى حملة اليراع من الصُّحافيين والأدباء المِفَنَّين الذين يتفوهون بشائنات تسقط بهم في دركات الجهل بأسرار الفصحى، لأنهم لم يُطرِّسُوا أساليبهم وَفْقَ معهود العرب في صناعة الإنشاء، ولم يلتزموا سلامة الموقع، ولم يعنوا بكيفية رصف كل لفظة مع لِفْقِها وضريبتها، فَبَان فسادهم، وَنَشأ خَطلهم على هذه الشاكلة التي تظهر عدم تمييزهم بين صيغ الجموع المختلفة للدلالة على معنى مخصوص، مثل قولهم: «استمر الحصار ثلاثة شهور» من دون مراعاة أن العدد من ثلاثة إلى تسعة لا يكون معدوده إلا جمع قلة «أشهر» (أفْعُل) وبذلك نطق القرآن الكريم قائلا عن أشهر الحج - التي لا تنوف عن أربعة - من سورة البقرة آية ١٩٧ :﴿الحَجُّ أشهُرٌ مَعْلومَاتٌ﴾، وقوله تعالى من سورة الطلاق آية ٤ ﴿فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ﴾، وقوله تعالى من سورة لقمان آية ٢٧ ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾، وعندما تجاوز العدد تسعة، أصبح المعدود جمع كثرة (فُعُولٌ)، كما قال تعالى من سورة التوبة آية ٣٦: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾. وغيرها من الفرائد والدُّرَر التي رأيتُ جمعها وإيلافها في هذه الحلقة، لأن المجال يزداد بنوادي الكتابة ضيقا؛ مُنبِّها إلى نُبَذ من خصائص الحكمة والدقة والإرهافَ، وعلائق البراعة المودعة في الفصحى، للدلالة على غور هذه اللغة وحكمة مذاهبها في القول اللائق الموافق للمراد، مثل تمييز القرآن الكريم بين جَمْعَي «الأبرار» للآدميين و «البررة» للملائكة. وجمع «الإخوة» للقرابة الدموية و«الإخوان» للصداقة والإيمان والقرابة الدموية. و«الأعين» جمعا لحاسة البصر، و«العيون» لمنابع الماء، بينما أورد الشعراء العرب جمع «العيون» مرادا به حاسة البصر ومنابع الماء، مخالفين القاعدة التي قررها القرآن الكريم بالنسبة إلى هذين الجمعيْن. كما ميز القرآن العظيم بين لفظة «الريح» للدلالة على الشر عندما تخلو من أي صفة، ولفظة «الرياح» للدلالة على الخير. كما جعل القرآن الكريم جمع «الأيدي» مرادفا للعضو المعروف، بينما جعل الشعر العربي جمع «الأيادي» دالا على العضو المعروف تارة، وتارة أخرى على النعمة والعطاء. كما جمع القرآن الكريم لفظة «أم» للعاقلات على «أمَّهات» بينما جعل الذابرون الحذاقيون جمع «أُمَّات» لغير العاقلات من الكائنات المختلفة. كما خَصَّت العرب الخيل بصفة من صفاتها، فقالت للناس: «عَرَبٌ وأعْرابٌ» وللخيل «عِرَابٌ»، وسَمَّت المادة المستخلصة من ضرع الأنعام «لَبَنًا» وما ترضعه الأمهات من أثدائهن «لِبَانًا». كما فرقت بين جمع «الأذناب» لعامة الحيوانات وجعلت «الذنَابَى» خاصا بالفرس. كما خصوا جمع «الأندية» للمجلس الذي يكون فيه الناس، وجمع «النوادي» للنواحي والقواصي. جاء في باب الياء، فصل النون من لسان العرب: «النادي المجلس يَنْدُو إليه مَن حواليه، ولا يسمى ناديا حتى يكون فيه أهله، وإذا تفرقوا لم يكن ناديا، وهو النَّدِيُّ، والجمع الأندية... ويقال: إنه لَيَأتيني نوادي كلامك، أي ما يخرج منك وقتا بعد وقت... قال أبوعمرو: النوادي النواحي...»

هذه لمعة من آلاء الفصحى، غَزَوْتُ - قبل عَيْرٍ ومَا جَرَى - أن أنَبِّهَ إلى شعاع من شمس حكمة العربية، وأن أقطع الشك باليقين أن في العربية نفائس لا ينبغي أن نطوي كشحنا عنها، وأن السبيل إلى إبراز هذه الجواهر والفرائد واضحة المَهْيَع، إذا أحببنا لغتنا ولم نلبِسْ هذا الحب بأمشاج اللغات الأخَرِ.

«الصاوي شعلان» الأعمى الذي رأى كل شيء!

صلاح حسن رشيد - ناقد أدبي

لم تكن محنة فقد البصر؛ محنة تتوقف بسببها حياة المرء، كما لم تكن كارثة تقضي على حياة المبتلين بها من أصحاب النفوس الطموحة؛ حتى وإن شعر صاحبها بألم التهكم وسخرية الآخرين.

وقد صور شاعر النيل حافظ إبراهيم بأصدق تعبير، كيف أن هؤلاء العميان ضربوا في كل جانب من الحياة بأبلغ نموذج للنجاح، وقهر العاهة، فقال:

كم رأينا من أكمه لا يجارى
وضرير يرجى ليوم عبوس
لم تقف آفة العيون حجازا
بين وثباته، وبين الشموس
عدمَ الحسِّ قائدا فحداه
هدي وجدانه إلى المحسوس

وصدق من قبله ابن عباس رضي الله عنهما -بعد أن فقد بصره- فيما أنشد له الجاحظ من شعر يقطر بالعبقرية والتفرد:

إن يأخذ الله من عيني نورهما
ففي لساني وسمعي منهما نور
قلبي ذكي وعقلي غير ذي دخلٍ
وفي فمي صارم كالسيف مأثورٍ

وحديثنا ينصب الآن على الشيخ الصاوي علي شعلان (١٩٠١-١٩٨٢م) الذي فقد بصره صغيرا؛ فأصر على النبوغ، ومواصلة رحلة العلم، فأتم حفظ القرآن الكريم، في كُتَّاب قريته «سبك الأحد»، مركز أشمون بمحافظة المنوفية بمصر، ثم التحق بالأزهر الشريف، واجتاز المرحلة النهائية من التعليم الثانوي بسرعة لفتت الأنظار إليه، «حتى تحقق له، بجهد خارق، وإرادة حديدية الحصول على هذه الشهادة في عام واحد، وكان ترتيبه الأول على دفعته.. ثم حصل على شهادة «العالمية» وكان -أيضاً- الأول على القطر المصري» كما يقول أحمد مصطفى حافظ، في كتابه «شعراء ودواوين» الصادر عن هيئة الكتاب بالقاهرة.

وتطلعت نفسه للاستزادة، فاتجه بفكره وقلبه نحو الجامعة المصرية لتحصيل الثقافة الحديثة؛ فالتحق بمعهد الدراسات الشرقية، ونال الدبلوم العالي، وأتقن طريقة «برايل» للخط البارز، وأمكنه إتقان عدة لغات هي: الإنجليزية، والفرنسية، والألمانية، والتركية والفارسية، والأردية، وانكب على استيعاب ذخائر هذه الآداب؛ فترجم الكثير من قصائد شكسبير، وسعدي الشيرازي، وإقبال، وجلال الدين الرومي، والعطار، وطاغور، ونذر الإسلام شاعر البنغال.

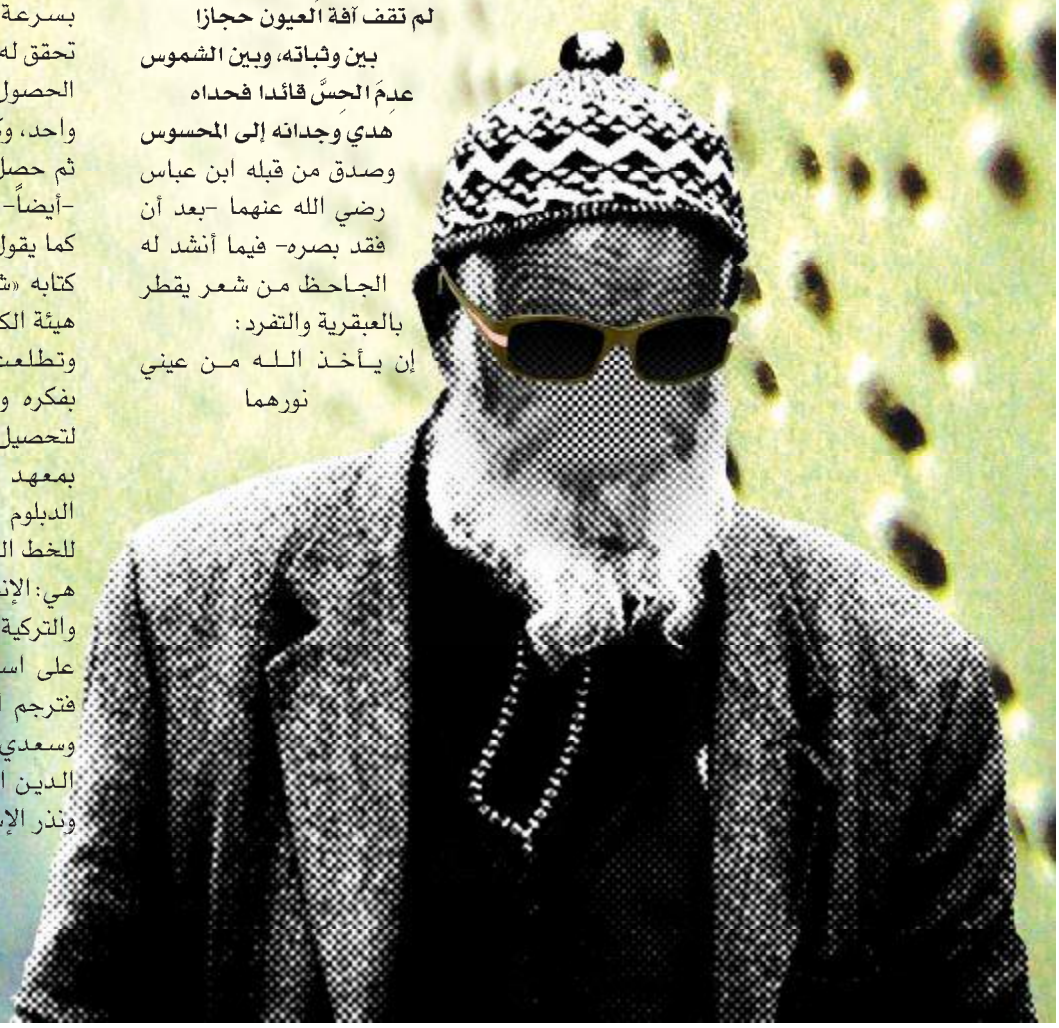

وذات مرة أتيح لكوكب الشرق أم كلثوم الاطلاع على رائعته «حديث الروح» التي ترجمها من شعر إقبال، والتي شدت بها، متعجبة من مقدرته الخارقة على جعل الشعر المترجم كأنه من بنيات أفكاره، والتي يستهلها بقوله:

حديث الروح للأرواح يسري
وتدركه القلوب بلا عناء
هتفت به.. فطار بلا جناحٍ
وشق أنينه صَدر الفضاء
ومعدنه ترابي.. ولكنـ
ـه جرت في لفظه لغة السماء

وعن ترجمة شعلان لإقبال وإعجابه بها، يقول العلامة عبدالوهاب عزام: «الذي قرأ شعر إقبال بالأردية، وعانى ترجمة الشعر نظما، يعجب كل الإعجاب بمقدرة المترجم».

قال عنه العلامة حسين مجيب المصري: «كان آية من آيات الله في دقة الفهم والذكاء، والمقدرة على إتقان اللغات، وروعة الترجمة، في ثوب عربي مبين»!

وللصاوي شعلان دور بارز في الحركة الوطنية، والنضال ضد المحتل؛ فقد كان من خطباء ثورة ١٩١٩م، وكان له وزنه وشهرته، بحنجرته القوية الهدارة. وكان الأستاذ العقاد يناديه بقوله: «يا خطيب الأمة».

ويعد شعلان من أوائل من عرفوا الناس الأمور الدينية والثقافية في محطات الإذاعة الأهلية في العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين، وبعد إنشاء محطة الإذاعة المصرية الرسمية كان من السابقين للحديث فيها.

وطالما حدثته نفسه الطموحة لتذليل العقبات أمام المكفوفين؛ فسعى جاهدا لتأليف لجنة لكتابة «القرآن الكريم» بطريقة برايل، كأول عربي يفكر في هذا الأمر، ورأس اللجنة، وكان أكبر إنجازاته على الإطلاق هو «طبع المصحف الشريف كله، بالطريقة المذكورة، التي أفاد منها الملايين».

مع هيلين كيلر!

وعندما زارت الكاتبة الأميركية المشهورة هيلين كيلر -الصماء البكماء العمياء لجمعية النور لرعاية المكفوفين بالقاهرة؛حياها شعلان بقصيدة للدلالة على قدرة الخالق جل وعلا، فقال:

رب عين لم تبصر النور يوما
أرسل الكون من هداها، الشعاعا
رب أذن لم تسمع القول لكن
حيرت من بيانها الأسماعا
هل رأيتم «هيلين» تقتحم
السبعين سنا، ولا تمل الصراعا؟
وتجوب الأقطار كالنجم في النور
وكالعطر في الربيع مذاعا

ولم يكتف الصاوي شعلان بذلك، ولم يقف طموحه عند هذا الحد، فقد سجل أطروحته للدكتوراه بجامعة القاهرة، في الخمسينيات، بعنوان «نظم ألف بيت من مثنوي جلال الرومي، مع التحليل والدراسة»، وبعد أن أنجزها، واجتمعت اللجنة العلمية لمناقشتها، ترك الشيخ الصاوي شعلان القاعة، وآثر الانسحاب في هدوء؛ لخلاف حاد بينه وبين أستاذه، ولم تشفع الوساطات لثنيه عما عقد العزم عليه، تماما كما صنع محمود محمد شاكر (أبو فهر) في الربع الأول من القرن الماضي، عندما اختلف مع أستاذه طه حسين؛ فاعتزل الحياة والجامعة!

واكتفى هذا العبقري بالعمل واعظا في مصلحة السجون، وقام بتدريس اللغة العربية في المعهد العالي للموسيقى العربية، وتعليم المناهج التاريخية بالمركز النموذجي للمكفوفين بالزيتون بالقاهرة. وأشرف على رياسة تحرير مجلة «المصباح»، واشترك في عدد من الجمعيات الخيرية، كجمعية مكارم الأخلاق، التي عمل رئيسا لتحرير مجلتها ولجنتها الدينية. وأحيل إلى المعاش في عام ١٩٦٣م، وهو بوظيفة مدير عام الوعظ والتعليم بمصلحة السجون، وأهدته مصر وسام الاستحقاق من الطبقة الرابعة، ومنحته محافظة القاهرة شهادة تقدير عام ١٩٧٢م. وللشيخ شعلان مؤلفات، منها: كتاب «والآن ماذا نصنع يا أمم الشرق»، الذي ترجمه عن إقبال، وكتاب «مختارات من مثنوي جلال الرومي» لم يطبعا حتى الآن! وله ديوان شعر بعنوان «ينابيع الحكمة» أصدرته هيئة الكتاب المصرية، ومايزال ديوانه «من وحي الإيمان» داخل مخازن الهيئة نفسها، يشكو الإهمال! وأثناء زيارته للاهور، مر بقبر محمد إقبال، فجاشت نفسه بأبيات خالدة، قال فيها:

عجبت لنجم مشرق.. وهو غائب
ومحتجب، مازال يبدو ويظهر
ولم أر نجما قط بعد احتجابه
يزيد ضياء في العيون ويبهر
سل الجوهر المكنون في باطن الثرى
متى عاد للأصداف.. قبلك جوهر!

ميار

بسام الطعان - باحث سوري

زمن طويل مضى وذكرى تلك الليلة حية في أعماقه، كلما تذكرها انتابته أحاسيس متناقضة وشعر بندم خائف طفيف، في تلك الليلة كان كعادته مع أصدقائه ورفاقه -الذين يشبهونه بكل شيء- في أحد المطاعم يقضي سهرة ليس فيها إلا السخرية والأوقات الضائعة، تاركا زوجه التي تستعد لأن تنجب مولودها البكر وحيدة تئن من آلام المخاض والولادة.

لأكثر من ساعتين وهو يضحكهم ويورد النكت والتعليقات الكثيرة، كان يسخر من هذا ويقلد ذاك، يتحدث عن هذه ويسخر من تلك، حتى صار الناس يتجنبون المرور أمامه كي يسلموا من

لسانه وحركاته الرعناء.
خرج برفقة أصدقائه من المطعم وهم يترنحون ويدخنون، في الطريق وقعت نظراته على رجل ضرير يسير في الشارع فسخر منه، وبهدوء اقترب نحوه، وما إن صار أمامه حتى وضع قدمه اليمنى أمام الضرير الذي سرعان ما تعثّر وسقط على الرصيف وهو يئن، أما هو وأصدقاؤه فكانت ضحكاتهم تملأ الشارع الخالي من المارة.
عاد إلى بيته متأخرا كعادته، وكانت زوجه التي في شهرها التاسع من الحمل ممددة وفي حالة يرثى لها، وما إن رأته حتى قالت بصوت متعب:
- أين كنت؟
ألقى بجسده على الأريكة ورد بسخرية:
- كنت في البرازيل.
نصف ساعة مرت فاشتدت آلام الولادة، وأمام صرخاتها وتوسلاتها أخذها إلى المستشفى، أدخلوها بسرعة إلى غرفة العمليات، أما هو فعاد إلى بيته وسط نظرات الاستغراب من الطبيبات والأطباء والممرضات.
في الصباح رن الهاتف، وحين طال الرنين نهض بتكاسل، وبعد ساعتين كان في المستشفى، وهناك أخبرته الطبيبة وبأسف أن المولود به تشوه في عينيه وأنه فاقد للبصر، بقي جامدا مذهولا من شدة الصدمة لدقائق، غاب في تداعيات مؤلمة، ولم يدر لماذا تذكر ذاك الضرير الذي أسقطه في الشارع.
أخذ زوجه وولده إلى البيت، لكنه بقي غير مبال بأي شيء، حتى إنه لم يفكر أن يختار له اسما، فاختارت له الأم أسم «ميار» وهي تعلم أن معنى هذا الاسم هو جالب الخير والعطاء.

كثيرا ما كان الأب ينام خارج البيت عند أحد أصدقائه ويترك زوجه وحيدة مع رضيعها تعاني الوحدة والتعب، ومع مرور الأيام صار يكره رؤية ابنه.
عشر سنوات مرت وكبر «ميار» بينما الأب لا يزال يهمل بيته وزوجه وابنه، وفي أحد الأيام وكان يوم جمعة، استيقظ عند الساعة الحادية عشرة ظهرًا، فاغتسل وتعطر وارتدى ثيابه وما إن همّ بالخروج حتى سمع صوت بكاء ابنه، فاقترب منه وسأله عن سبب بكائه، لكنه ما إن سمع صوت والده حتى ابتعد عنه بهدوء ودخل إلى غرفته وهو يتحسس الجدران وصوت حزين من داخله يصيح: الآن أحسست بي؟!
في تلك اللحظة عادت الأم من السوق وحين سألها عن سبب بكائه أخبرته بأنها هي السبب لأنها تأخرت أن تأخذه إلى المسجد، وأخبرته أيضا بأنه منذ خمس سنوات لم يتخلف يوما واحدا عن الصلاة في المسجد.
بقي صامتا للحظات، تغير فيه شيء ما، نسي الدنيا ومن فيها ولم يتذكر غير ابنه، وفجأة سقطت الدموع من عينيه، دخل إلى غرفة ابنه فوجده مرميا على سريره، ينتحب بصمت، فلم يتمالك نفسه، ارتمى فوقه، مسح دموعه وراح يزرع القبلات على خديه، وكانت هذه أول مرة يقبّل ولده:
- لا تحزن يا بني، منذ الآن سآخذك بنفسي إلى المسجد كل يوم.
لم يصدّق الصغير ما سمع، ظنّ أن والده يسخر منه وظل يبكي، لكنه صدق حين صار مع والده في المسجد.
لم يتذكر الأب متى كانت آخر مرّة يدخل فيها المسجد، لكنها كانت المرّة الأولى التي يشعر فيها بالخوف والندم على السنوات الضائعة من عمره.
بعد انتهاء الصلاة طلب منه الابن مصحفًا، فاستغرب وتساءل في داخله: كيف سيقرأ وهو أعمى؟! كاد يتجاهل طلبه، لكنه جامله خوفا من جرح مشاعره، ناوله المصحف، فطلب الابن من والده أن يفتح له على سورة الكهف.
بدهشة لا توصف أخذ الأب يقلب الصفحات تارة وينظر في الفهرس تارة أخرى حتى وجدها.
بدأ الصغير يقرأ سورة الكهف بصوت يشبه رنين أجراس الفضة، بينما الأب يستمع بخشوع ولا يصدق أن ابنه الضرير يستطيع القراءة بهذه السهولة وبهذا الجمال، فجأة اغرورقت عيناه بدموع سخينة، ولم يعرف إن كانت دموع الفرح أم الحزن، ظل يبكي بصمت ولم يشعر إلا بيد صغيرة تتلمس وجهه ثم تمسح دموعه.. إنه ابنه، فلم يتمالك نفسه، ضمه إلى صدره، نظر إليه نظرة كلها عطف.. حنان.. إعجاب.. شوق.. ومع الدموع قال:
- لستَ الأعمى يا بني، بل أنا كنت الأعمى حين انسقت وراء ملذاتي ولامبالاتي.
عاد إلى البيت وهو يشعر بأنه بات يملك الدنيا كلها، ولم تفته بعدها صلاة في المسجد، بعد أن هجر رفاق السوء وأصبحت له رفقة خيّرة عرفها في المسجد، وأهم رفيق كان ميار الذي جلب له الخير والعطاء بتوفيق الله، والذي أنقذه من الضلال، ويوما بعد يوم، راح يذوق طعم الإيمان، وصارت الابتسامة لا تفارق وجهه ولا وجه ميار ولا وجه زوجه.

لغة وأدب

الألفاظ والعبارات الدينية في العربية المعاصرة

د.علاء عبدالمنعم إبراهيم - باحث أكاديمي

امتازت اللغة العربية بميزة خاصة ميزتها عن غيرها من اللغات، وهي ارتباطها الحيوي بالنص الديني المتمثل في النص القرآني، بحيث غدا هذا النص المقدس دينيا هو ذاته النص المقدس على المستوى اللغوي والبلاغي، باعتباره النموذج الأكمل الذي استخدمت فيه اللغة، ولهذا يشكل كتاب «العبارات الدينية في العربية المعاصرة» للدكتورة مروة مصطفى- وبتقديم الأكاديمية الشهيرة د.إيمان السعيد جلال - الصادر عن مكتبة الآداب بمصر، إحدى المحاولات الرصينة للبحث في حدود تغلغل النص الديني في سياق اللغة العربية المعاصرة.

توضح المؤلفة في بداية عملها أنها هدفت من وراء دراستها إلى تبيين دلالة الألفاظ والعبارات الدينية المستعملة في اللغة العربية المعاصرة (ممثلة في لغة الصحافة المصرية سنة ٢٠٠٦) وتطورها لتبين ما وقع من تطور في دلالة هذه الألفاظ والعبارات عبر عصور اللغة المختلفة،

من خلال نماذج من الاستعمال اللغوي في هذه العصور، بداية من عصر ما قبل الإسلام ومرورا بالعصر الإسلامي وما وقع فيه من تحول مهم بنزول القرآن الكريم واكتساب الألفاظ التي كانت مستعملة من قبل مفاهيم جديدة من العلوم الإسلامية، أو استخدام ألفاظ وعبارات جديدة تتفق مع المفاهيم الإسلامية. ثم ما وقع في العصور التالية من تثبيت لهذه الدلالة أو توسيع أو تضييق أو خروج بها إلى دائرة المجاز، وهكذا حتى نصل إلى عصرنا الحديث لنتبيّن كيفية استعمال هذه الألفاظ والعبارات، وهل بعُد بها الاستعمال عن أصولها أو ثبّت هذه الأصول. ولا تكتفي الدراسة بهذا، بل تمتد إلى ما استحدث من ألفاظ، وما اقترض من لغات أجنبية، وتحاول تأصيلَه ورصد دلالاته في سياقاته، وما آل إليه بفعل التطور الدلالي.

وقد اعتمدت الدراسة على مادة صحفية متنوعة تشمل أخبارا وأحاديث وتحقيقاتٍ وتقاريرَ ومقالاتٍ صحفية، وهي مادةٌ مستمدة من أربعِ صحف مصرية، يومية وأسبوعية، تمثل اتجاهات مختلفة تنعكس في استعمالها اللغوي وهي: جريدة الأهرام (قومية)، وجريدة الدستور (مستقلة معارضة) وجريدة العربي الناصري (حزبية يسارية معارضة) وجريدة الوفد (حزبية معارضة) وذلك على مدى عام كامل هو عام ٢٠٠٦.

الألفاظ.. دراسة ونتائج

يتكون الكتاب من بابين، فضلا عن التمهيد الذي تناولت فيه المؤلفة الحديث عن المصطلح: سماته وشروطه وطرق وضعه، والمصطلح الديني: نشأته وتطوره، ونظرية الحقول الدلالية، والتطور الدلالي: أسبابه وأشكاله، والتقسيم التاريخي للعصور. ويشتمل الباب الأول وهو مخصص لدراسة الألفاظ على سبعة فصول تضم خمسة وسبعين لفظا، وقد وزعت على الفصول وفقا للمجال الدلالي الذي تنتمي إليه. فجاء فصل ألفاظ العقيدة مشتملا على ثمانية ألفاظ هي: الإله- التوبة- الزبانية- الشرعية- العقيدة- الكفر- الموبقات- الوحي. وجاء فصل ألفاظ العبادات مشتملا على تسعة ألفاظ هي: الأذان- التسبيح -الحج - الركوع - السجود- الصلاة- الصوم- الطهارة- القبلة. وجاء فصل ألفاظ المعاملات مشتملا على تسعة ألفاظ هي: التبني- الجزية- الحجر- الخلع - الزواج - الطلاق- القصاص- الكفارة - المحرم. وجاء فصل ألفاظ علم مصطلح الحديث مشتملا على تسعة عشر لفظا هي: الآحاد- الإجازة- الاعتبار- التدليس- السند- الشاذ- الصحيح- العدالة- المتابعة- المتصل- المتن- المتواتر- المدرج- المرسل- المرفوع- المسلسل- المشهور- المعلق- المقلوب. وجاء فصل ألفاظ علم أصول الفقه مشتملا على اثني عشر لفظا هي: الاجتهاد- الإجماع- الأجنبي- الإقرار- التقليد- التكليف- التلفيق- الحرام- الذريعة- الرخصة- السنة- الفقه. وجاء فصل ألفاظ الصوفية مشتملا على ثمانية ألفاظ هي: الاعتصام- التلوين- الجبروت- الرياضة- الصفوة- القطب- المريد- النقيب. أما فصل الألفاظ اليهودية والمسيحية فاشتمل على عشرة ألفاظ هي: الإنجيل- البركة- الخطيئة- الخلاص- القديس- القربان- المذبح- الكاهن- الهيكل- اليوبيل. وقد استدعى هذا التوزيع مقدمة تسبق كل فصل تتحدث باختصار عن ماهية العلم أو الحقل الدلالي الذي تنتمي الألفاظ إليه.

ونلاحظ أن المؤلفة استعانت في هذه الدراسة بالهيكل الخماسي للتقسيم الذي ذكره الدكتور محمد حسن عبدالعزيز في كتابه المعجم التاريخي- وهو التقسيم الذي تعمل به لجنة المعجم التاريخي- وهو كالآتي:

العصر الجاهلي: عصر استواء اللغة العربية الفصحى المشتركة بين قبائل شبه الجزيرة العربية، فيما يعرف بلغة الشعر الجاهلي الذي يرجع أقدمه إلى ما قبل الإسلام بنحو قرنين. العصر الإسلامي: من ظهور الإسلام إلى سقوط دولة بني أمية ١٣٢هـ/٧٥٠م.

العصر العباسي: من بداية دولة بني العباس١٣٢هـ، حتى انهيارها وسقوط بغداد ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م. عصر الدول والإمارات: من نهاية العصر العباسي حتى نهاية الدولة العثمانية، مع ظهور الاستعمار الأوروبي للعالم العربي في القرن التاسع عشر. عصر النهضة الحديثة من ولاية محمد علي بمصر ١٢٢٠هـ/ ... حتى اليوم.

توصلت المؤلفة إلى عدد من النتائج تتعلق بالألفاظ، منها أن الألفاظ انقسمت إلى ألفاظ عربية أصيلة، وبلغ عددها ثلاثة وخمسين لفظا. وألفاظ المشترك السامي، وبلغ عددها واحدا وعشرين لفظا. والألفاظ المقترضة من اللغات الأخرى، ولم يرد سوى لفظ واحد (إنجيل) مقترض من اليونانية. وبلغت حالات التخصيص الدلالي للألفاظ التي استُعملت قبل الإسلام أو بعده ثم أصبحت مصطلحات إسلامية عند استقرار العلوم الإسلامية واحدا وثلاثين مصطلحا. بلغ عدد الألفاظ

التي استُعملت قبل الإسلام وظلت مستخدمة بدلالتها بعد ذلك عشرة ألفاظ. بلغت حالات الاتساع الدلالي للألفاظ التي خضعت للدراسة في الصحافة المعاصرة: خمسة وخمسين لفظا، كما بدا أن هناك ألفاظا تخصصت دلالتها حين أصبحت مصطلحات دينية، مثل: أذان، تسبيح، حج، ركوع، زواج، سجود، سند، سنة، صلاة، صوم، طهارة، قبلة، كفر، محرم. ومن أمثلة ذلك: لفظ «الأذان» فمادة أذن مستعملة في العربية منذ عصر ما قبل الإسلام.

السنة المقدسة

أما لفظ «اليوبيل» على سبيل المثال فهو في اصطلاح العهد القديم يعني السنة المقدسة، وهي تقع كل خمسين عاما، وفيها يتم التحرير لكل سكان الأرض. على نحو ما جاء في العهد القديم في سفر العدد «وإذا حانَت سنَةُ اليوبيلِ لبَني إسرائيلَ، حينَ تُستَرَدّ جميعُ الأملاكِ المُباعةِ إلى مالكيها الأصليِّينَ، يُزادُ ميراثُ بناتِ صَلُفْحادَ على ميراثِ السِّبْطِ الذي يتزَوَّجنَ منهُ ويسقُطُ ميراثُهُنَّ مِنْ ميراثِ سِبْطِ آبائِنا». وبالنظر في السياق الذي ورد اللفظ فيه في الصحافة المعاصرة «من يحتفل بعيد النصر الذي هو عيد الانتصار في ١٩٥٦؟ هو عيد بورسعيد فعلا، ولكنه أيضا نصر مصري... والاحتفال بيوبيل ٥٠ سنة الذهبي يجب أن يكون احتفالا قوميا ويجب أن تشارك فيه الدولة». يتبين أن لفظ يوبيل استخدم بمعناه الاصطلاحي ولكن بعد توسيعه دلاليا؛ حيث استعير اللفظ بمعناه الاصطلاحي ثم أصبح يستخدم بمعنى ذكرى مرور عدد من السنوات على حدث معين بدلا من إطلاقه على السنة الخمسين عند اليهود، كما تم تحديد فترة الاحتفال بمرور عدد من السنوات هي في الغالب (٢٥- ٥٠- ٧٥- ١٠٠) بدلا من خمسين فقط.

العبارة الاصطلاحية والتعبير السياقي

أما الباب الثاني فيشتمل على مدخل نظري يتناول العبارة الاصطلاحية والتعبير السياقي، وينقسم الباب إلى فصلين يحتويان على العبارات الدينية، وعددها ست وثلاثون عبارة، وقد اشتمل الفصل الأول على العبارات الإسلامية، وعددها تسع وعشرون منها: آتت أكلها- أخذته العزة- أساطير الأولين- أسرها في نفسه- اشتعل الرأس شيبا- أضعف الإيمان- أهل الكهف، واشتمل الفصل الثاني على العبارات اليهودية والمسيحية وعددها سبعة تعبيرات منها: الأب الروحي- الثالوث المقدس- الزواج الكاثوليكي- صك الغفران.

وقد توصلت الدراسة إلى عدة نتائج تتعلق بالتعبيرات منها: اشتمل هذان الفصلان على ستة وثلاثين تعبيرا دينيا، منها تسعة وعشرون تعبيرا إسلاميا وهي: آتت أكلها- أخذته العزة- أساطير الأولين- أسرها في نفسه- اشتعل الرأس شيبا- أضعف الإيمان- أهل الكهف- أوغلوا فيه برفق- بشق الأنفس- بلغ من الكبر عتيا- جعلنا عاليها سافلها- خاوية على عروشها- سنوات عجاف- صبر أيوب- ضاق ذرعا بـ- على استحياء- غض البصر- قاب قوسين أو أدنى- قاعا صفصفا- القول الفصل- كبش فداء- كن فيكون- لا يقيم وزنا- لم تغن عنهم من الله شيئا- ما أنزل الله بها من سلطان- مالا لبدا- موتوا بغيظكم- وضعت الحرب أوزارها- وقعت الواقعة. ومنها سبعة تعبيرات يهودية ومسيحية وهي: الأب الروحي- الثالوث المقدس- الزواج الكاثوليكي- صك الغفران- قدس أقداس- ورقة التوت- الوصايا العشر.

كانت أغلب التعبيرات الإسلامية مستمدة من القرآن الكريم. كما جاء تعبيران مستمدين من القصص القرآني، وهما: أهل الكهف وصبر أيوب. فهذان التعبيران لم يردا نصا في القرآن الكريم. كما كان تأثير الحديث الشريف واضحا في التعبيرات، حيث ورد تعبيران مستمدين من الحديث الشريف وهما: أضعف الإيمان، وأوغلوا فيه برفق.

التعبيرات اليهودية والمسيحية مستمدة من الكتاب المقدس، باستثناء التعبيرين: صك الغفران، والزواج الكاثوليكي، فهما تعبيران مستحدثان في العقيدة المسيحية.

كان للمجاز دور كبير في توسيع دلالة بعض التعبيرات المستخدمة في الصحافة المعاصرة.

وفي الختام يمكننا أن نقول إن كتاب «العبارات الدينية في العربية المعاصرة» يحقق جملة من الأهداف منها: دعم الدراسات اللغوية المهتمة ببحث الاستخدام اللغوي في مجالات الحياة المختلفة. والكشف عن ثراء الفصحى في مفردات المجال الديني ومصطلحاته وعباراته. والكشف عن الاستعمال الخاص لهذه المادة اللغوية في مجالات الحياة المتنوعة -غير الدينية- وفي أنواع مختلفة من المادة الصحفية.

أُمَّاه

شعر : علي جمعة الكعود

أماه.. ماذا أقول؟
والشعر طفل خجول
طال الحنان قلوبا
ولم تطله العقول
لولاك عمري شتات
وعالمي.. مجهول
فلا ربيع وخصب
ولا غد مأمول
أوصى بك الرب أمي
وفي الحديث الرسول
يا قمة من حنان
صعب إليها الوصول
حط الغمام عليها
فما توانى هطول
وأينع القلب حبا
وعانقتني الحقول
أماه مذ كنت طفلا
على الأكف أجول
وما يزال بسمعي
كلامك المعسول

إذا جفاني منام
وخاصمتك الحلول
فللقماط حديث
وللمهاد طلول
أنت الربيع بعمري
فما عساي أقول؟
وقد نعمت بدفء
قد باركته الفصول
وللمشيمة حبل
بمهجتي موصول
يروي حكاية عشق
لها بقلبي أصول
أماه همسك عطر
بنسمة محمول
تستاف منه بحار
أريجها وسهول
من زهرة لسواها
مضمخ منقول
أدعو لعمرك أمي
والعمر حبا يطول

مختصر تاريخ العالم

بهيج بهجت سكيك- كاتب فلسطيني

أصدر المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بدولة الكويت- ضمن سلسلة الكتب الثقافية الشهرية «عالم المعرفة» العدد (رقم ٤٠٠) في مايو عالم ٢٠١٣م وكان قد صدر العدد الأول من هذه السلسلة في يناير ١٩٧٨م- كتابًا بعنوان «مختصر تاريخ العالم من تأليف «أي إتش غومبرتيش» «E.H.Gombrich» الألماني الأصل الذي ولد في فيينا بالنمسا، ثم البريطاني الجنسية والإقامة، فيما بعد، قام بترجمة هذا الكتاب من الإنجليزية إلى العربية د.ابتهال عبدالعزيز الخطيب، وراجعه د.عبدالله هدية أستاذ العلوم السياسية بجامعة الكويت.

قدمت هيئة التحرير للكتاب على صفحاته الأولى وعلى غلافه الأخير بأن هذا العدد الـ (٤٠٠) يبدو مختلفًا شكلًا وإخراجًا.. انسجامًا مع سنة الحياة واستجابة لمقتضيات المنافسة الحتمية بين الكتاب ومختلف وسائط الاتصال والإعلام من ناحية أخرى.. فهو يستهدف القارئ الصغير ويخاطب العقل الجمعي للناشئة العرب.. حيث إن المؤلف عمد إلى أسلوب التشويق في عرض المعلومات واستخدام لغة مبسطة، لأنه موجه إلى فئة عمرية صغيرة، ما بين الثمانية والثمانية عشر عامًا.. ليأتي النص سلسًا وجميلًا وجذابًا، ليس للصغار فقط، بل كذلك للكبار الذين يتطلعون إلى لمحة تاريخية بسيطة للزمن البشري، كما كتبت المترجمة في مقدمتها.

يقع الكتاب في (٣٥٠) صفحة من القطع المتوسط، ويضم بين دفتيه (٤٠) فصلًا، لم يتجاوز أطولها في عدد صفحاته الـ(١٥) صفحة، ورُود كل فصل من هذه الفصول برسم بالقلم الأسود يعبر عن موضوع هذا الفصل، وأجمل ما فيه أن هذه الرسوم المعبرة موحدة جميعها في حجمها وأبعادها، وتكون دائمًا في الصفحة الثانية للفصل.. إخراج ذكي وجميل، كما زُود في بعض فصوله بخرائط ذات صلة بالموضوع باللغة الإنجليزية، قامت المترجمة بعمل قائمة بالأسماء والمفاهيم، وترجمتها إلى العربية، ووضعتها أمام كل خريطة كمفتاح للخريطة، ليستدل بها القارئ، مثل رحلات الفينيقيين في منطقة الشرق الأوسط (ص٥١)، وخريطة حروب الإغريق والفرس (ص٧٥)، وخريطة فتوحات الإسكندر المقدوني لنصف العالم (ص١٠٧)، وخريطة حروب «هانيبعل» (ص١١٧)، وخريطة حدود إمبراطورية الروم (ص١٣١)، وخريطة حروب المغول، وخريطة رحلة كولومبوس لاكتشاف العالم الجديد... وغيرها.

في يوم من الأيام

عنوان الفصل الأول.. يبدأ المؤلف مع بداية الحياة قاصًا الحكاية من أولها، مؤكدًا أنه في الواقع لا أول لهذه الحكاية، فلكل بداية بداية أخرى أقدم منها، فخلف كل «يوم من الأيام» التي نبدأ بها قصصنا لأطفالنا هناك أخرى.. استعرض في هذا الفصل قصة الخلق من وجهة نظره.. خلق الجبال والحيوانات التي تختلف تمامًا عن حيوانات الحاضر.. عن الديناصورات.. بل ذهب إلى حين كانت الأرض ليست أكثر من سحابة غازية غبارية دوارة ليصل إلى خلق البشر.

وفي الفصل الثاني يناقش تحليل بقايا هياكل الإنسان العظمية في هيدلبرغ بألمانيا وجمجمة إنسان «نياندرتال»، ومتى عاش هؤلاء البشر، وكيف كانوا يعيشون، وأسماهم «بشر ما قبل التاريخ»، وتكلم عن العصور الجليدية، ثم العصور الحجرية والفخارية، واكتشاف النار، وعصر المعدن (النحاس ثم البرونز)، سبيكة النحاس والقصدير، وقد صنع منها الإنسان «الخوذات والسيوف والفؤوس والمراجل والأساور والقلادات» وغيرها، إنه يعتبرهم أعظم المخترعين على مر العصور.

وفي الفصل الثالث.. يتناول قصة بداية الحضارة والاستقرار في مصر على وادي النيل الذي عبده المصريون، وبناء الأهرامات «أضرحة الملوك»، وطريقة حفظ أجساد الموتى و«المومياوات»، واختراع الكتابة والورق من نبات البردي «Papyrus» والذي اشتق الأوربيون منه اسم الورق «paper»، وكيف أن هذه الحضارة عاشت أطول من أي حضارة أخرى، وقارن بين الهيروغليفية والمسمارية في بلاد الرافدين، ثم تطرق إلى تسميات أيام الأسبوع: السبت من Saturn والأحد sun من الشمس.

أما الفصل الخامس فيقارن فيه بين الديانات القديمة عند الفراعنة والبابليين والفينيقيين والديانة اليهودية التي ظهرت بعد ٧٠٠ سنة من حكم حمورابي في بابل و٢١٠٠ سنة بعد حكم الملك مينا.. وتدهور أحوال اليهود بعد حكم الملك سليمان وانقسامهم، ثم يعود فيبرر أن كثرة الكوارث المتعددة التي أصابت اليهود جعلتهم أشد

أيمانًا، مؤكدًا أن الخلاص لهم سيأتي في صورة المسيح.

وفي الفصل السادس يسرد قصة الحروف الهجائية وكيف أن الفينيقيين هم الذين اخترعوا هذه الحروف، بل اخترعوا مقاطع صوتية كاملة.

ومن الفصل السابع حتى التاسع عشر عرض الكاتب لحضارة الإغريق وصراع أثينا وإسبرطة، وأصلهم من قبائل شمال أوروبا، وكيف بنوا هاتين المدينتين، وصراعهم مع الفرس في معارك عدة (ليرموبيلاني، بلاتايا، ماراثون، سلاميس)، ومن معركة «ماراثون» اشتق اسم مسابقة عالمية رياضية، وقارن بين أثر إسبرطة- رماحهم وأسلحتهم- حيث كانوا يقتلون الطفل فور ولادته إذا كان يبدو ضعيفًا وغير متوقع أن يصبح محاربًا، وبين أزاميل أثينا وفلاسفتها، وانتقل إلى حضارة الهندوس والبراهماتيين، ثم «بوذا» وأثره على العالم، إذ يبلغ عدد البوذيين اليوم في العالم ما يقارب عدد المسيحيين.

في الصين

وعن الصين هذه الحضارة العظيمة والتي حكمتها سلالة من الملوك والأباطرة لمدة تزيد على ١٠٠٠ سنة والتي اشتق اسمها من اسم أحد أباطرتها «شيه وانج» والتي عرفها العالم في البداية من خلال مصنوعات رقيقة من الصلصال الملون (البورسلان) والتي عرفت فيما بعد بـ«الصيني china» وما تزال تحمل الاسم نفسه، وأفرد صفحات عديدة لـ«كونفوشيوس»(كونج فو) وتعاليمه وأثرها على البشرية، وقارنه مع «بوذا» وتعاليمه، وخلص إلى أن أتباع «كونفوشيوس» يكادون يتساوون مع عدد من المسيحيين في العالم، ثم تطرق إلى تشابه «عائلة اللغات الهندية المتعددة مع لغات الفرس والإغريق والتي أصبحت تسمى اليوم اللغات الهندو-أوربية» «Indo-Eouropean».

كما نشر خريطة لفتوحات الإسكندر المقدوني في الشرق (فارس والهند

ومصر)، وبناء مدينة الإسكندرية (هناك اليوم ٢٣ مدينة في العالم تحمل اسم الاسكندرية)، ثم أسهب في شرح حضارة الرومان وأشراف روما، والماضي المجيد لمدينتهم واتساعها غربًا حتى «بلاد الغال» (فرنسا اليوم) حتى عرف البحر المتوسط بـ«بحر الروم»، وشرح منجزات الرومان (القانون والزراعة والوقت)، حيث نظموا التقويم والأيام وأعطوا الأشهر أسماء ملوكهم وآلهتهم.. يوليوس قيصر (يوليو)، وأغسطس صار له شهر باسمه.. واعتبر الرومان امتدادًا لحضارة الإغريق.. حكم أغسطس من فترة ٣١ ق.م إلى ١٤ ميلادية، أي إنه عاصر السيد المسيح، وقد اضطهد الرومان المسيحيين في بداية الدعوة إلا أن عددًا من الرجال والنساء بدأوا يؤمنون بـ«البشرى»، وتحملوا العذاب الذي تحمله المسيح، وصار منهم «قديسون» و«رهبان»، وأشار إلى اضطهاد اليهود أيضًا على يد الرومان وتدمير هيكل اليهود على يد الإمبراطور «تيتوس» سنة (٧٠) بعد الميلاد، وتشريد اليهود في الجهات الأربع.. ولم ينس أن يشير إلى حرق روما على يد «نيرون» ثم المشاكل التي واجهت الإمبراطورية الرومانية وانقسامها إلى دولتين عام (٣٩٥م)، وأسس قسطنطين في بيزنطة مدينة القسطنطينية التي عرفت فيما بعد باسم إسطنبول (الآستانة) بعد الفتح الإسلامي العثماني لها، وصارت الإمبراطورية الرومانية الغربية- التي عاصمتها روما- تضم كُلًا من إيطاليا- الغال (فرنسا)- إسبانيا- شمال إفريقيا، ويتكلم الناس فيها اللغة اللاتينية، أما الإمبراطورية الرومانية الشرقية المكونة من مصر، وفلسطين، وآسيا الصغرى، وبلاد الإغريق، ومقدونيا، فيتكلمون الإغريقية.

العاصفة

العاصفة عند الكاتب جاءت من الشرق مع قبائل الهون (HUN)، وهم قبائل وشعب مرتحل كان يعيش عند نهر (الفولجا) في أوروبا، وعبروا نهر الراين، وكان منهم السوابيول والفراكيون والألمانيون والغاليون الذين استوطنوا إسبانيا، واشتق اسم «الاندلس» (VAANDAL) وكان ملكهم «اتيلا» عام (٤٤٤) الذي احتل نصف العالم المعروف في ذلك الوقت، لم يكن يهمه الذهب والفضة بل السلطة، ولم يتصدّ له سوى البابا «ليو» بابا روما حيث مات اتيلا عام ٤٥٣، وصار المؤرخون بداية من العام ٤٧٦ يؤرخون لبداية ما عرف بـ«العصور الوسطى» حين عزل آخر أباطرة روما «رومولوس أغستولوس» ليصعد نجم الإمبراطورية البيزنطية، وحاضرتها القسطنطينية في عصر الإمبراطور «جستنيان» الذي بنى كنيسة «أيا صوفيا» الشهيرة.. لقد طرد حكام الإمبراطورية الشرقية من إيطاليا على يد شعوب اللوبارد القادمة من الشمال، ولا تزال مناطق من إيطاليا تحمل اسم «لمبارديا» إلى اليوم.

سميت العصور التي تلت انهيار الإمبراطورية الرومانية باسم «العصور المظلمة» لانتشار الجهل والخرافات، ولأن البيوت كانت صغيرة ومظلمة.

محمد رسول الله

«لا إله إلا الله.. محمد رسول الله» عنوان الفصل العشرين من الكتاب عن الإسلام

والمسلمين والحضارة الإسلامية.. اختزله الكاتب في (٨) صفحات فقط، وكمعظم الكُتاب الغربيين قرن الكلام عن المسلمين بالصحراء الحقيقية، والحارة، والترابية، والرملية التي تقطعها قوافل الجمال، محملة بالبضائع، بعضهم ينهبون بعضًا، ويحاربون بعضهم، قبيلة ضد قبيلة.. وتناول سيرة الرسول ﷺ: نسبه الشريف، وزواجه من خديجة، وصفاته، وقدرته على الحوار، واعتكافه في الغار، ونزول الوحي، والدعوة، والهجرة إلى المدينة (١٦ يونيو ٦٢٢م)، وتأسيس الدولة الإسلامية.

التسليم بإرادة الله

«الجنة والنار وكلمات الوحي المرسلة»، القرآن، وفتح مكة، والتحرك إلى البلاد المجاورة، تحت قيادة خلفاء الرسول ﷺ أبي بكر وعمر، وكأن محمدًا ﷺ قد ألقى شرارة على الخريطة المتوهجة للعالم المعمور في ذلك الوقت.. وفتح إسبانيا (الأندلس) ليصل المسلمون إلى مملكة الفرانكيين، لقد استطاع «شارل مارتل» هزيمة العرب ووقف زحفهم في معركة فاصلة هي «تور» أو «بواتيه» (بلاط الشهداء) عام ٧٣٢م أو تحديدا بعد مائة سنة من موت الرسول ﷺ، وكأن تاريخ المسلمين قد توقف عند هذا التاريخ ولأنهم ابتعدوا عن عبادة الأصنام فقد زينوا قصورهم المترفة بالنقوش والرسوم والخطوط المتعددة الألوان، فيما عرف بـ«الأرابيسك»، وأشار إلى أنهم اقتبسوا من الروم والفرس والهنود والإغريق إلا أنه اعترف بأنه ممتن للعرب في أمرين فقط.. الأول: هو كتاب «ألف ليلة وليلة». والأمر الثاني: هو كتابة الأرقام والأعداد والصفر أمام هذه الأرقام، مما سهل عملية الحساب، وقارن ذلك بالأرقام الرومانية، ثم عاد واعترف بفضل آخر هو أثرهم في تقدم العلوم التي مازالت تحمل أسماء عربية مثل الجبر (ALGBRA) والكيمياء (Chemistry) والورق (paper) المصنوع من ورق البردي (papyrus) وأميرال «أمير البحر» Admiral.

من شارلمان إلى هتلر

من شارلمان- حفيد شارل مارتل الذي طرد العرب وأوقف زحفهم من بعض الأراضي الفرنسية، زحف إلى إسبانيا اليوم (الأندلس) وطرد العرب من بعض أجزائها، واتخذ من مدينة «آخن» عاصمة له، يستقبل السفراء في كامل أبهته، وكان مهتمًا بكل ما هو ألماني حيث كان هدفه تجديد عظمة وقوة الإمبراطورية الرومانية القديمة.. ثم انتقل الكاتب إلى عصور الإقطاع أو عصور الفروسية، كما يسميها، والتي بدأت في زمن هنري الرابع ملك ألمانيا، وشرح حياة الفرسان والقلاع والحصون التي سكنوها والأقبية التي يضعون فيها سجناءهم.

تغيرت أوروبا

خلال المائة سنة التي أعقبت الحملات الصليبية على المشرق من ١١٩٥م تقريبًا إلى ١٢٩١م تخلصت أوروبا من حكام الإقطاع الذين ماتوا في هذه الحروب، وعرفت أوروبا الحضارة الإسلامية عن قرب من بلاد الشام، وتعرفوا إلى علومهم وصناعتهم وفنون الزراعة ونقلوها إلى أوروبا ليبدأ عصر جديد عرف بعصر «النهضة الأوروبية»، وظهرت النقابات المهنية لتحمي العمال، وأخذت إيطاليا الجانب الفني (النحت والتصوير والقانون والبناء)، وإنجلترا ما عرف بـ«الثورة الصناعية» أو الانقلاب الصناعي، وأخذت ألمانيا الجانب الديني، وتصحيح مسيرة الكنيسة، وظهور طوائف جديدة. وظهرت أسماء ما نزال نرددها إلى اليوم «ليوناردو دافنشي» و«مايكل أنجلو» في إيطاليا، و«جوتنبرج» والطباعة المتحركة في ألمانيا وأسماء «لوثر» و«كالفن» و«زوينغلي» الذين تصدوا للكنيسة الكاثوليكية.

وفي بريطانيا «جيمس وات» الاسكتلندي واختراعه الآلة البخارية، و«جورج ستيفينسن» الذي اخترع أول قاطرة بخارية، و«جون كاي» مخترع النول الميكانيكي أو «المكوك الطيار» الذي سهل عملية النسيج، ولكن ذلك أدى إلى الاستغناء عن كثير من العمال.

إن عصر النهضة (Renaissance) الذي امتد حوالي ثلاثة قرون، ونقل أوروبا إلى العصور الحديثة غيّر وجه الأرض وما عليها من حجر وبشر.

كولومبوس

يرى الكاتب أن ما يسميه «تاريخ العالم» هو في الواقع لا يزيد عن تاريخ نصف العالم- قبل اكتشاف الأميركتين واستراليا- لأن معظم الأحداث التي سردها وقعت حول منطقة البحر الأبيض المتوسط في مصر، وفلسطين، ومنطقة الرافدين، وآسيا الصغرى، وبلاد الإغريق، وإيطاليا، وإسبانيا، وشمال إفريقيا، أو غير بعيدة عن هذه المناطق في ألمانيا، وفرنسا، وبريطانيا، مع نظرة سريعة باتجاه الشرق- إمبراطورية الصين والهند- ولم تهتم أوروبا بما يقع في غربها.. وهو بذلك يمهد للكتابة عن حركة الكشوف الجغرافية، بداية من اعتباره مشروعًا خطيرًا على الورق مرورًا بـ«كريستوفر كولومبوس» الملاح الإيطالي المهووس بهذه الفكرة وإقناعه ملكي إسبانيا (إيزابيلا وفرديناند) اللذين انتصرا على المسلمين وطردوهم من الأندلس، ليكون من سوء الطالع أن هذا العام (١٤٩٢م) الذي طرد فيه المسلمون من الأندلس هو العام نفسه الذي اكتشف فيه العالم الجديد (١١ أكتوبر ١٤٩٢م) حيث خرج بثلاث سفن متهالكة وفرها له الملكان ليصل إلى الحلم.. إلى الهند.

دين جديد وعصر جديد

في هذه الفصول ٢٩، ٣٠، ٣١ يستعرض المؤلف الصراع بين الكنيسة وغير الراغبين في تصرفات رجال الدين والبابا.. ودور «لوثر» ابتداء من الأعوام ١٤٠٠م وظهور «البروتستانت» (المحتجين)، على هذه التصرفات بتشجيع من هنري الثامن ملك

إنجلترا الذي أعلن انفصاله عن كنيسة روما سنة (١٥٣٣م)، واستمر هذا الصراع من عام (١٦١٨م) مدة (٣٠ سنة).. قرى كاملة أحرقت، ومدن نهبت، ونساء وأطفال خطفوا.

خصص الكاتب فصولا عن الإمبراطورية العثمانية وتوسعها في أوروبا حتى وصولهم إلى فيينا عاصمة النمسا وحصارهم لها عام (١٦٨٣م) تحت قيادة الوزير الأعظم مصطفى باشا، وتصدرت لهم قوات من النمسا وألمانيا وبولندا، وتمكنوا من دفع القوات العثمانية بعيدًا عن فيينا.

ولأول مرة يأتي على ذكر روسيا التي كانت عبارة عن مساحات برية شاسعة من الغابات والسهوب العظيمة، ودور القيصر الرهيب «إيفان» ١٥٨٠م وتصديه للتوسع العثماني ثم دور «بيتر العظيم» (بطرس الأكبر) وقارنه مع «نيرون» حارق روما في بربريته وولعه بشرب الخمر، ولكنه بدأ يصوغ ويشكل إمبراطورية على طراز الدول الأوروبية مثل فرنسا، وإنجلترا، والإمبراطورية الألمانية، وكتب عن إمارة بروسيا ووضعها في عهد فردريك الأول ١٦٤٠م.

الفاتح الأخير

ويقصد به «نابليون بونابرت» تناول نشأته في جزيرة كورسيكا، وترتيبه الثاني بين إخوته الثمانية، وذهابه إلى باريس والتحاقه بمدرسة عسكرية، حيث أصبح ملازمًا ثانيًا في الجيش الفرنسي وهو في سن السابعة عشرة، وصعد نجمه وشكل حملة كبيرة من الجيش بعد أن أقنع أفراد الجيش بخطب حماسية، وسيطر على شمال إيطاليا وبلجيكا وهولندا والنمسا ثم إسبانيا.

نظرة الى الوراء

عنوان الفصل الأخير من الكتاب، وهو يقصد به الجزء الصغير من تاريخ العالم الذي عاشه وعاصره الكاتب في ألمانيا، فقد سبق أن عالج الحرب العالمية الأولى والتي كانت ألمانيا اللاعب الرئيسي في ميدانها (١٩١٤- ١٩١٨).

ولأن الكاتب ينحدر شخصيًا من عائلة يهودية فقد تعاطف مع اليهود في محنتهم، فيما عرف بـ«الهولوكوست»، وانعزالهم الاختياري في دول أوروبا، ثم فقدانهم لموطنهم مع تدمير بيت المقدس، وصعود الضابط الصغير «هتلر» إلى سدة الحكم، وتحيته المشهورة «hail Hitler».. لقد رأى الكاتب بأم عينيه أعوان هتلر ومؤيديه وهم يضربون الطلبة اليهود في جامعة فيينا.

كلمة أخيرة

قدمت هيئة تحرير المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب هذا الكتاب على أنه يستهدف القارئ الصغير، ويخاطب العقل الجمعي للناشئة العرب، وبعد قراءة هذا الكتاب تبين أنه يستعصي على الكبار، بل على ذوي الاختصاص، وذلك لعدة أمور منها:

١- لم يتح المؤلف في عرضه للمادة التسلسل التاريخي والمنطقي (الزمني) للأحداث، فتراه يكتب عن عصر النهضة الأوروبية ثم يعود للإغريق والرومان، ويتكلم عن «نابليون بونابرت» ليقارنه بـ«الإسكندر المقدوني».

٢- صحيح إنه ليس من المستشرقين الأوربيين والذين اعتدنا منهم أن يكتبوا عن الإسلام ليطعنوا فيه، ويدسوا السم في العسل، ولكنه لم ينس أصول أسرته اليهودية وهو يتكلم عن معاناة اليهود عن المذابح النازية (الهولوكوست)، كما كان دائمًا يظهر إيمانه العميق بالمسيحية وحبه الخالص للسيد المسيح مما جعله ينظر من زاوية مناقضة للدين الإسلامي والرسول الكريم ﷺ.

٣- من هذا المنطلق تناول الحضارة الاسلامية، والإسلام والمسلمين الذين امتدت حضارتهم ووجودهم إلى أكثر من (١٤٣٠) سنة في (٨) صفحات فقط، وعلى كثرة الأسماء التي ذكرها لقادة وملوك ومفكرين وفاتحين ومصلحين اجتماعيين ومخترعين إلا أنه لم يأت على ذكر أي واحد من المسلمين! فقط اعترف لهم بالفضل في تنظيم الأعداد والأرقام ودور «الصفر» (zero) في تسهيل العمليات الحسابية.. وبعض العلوم التي مازالت اللغات الأوروبية تحمل أسماءها مثل الكيمياء chemistry والجبر algebra، بل هو يرى أن عصر النهضة الأوروبية Renaissance يمثل عملية بعث وإحياء لحضارات الروم والإغريق!

٤- عاد لذكر المسلمين وهو يكتب عن الإمبراطورية العثمانية، كغزاة فاتحين في أوروبا الشرقية حتى وصلوا إلى فيينا عاصمة النمسا.. ثم اتحاد أوروبا لوقف وصد هذا الغزو والزحف.

كما مر على ذكر المسلمين أثناء الحملات الصليبية على المشرق العربي والتي اعتبرها تلبية لنداء الرب! وكتب عن أسبابها المعلنة، ولم يكتب عن أسبابها الحقيقية الاقتصادية والعنصرية.

٥- اقرأ ما كتبه عن أحد سلاطين بني عثمان: أسفل هذه الباروكة الوقورة، الشعر المستعار.. هناك رجل بشهية كبيرة للطعام الجيد والخمور الفاخرة.. ولابد أنك لن تستطيع أن تخطئ أنه داخل هذا «الدانتيل» الفاخر والتطريز على الحرير، هذا الرجل المتزين المتعطر المتبرج يموج برائحة كريهة.. حيث إنه نادرًا ما كان يغتسل! وهذا هو الفجور في الخصومة.

كل العالم كان يعلم أن قصور بني عثمان كانت تصلها المياه العذبة النظيفة والحمامات بمياهها الحارة.. بينما «الملكة فيكتوريا» صاحبة العصر الفيكتوري الذهبي في بريطانيا، كانت تقضي حاجتها تحت الشجر في قصورها على مرأى ونظر سكانها ثم تدفنها.. كما تفعل القطط!

وبعد.. هل هذا الكتاب المترجم يصلح للقارئ الصغير ويخاطب عقول الناشئة العرب؟

العدد (٥٨٠) ذو الحجة ١٤٣٢هـ / أكتوبر نوفمبر ٢٠١١م

المرأة الرجولية ورطة زوجية

د. خالد النجار-طبيب مصري

«المرأة الرجولية» تختلف تماما عن المرأة المسترجلة، فالفارق بينهما بعيد والاختلاف مديد، فالمرأة المسترجلة امرأة تتكلف الرجولة وتعاند فطرتها سواء بالملبس أو سائر التصرفات الذكورية المصطنعة، فهي معنية بتحوير ظاهرها بالدرجة الأولى وتمثيل دور الرجولة رغما عن أنوثتها الدفينة.

أما «المرأة الرجولية» فهي على العكس تماما.. إنها أنثى الظاهر بالدرجة الأولى، لكن جبلتها الباطنة أقرب للرجولة منها للأنوثة، وهي لا تتكلف تلك الطباع الخشنة التي تتسم بها، بل إنها سليقة في كينونة شخصيتها التي تتشابه إلى حد كبير مع شخصية الرجال.

فظاهر «المرأة الرجولية» يفيض أنوثة، فهي ليست بالضرورة تمتلك ملامح رجولية، بل بالعكس تتفاوت في الجمال الأنثوي كتفاوت سائر النساء، بل قد تكون باهرة الجمال فائقة الرونق بهية الطلعة وضيئة البشرة ممشوقة القوام، لكن مع طول العشرة تتكشف المواقف والتصرفات عن طبيعة ذكورية غريبة قد تكره بسببها الجمال والجميلات!

ومن هذا المنطلق فلا يمكن الاستدلال على المرأة الرجولية إلا بالمعاملة وامتداد العشرة، وبالتالي فالزوج هو المصطلي الأول بنار هذا النوع الخشن من النساء.

وأخص ما تتسم به المرأة الرجولية هو «الإعاقة العاطفية» فهي لا تمتلك المشاعر الرقيقة ولا العواطف الجياشة التي تتسم بها النساء كافة، لذلك فهي ابتداء لا تندفع نحو الزواج بوازع من رغبتها في سكن الحياة الزوجية ومودتها ورحمتها، بل الزواج عندها مرحلة اجتماعية ومحطة

عمرية ينبغي أن تحل بها، وعلى أسوأ تقدير هو نوع من الاقتران الاجتماعي أفضل من وحدة العنوسة ونظرات المجتمع التي لا ترحم.

إن الزواج عند «المرأة الرجولية» عادة اجتماعية بحته لا علاقة لها بالعاطفة لا من قريب ولا من بعيد، وعلى ذلك فهي تتململ من أبيات شعر كتبها الزوج المحب في مغازلتها، وتنظر لهديته على أنها نوع من المكسب المادي لا كتعبير عن حبه وأحاسيسه، والطامة الكبرى لو كان الزوج رومانسيا في مشاعره، لأنها ترى كل تعبير عن عواطفه نوعا من المراهقة السلوكية والحماقات العاطفية التي من المفروض أنهما كبرا عليها ولا تليق بهما.

في البيت

والمرأة الرجولية في بيتها لا تتذوق الجمال ولا تستشعر لغة الألوان، فلا تهتم باللمسات الديكورية البسيطة في أركان بيتها، والتي تحوله إلى جنة غناء، بل الجمال عندها في كل ما غلا ثمنه من قطع الأثاث والمفروشات، لذلك فهي ليست معنية بباقة ورد تزرعها في شرفة غرفتها، ولا تتحرك همتها كل فترة لتغيير ترتيب الأثاث ليضفي على البيت نوعا من التغيير المريح الكاسر لملل المظهر الروتيني الذي تعودت عليه العين صباح مساء، فهي أقرب ما تكون لعاملة النظافة التي تهتم بالقضاء على الوسخ وترتيب المبعثر لا أكثر ولا أقل.

أما لغة التزين فهي لغة لوغاريتمية صعبة لا تفقهها ولا تريد أن تفك طلاسمها، فأقصى الزينة عندها هي النظافة الشخصية، وهي غير معنية على الإطلاق بالتفنن في اختيار ملابسها على أساس ما يحبه الزوج وما لا يحبه، ولا تكلف نفسها في رحلة التسوق أن تعرج على محل عطور لتشتري عطرا أخاذا ينعش بيتها ويبهج زوجها، وصندوق المكياج لديها لا يفتح إلا في المناسبات العائلية عند حضور عرس أو مناسبة عائلية سارة.

والمرأة الرجولية جريئة مقدامة لا تهاب المواقف الصعبة، ولا تذرف الدمع إلا في النادر جدا، ففي المطبخ قد تذبح الطيور بكل شجاعة، ولا تخاف من منظر الدم أو هيئة الذبح، وتتعامل مع جروحها بنوع من الثبات، عكس سائر النساء.. تغسل الموتى، وتتبوأ المناصب الصعبة في وظيفتها، وتختار من التخصصات المهنية ما يتردد فيه أعتى الرجال.

لغة العقل

أما حديثها فيتسم بالحدة والصرامة، وحواراتها خشنة تعطيك إحساسا بأنك تحاور قائدا حربيا تربى على الجدية، حتى أطروحاتها ومقترحاتها تتسم بالحزم وربما الشدة والعنف أحيانا، لا كما هو معهود عند سائر النساء من تغليب لغة العاطفة على لغة العقل.

والمرأة الرجولية قوية الشخصية مولعة بالقيادة بدرجة كبيرة، فكل تصرفاتها لا تذعن للزوج برأي ولا قرار، فهي التي تقرر وتأخذ زمام المبادرة في كل موقف، وأمام عنفوان تصرفاتها واندفاعها تذوب شخصية الزوج.. إنها -مثلا- تتعامل مع مشاغبة أطفالها بالردع المؤلم، لا بالصراخ والتهديد بعقوبة الأب عند عودته كعادة الأمهات، وتتصدر لمشاكل أبنائها بنفسها، سواء في المدرسة أو النادي أو سائر المجالات، وتتقمص دور كبير العائلة المعني بحل مشاكل الأخ والأخت والخال والعم.

إن مشكلة المرأة الرجولية أنها امرأة فقدت أنوثتها، لكن في الوقت ذاته هي غير متحسرة على هذا الفقد، وبالتالي فهي لا تحاول استعادتها ولا ترميمها، وهذا النوع من الزوجات «ورطة زوجية» بكل ما تعنيه الكلمة، خصوصا إذا ارتبطت بزوج قيادي أو قوي الشخصية، فهنا تتصارع الأدوار ولا يجد الزوج في زوجته السكن الذي ينشده، ولا الطاعة التي يبتغيها ولا دفء العلاقة الزوجية التي كان يحلم بها في شريكة العمر، وهذا النوع من الصراع غالبا ما ينتهي بالانفصال أو العيش على مضض، وحينها تتنكد حياة الزوج المسكين الذي يحسب ألف حساب لبيت سيهدم وأطفال أبرياء ستدفع الثمن، فيدخل بتضحيته في الاستمرار معها إلى حالة من «السكون الزواجي» وتمر أيامه وما شعر بالسعادة الزوجية التي يتحدث عنها البعض وترويها الأفلام والمسلسلات.

لكن المرأة الرجولية ليست كلها مساوئ، بل يظهر دورها الإيجابي عند غياب الزوج بسفر أو فقده بموت أو انفصال.. هنا تبرز المرأة الرجولية كشخصية المرحلة، وبجسارتها في مواجهة المواقف تستطيع أن تقود الأسرة ببراعة منقطعة النظير، حيث تتقن مسؤولية الأب والأم في نفس الوقت، وتشعر جميع أفراد الأسرة أنه لا يوجد أي نقص أو فجوة من غياب الأب.

إنها حالة فريدة من النساء ونمط غريب من الزوجات في دور مقلوب وأحاسيس معكوسة وصلابة في غير موضعها، وهي في حقيقتها نوع من الأزمات الزوجية الدفينة التي لا يبوح بمرارتها الزوج المسكين، وتتأوه نفسه بالحسرات على غياب الدفء العاطفي وإلى الله المشتكى.

الانتحار الزوجي

منى السعيد الشريف-باحثة تربوية

«الانتحار» كلمة لا تقتصر على الهدم المتعمد للبدن وإزهاق الروح عن قصد، بل إنها تمددت وانتشرت لتشمل كثيرًا من القضايا الفكرية والنفسية والاجتماعية وحتى الطبية، فالانتحار الفكري يعني الشطط العقلي والشذوذ الفكري والميل للجحود والكفران، والانتحار النفسي يعني الاستسلام لأزماتنا النفسية والعاطفية حتى تحطم كل ما نملكه من إرادة، بل حتى علماء الطب والتغذية يعنون بالانتحار وجوها أخرى كالإسراف في تناول الدهون المشبعة أو المخللات أو الأطعمة الحريفة وما أشبه ذلك.

وفي الحياة الزوجية كان لعبارة «الانتحار» نصيب ومدلول، فالانتحار الزوجي هو مجموعة من السلوكات الزوجية السلبية الكفيلة بتدمير تلك العلاقة الحميمية والعاطفية بين الزوجين وإصابتهما بنوع من الجفاء والجحود الذي قد يفضي- لا قدر الله تعالى- إلى الانفصال.

من أشهر مظاهر الانتحار الزوجي «كثرة التشكي»، خاصة من قبل الزوجات اللاتي يكاد لا يرضيهن شيء ولا يعجبهن تصرف، وقد تكون الشكوى من قلة ذات يد الزوج أو من سلبيته أو من إهماله أو من غيرته، ورغم أن لكل منا عيوبه والشكوى منه واردة، لكن الأمر هنا يخرج عن حد الاعتدال المقترن بطلب الكمال الذي هو من المحال.

فكم هو مزعج للزوج ألّا يجد في حديث زوجته إلا المرارة الدائمة من تصرفاته، ولا حوار لها صباح مساء إلا عن سلبياته وسقطاته، وكأنه كتلة سلبيات، وكأنه لا يملأ عينها ولا يشغل وجدانها، وكأنها تريد أن توصل له رسالة بندمها على الاقتران بمثله، أو أنها كل شيء ولا شيء سواها، وبدونها تتعثر الأسرة ولا تخرج من كبواتها، ويزيد الطين بلة والعلاقة جفوة لو خرجت هذا الأمواج المتتابعة من الشكاوى خارج حدود الأسرة للأقارب والجيران وصديقات العمل، وكم هو قاسٍ على مشاعر الزوج ألّا يقابل أحدًا من معارفه إلا ويجد منه الملامة وربما التوبيخ من تصرفاته مع زوجته التي فضحته عند القاصي والداني.

هذا في الوقت الذي يحتاج فيه الزوج إلى أن يشعر من زوجته بجدارته كزوج وأب وربان أسرة، فهذا من شأنه أن يشبع رجولته ويرضي قوامته التي فطره الله عليها..

إن الزوجة كثيرة الشكاية زوجة متسخطة على أقدار الله، تنشد الكمال فيمن حولها، رغم أنها في نفسها غير ذلك، ورحم الله أحد السلف حيث يقول: يبصر أحدكم القذى في عين أخيه، ولا يبصر الجذع في عين نفسه.

عيوب الشريك

وما يقال عن بعض الزوجات، يقال أيضا عن بعض الأزواج، لكننا لو نظرنا بعين الإنصاف لحرصنا كل الحرص على مشاعر بعضنا البعض، وخير من الشكوى وتوصيف الأخطاء، النظر في كيفية معالجتها وفق طبيعة الطرف الآخر، فمن الناس من تجدي معه النصيحة، ومنهم من يحتاج لأن نتمثل نحن أمامه نموذجًا مثاليًا ليقتدي بنا، ومنهم من يحتاج لتدخل ذوي المكانة من الأقارب، ولله في خلقه شؤون، أما أن يحملنا الضجر على أن نرى شريك العمر كله عيوب! وأنه لا تجدي معه حلول! فهذا انتحار بالبطيء لن نجني منه إلا الدمار.

إن الحياة الزوجية «شركة» لها طبيعة خاصة جدا، فهي لا تحب أن تخرج أسرارها خارج سياجها الأسري إلا في أضيق الأمور والحدود، وكم هو مزعج بل مؤلم لشريك العمر أن يرى سلبياته على الملأ، فما بالنا لو اقترنت بالتضخيم والمبالغة التي من شأنها أن توغر الصدور وتقتل المحبة.

والشركة الزوجية لا تحب أن يتعالى فيها أحد الشريكين على الآخر، وأن يرى أحدهما أنه كان بالإمكان أن يتزوج الأجمل أو الأغنى أو الأعلم أو الأقوى..

إنها قاصمة الظهر أن تعيش مع إنسان مجبر أن يعيش معك أو

يتأفف من القرب منك أو يتحسر على لحظات الأنس التي يقضيها معك.. إن حواجز التعالي أو الكبر في الحياة الزوجية من شأنها أن تعلو وتعلو حتى تحجز تمامًا بين الطرفين، فيصبح كل منهما لا يرى الآخر في حياته، ويعيش معه حالة من الطلاق الروحي، مما يؤذن بوقوع الطلاق الحقيقي بسبب أصغر شرارة وأقل هفوة. وفي الحديث الشريف: «لا يفرك مؤمن مؤمنة، إن كره منها خلقًا رضي منها غيره» (رواه مسلم وأحمد).

والشركة الزوجية لا تحب المنافسة الضروس بين الشريكين، خاصة لو كانت الزوجة عاملة أو عالمة أو لها فضل ميزة على الزوج، فهذا التنافس من شأنه أن يقلب ساحة الأسرة إلى ساحة سجال ونقاش دائم، وترى هذا النوع من الزوجات لا يُلبى للزوج طلبا- ولو صغر- إلا بعد طول مناقشة وجدال ولدد.. إن الحب الحقيقي يقوم على نكران الذات والتفاني في إسعاد الآخر، وحينها تجد سفينة الزوجية تسير سلسة سهلة، أما العناد وكثرة المحاورة والمخالفة فهي نذير خطر، أقل ما فيه أنه يشحن القلوب بالبغضاء، فما تلبث شرارة الفرقة أن تنفجر لأتفه الأسباب، فيتعجّب الناس ممن طلق زوجته لأنها لم تعدّ له طبق الحلوى الذي يفضله، أو لم تشتر له الأغراض التي طلبها، أو غيرها من الأمور البسيطة التي لا تستحق كارثة كالطلاق، لكن لو نظرنا بعين التأمل لوجدنا أنها مواقف بسيطة لكنها تخفي وراءها تراكمات ومشاحنات وسجالات وتناقضات وخلافات.

إن الحكماء يقولون: العافية كلها في التغافل، والمتغافل سيد قومه، وفي الحديث الشريف: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي» (رواه الترمذي) قال المناوي: وكان ﷺ أحسن الناس عشرة لهم حتى إنه كان يرسل بنات الأنصار لعائشة يلعبن معها، وكانت إذا وهبت شيئًا لا محذور فيه تابعها عليه، وإذا شربت شرب من موضع فمها، ويقبلها وهو صائم، وأراها الحبشة وهم يلعبون في المسجد وهي متكئة على منكبه، وسابقها في السفر مرتين فسبقها وسبقته، ثم قال: «هذه بتلك»، وتدافعا في خروجهما من المنزل مرة، وفي الصحيح أن نساءه كن يراجعنه الحديث. (فيض القدير للمناوي).

قاصمة الظهر

والشركة الزوجية لا تحب المقارنة مع أطراف خارجية، وهذا من المروءة وحسن الخلق الذي أوصانا به النبي ﷺ.. فإياك عزيزي الزوج أن تعقد مقارنة بين زوجتك وبين فتيات الإعلانات أو الممثلات على مرأى ومسمع منها، أو في قرارة نفسك تأدبًا مع الله الذي يعلم السر وأخفى، وإياك عزيزتي الزوجة أن تعقدي مقارنة بين زوجك وبين أحد الغرباء، تمدحين على مسمع منه في الغريب صفات لا توجد في زوجك.. إنها قاصمة الظهر التي تستجلب ظلال الكآبة والوحشة على القفص الذهبي والعش الزوجي، وكم هو صعب على النفس أن تحس بالدونية، لكن المؤمن يرى أن الحياة جملة من الأرزاق، فالصحة رزق، والجمال رزق، والعلم رزق، والزوجة رزق، والزوج رزق.. ومن رضي بما قسم الله له كان أغنى الناس.

والشركة الزوجية لا تحب أن يعشش فيها الشعور بالتقصير.. فحذار أن يُشعر أحد الشريكين الآخر بأنه مقصر معه عاطفيًا أو وجدانيًا، فهذا من شأنه أن يؤجج نار العناد ويزيد التقصير تقصيرًا قد يصل إلى حد الجحود والجفاء.. إن لغة الإطراء تفتح القلوب المغلقة، وتؤجج المشاعر النائمة، وتضفي على حياة الزوجين مسحة رومانسية دافئة، والكلمة الطيبة صدقة، وأولى الناس بالصدقة ذوو القربى، وما أجمل أن تقترن تلك الكلمات الندية بالهدية التي لها مفعول السحر، بل هي السحر الحلال الذي يأسر القلوب ويلين القاسي ويقرب الجافي، وهي تعبير عملي عن الاهتمام وتفقد مواطن راحة الشريك وسعادته، وكفاها من صفات كفيلة بأن تزيل الغشاوة التي صنعتها السنون، والرتابة الزوجية التي زرعتها الأيام مع طول العشرة.

زوجة عاقلة

والشراكة الزوجية لا تحب التبذير ولا الإسراف المادي.. إن النفس إذا أحرزت رزقها اطمأنت، وكم من العثرات التي تعتري مسيرة الزوجين، فإذا خيمت على الأسرة ساعة العسرة وضاقت اليد عن تلبية المتطلبات توترت المشاعر وبدأت الاتهامات والتلاومات، وانفتحت على الزوجين أبواب الاستدانة التي هي همّ بالليل وذلّ بالنهار، كل هذا بفعل نظرتنا القاصرة في إدارة ميزانية الأسرة، والسير بمبدأ «عِش اللحظة»، وكأن الحياة تصفو دائمًا وتحلو على طول الطريق، وهيهات هيهات.

إن الزوجة العاقلة هي من تحسب للأيام حسابها وتزن الأحداث بميزانها، وتدير أسرتها ماديًا بتعقل، بلا إفراط ولا تفريط، حتى إذا ألقت الأيام بعسرها على زوجها، وجد زوجة تمد له يد العون مما ادخرته لهذه الخطوب.. حينها تحلو في عينه، وتجلو في نظره، ويزداد رصيد الحب في قلبه، لأنها كانت نعم السند وخير المعين، والناس مواقف، وخير الأصحاب أنفعهم لصاحبه.

قصة النملة وخواطر تربوية للأسرة

محمد شعطيط
باحث دراسات إسلامية

ميز الله عز وجل الإنسان عن سائر المخلوقات بما أودع فيه من مؤهلات واستعدادات فطرية، وبما منحه من نعم كثيرة، على رأسها العقل الذي هو مناط التكليف.

وقد دعا اللهُ عز وجل الإنسان إلى إعمال هذه الملكة، وعدم تعطيل هذه النعمة العظيمة، فقال سبحانه: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (الحج: ٤٦).

فما أشد ضلال من أفسد مدارك العلم التي جعلها الله عز وجل بابا لمعرفته من عقل وقلب وسمع وبصر.

ويا سعادة من غاص في كلام الله عز وجل، يتدبره ويعتبر به، ليحيا الحياة الطيبة، وينال رضا المولى في الدنيا والآخرة.

ومن مجالات الحكمة التي ينبغي للمرء أن يعتبر بها، كيفية تربية بعض الحيوانات لأبنائها وصغارها، ومختلف الطرق التي تسلكها للتعامل معهم.

ولعل قائلا أن يقول: كيف للإنسان الذي كرمه الله عز وجل، وحمله في البحر والبحر ورزقه من الطيبات أن يتعلم من حيوان أبكم لا يتكلم، وليس له من العقل ما يؤهله لمقام الأستاذية والدلالة والإرشاد؟!

ونسي هذا العبد أن رسول الله ﷺ جعل الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها، ثم إن الله عز وجل لما أراد أن يعلم ابن آدم كيف يدفن أخاه بعث له غرابا ليريه كيف يواري سوءة أخيه.

والمشاهد لتربية الحيوانات لصغارها ليعجب من سلوكها وتصرفاتها، فكأنما تخرجت من كليات التربية، أو شاركت في دورات تكوينية، أو تلقت تعليما من كبار المحاضرين العالميين.. وما علّمها إلا العليم الخبير، وما زرع فيها الرحمة إلا خالقها عز وجل الذي سبقت رحمته غضبه.

ومن القصص الطريفة التي يمكن للمرء أن يستقي منها بعض المواصفات التي ينبغي أن يتحلى بها المربون، سواء كانوا آباء أو أمهات، أو يعملون في مجال التربية والتكوين، قصة النملة وما ذكر الله عز وجل من مخاطبتها لجماعة جنسها.

ويكفي هذه النملة فخرا أن الله ذكرها في القرآن الكريم، وسمى الله عز وجل سورة كاملة باسمها.

إن المرء عندما يذكر عالم الحيوان لا يذكر إلا الوحشية والافتراس وقانون الغاب.

والقرآن هنا يسطر عن هذا العالم أعظم حروف وكلمات الرحمة والشفقة والإحسان، التي -للأسف- تنعدم في كثير من بقاع الأرض بين الإنسان وأخيه الإنسان.

وقد اختصر الإمام ابن القيم رحمه الله روعة خطاب النملة وما اشتمل عليه من حكم في كتابه «مفتاح دار السعادة» فقال: «ويكفي من فطنتها -يعني النملة- ما قص الله عز وجل في كتابه من قولها لجماعة النمل، وقد رأت سليمان عليه السلام وجنوده: ﴿يَاأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ فتكلمت بعشرة أنواع من الخطاب في هذه النصيحة: النداء، والتنبيه، والتسمية، والأمر، والنهي، والتحذير، والتخصيص، والتفهيم، والتعميم، والاعتذار.

فاشتملت نصيحتها مع الاختصار على هذه الأنواع العشرة، ولذلك أعجب سليمانَ قولُها وتبسم ضاحكا منه، وسأل الله أن يوزعه شكر نعمته عليه لما سمع كلامها. قال: ولا تستبعد هذه الفطنة من أمة من الأمم تسبح بحمد ربها...

رحم الله علماءنا الأكارم.. لقد استوقف خطاب النملة العالم الرباني ابن القيم -رحمه الله- فاستخرج منه هذه الأنواع العشرة من الخطاب، وكلام الله لا تنقضي عجائبه، فكلما زاد العبد تدبرا في آيات الله ظهرت له ينابيع الحكمة تَفَجَّر من درره.

ومن هذه الحكم والعبر ما انبث في ثنايا خطاب النملة حين رأت موكب النبي الكريم في جيشه المهيب فقالت: ﴿يَاأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾.

أقول: ما انبث فيه من إشارات تربوية للأسر المسلمة، وهي خواطر تحتاج إلى بعض التدبر والتمعن فنبدأ باسم الله ونقول:

أول هذه الإشارات والخواطر:

الرجولة

موقف النملة ينم عن رجولة وشجاعة غير عادية. فمن يرى نبيا كريما وجيشا عرمرما تتملكه الهيبة والخوف، ولا يفكر إلا في نجاة نفسه. لكن النملة وطنت نفسها ووقفت رابطة الجأش لا تزلزلها الجبال.

فما أحوج الأسر المسلمة إلى الرجال.. والرجال قليل.

ومفهوم الرجولة هنا ليس حكرا على الذكور، بل هو يشمل الرجال والنساء. فقد قال تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ﴾ (الأحزاب: ٢٣) ولفظ المؤمنين يشمل الذكور والإناث. وللرجولة في القرآن مواصفات:

فمنها الصدق، ففي تتمة الآية السابقة:

﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾.

ومنها: الذكر وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والخوف من الله عز وجل، ففي الآية من سورة النور: ﴿رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ. لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(النور: ٣٧-٣٨).

وفي السير والتاريخ مواقف لنساء غيرن مجرى التاريخ، وصنعن رجالا وأبطالا.. والمقام لا يتسع لسردها ويكفينا موقف خديجة -رضي الله عنها- حين دخل عليها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده فثبته بتلك الكلمات الخالدة..: «فوالله لا يخزيك الله أبدًا، فوالله إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق»(متفق عليه).

وموقف أم سلمة -رضي الله عنها- يوم صلح الحديبية لما دخل عليها الرسول الكريم ﷺ وأخبرها ما لقي من الناس لما دعاهم أن يحلقوا وينحروا فما قام منهم أحد. قالت رضي الله عنها: «يا نبي الله، أتحب ذلك؟ اخرج، ثم لا تكلم أحدًا منهم كلمةً حتى تنحر بدنك، وتدعو حالقك فيحلقك. فخرج فلم يكلم أحدًا منهم حتى فعل ذلك. نحر بدنه، ودعا حالقه فحلقه. فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضًا حتى كاد بعضهم يقتل بعضًا غمًا»(رواه البخاري).

فلو أن النساء كمن ذكرنا
لفضلت النساء على الرجال
فما التأنيث لاسم الشمس عيب
وما التذكير فخر للهلال

المحاورة

إن المرء ليعجب أن يكون في عالم النمل قول وحوار و«كلام» (قالت نملة) وينعدم هذا في عالم الإنسان..

كثير من الأسر يغلب عليها طابع الجفاء والجمود.. أحاسيس باردة.. وخطاب جاف.. قد سافرت فيها أساليب الحوار الهادئ إلى المحيط الهادئ، والكلمة الهادفة أصبحت مصادفة.. والإصغاء بالاستهزاء..

أسر بلا حوار أعجاز نخل خاوية، عن قريب يتفكك بنيانها.. أشباح أفرادها في البيت ملتثمة.. لكن أرواحهم خارج الأسوار سارحة..

لقد ورد جذر: «ق و ل» ومشتقاته في القرآن الكريم عشرات المرات مما يمكن اعتباره ميزة خاصة في كتاب الله. ويكفينا أن الله حاور الطريد الملعون إبليس.. فلنهتم بأبنائنا.. ولنستمع لهم.. ولنمد جسور الحوار والتواصل معهم.. ويكفي من مقولة: اسكت.. أنت لا تفهم شيئا.. فقد عفا عليها الدهر.. فبالحوار تحل المشاكل.. والحوار هو قمة الرفق.. وما كان في شيء إلا زانه.. فلنزين بيوتنا بهذه الورود الجميلة: الحوار ثم الحوار..

فالمسؤولية عظيمة..

فلنأخذ العبرة من عمل النملة التي صبرت وصابرت وكدت واجتهدت، وعملت ليل نهار وأتقنت، حتى أسست بنيانها بهندسة وتركيب عجيب.. رسالة إلى الأسر المسلمة أن تتكاتف وتتناصر وتتظافر جهودها، من أجل إخراج أمة من الأجيال المؤمنة الطيبة الطاهرة الشاهدة بالقسط. فما النفع إن كان البعض يبني والبعض الآخر يهدم.. من إعلام وشبكة وجرائد ومجلات.. ولله در من قال:

متى يبلغ البنيان يوما تمامه
إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم

المناصحة والرحمة

لم تدخل النملة رأسها في التراب وتترك النمل تواجه مصيرها، بل سارعت إلى تقديم النصيحة ودعوة زميلاتها إلى دخول مساكنهن.. فتحمل المسؤولية شيء عجيب.. والأمة المسلمة لم تكن خير أمة أخرجت للناس إلا لأنها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله. وقد مر قول ابن القيم -رحمه الله- أن النملة استعملت من بين ما استعملت من أنواع الخطاب: الأمر والنهي.. نعم.. الأمر والنهي في مكانهما.. وبشروطهما.. يفعلان الأفاعيل.. فعلى الأسرة تعلم فقه تغيير المنكر.. والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة.. تبشيرا وإنذارا.

﴿لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ حرص على المصلحة.. وحب الخير للناس أجمعين.. والصدقة في المقربين أولى.. وألّا يتم تربية الأبناء بطريقة الأمر المباشر.. والوعظ البارد.. بل تستخدم الأسرة أحدث الطرق في الوعظ.. بأحدث الوسائل.. وتتجنب الشدة والصرامة الزائدة.. حتى إن أخا -مخلصا بلاشك- بكثرة ما يعظ إخوته بإقامة الصلاة للنجاة من جهنم، ويكرر ذلك مرارا بشكل رتيب؛ كانوا إذا رأوه مقبلا يقولون: هاهي ذي جهنم قادمة! فقد كان كلامه كله عن جهنم حتى مل إخوته سماع كلامه.. فالحكمة الحكمة.. والرحمة الرحمة.

خاتمة

لقد تعلمنا من هذا المخلوق الصغير الشيء الكثير.. والسر الكبير فيك أيها الإنسان المسلم.

قد رشحوك لأمر لو فطنت له
فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل

لقد سخر الله لك كل ما في الكون وأراك آياته في الآفاق وفي الأنفس، لتزداد يقينا إلى يقين.. فعامل أحبابك وأبناءك وأقرباءك بما أمرك الله به من حلم وعلم ورحمة وكرم ووفاء.. والتفت إلى عائلتك وخذ بيدها إلى الجنة بالحكمة والموعظة الحسنة.. واستفد من قصص القرآن.. ومن بيان سيد ولد عدنان.. والموعد إن شاء الله الجنان.. فلا يصرفنك شيء عن مولاك.. فالله الله في الخلق الكريم.. والتربية النبوية الراقية.. تربية نبعها القرآن، وشعارها المزدان: ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الأعراف: ١٧٦).

فتيات وسيدات يحكين تجاربهن..
ضوابط مشاركة المرأة في العمل العام

القاهرة : دار الإعلام العربية

تُبنى المجتمعات بسواعد أبنائها رجالًا ونساءً، ولأن المرأة هي نصف المجتمع، فقد سبقت الحضارة الإسلامية بنماذج نسائية شاركت بقوة في العمل العام، بل شاركت أيضًا في المعارك والغزوات، وعلى الرغم من ذلك مازال عمل المرأة مطروحًا على طاولة النقاش بين مؤيد ومعارض.. «الوعي الإسلامي» ناقشت القضية من زاوية مختلفة، فإلى التفاصيل..

«أعمل ليس فقط، لتحقيق ذاتي والمساعدة في مصاريف بيتي، بل لأشارك في بناء المجتمع الذي أنتمي إليه».. بهذه الكلمات بدأت نسمة خطاب اختصاصية وسائط متعددة بالموقع الإلكتروني للداعية مصطفى حسني، وبررت ذلك بإيمانها بأن النهوض بالمجتمع لابد أن يسهم فيه كل أفراده على اختلاف أنواعهم ومهاراتهم ومجالات عملهم، بصرف النظر عن جنسهم.

من حق المرأة أن تعمل وتنجح.. وكثير من الأعمال لا تصلح غيرها!

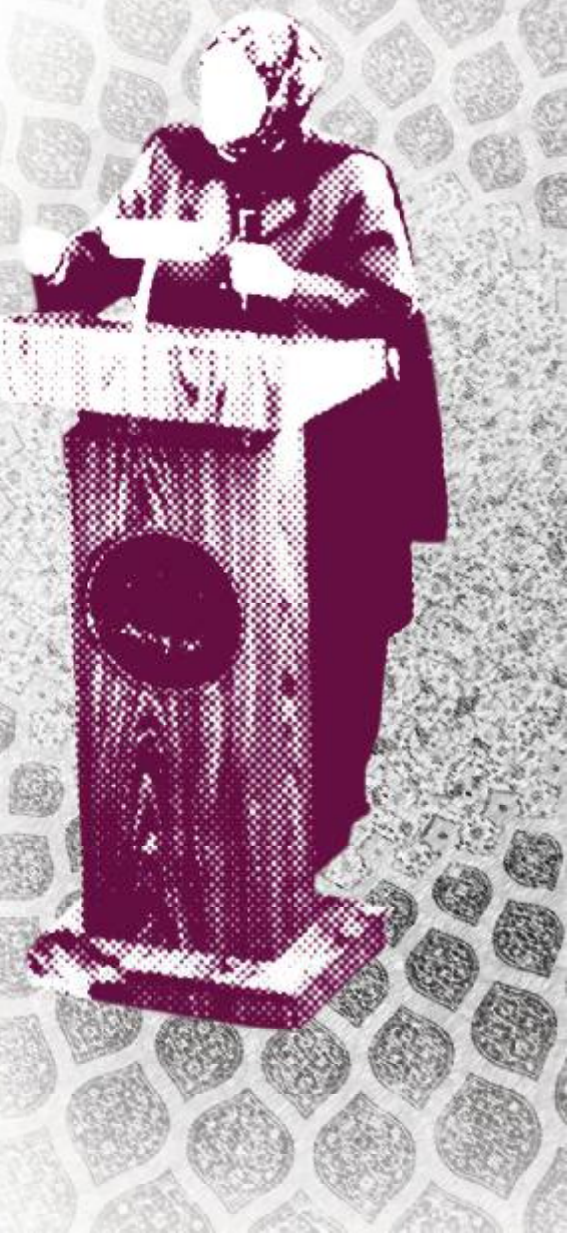

بيئة العمل

وأضافت نسمة: إن لعمل المرأة العديد من الآثار الإيجابية على تكوين شخصيتها، بدايةً من تدريبها على تحمل المسؤولية، وبلورة شخصية قادرة على قيادة بيتها، وبالتالي سينعكس هذا الأمر بشكل إيجابي على أولادها وأسرتها.

وحول المخاوف المرتبطة بتعامل المرأة مع زملائها الرجال في العمل.. أكدت أنها تلجأ إلى إضفاء الشكل الرسمي البحت على علاقات الزمالة، سواء مع الرجال أو النساء، مؤكدةً ضرورة أن يكون أساس العلاقة في بيئة العمل هو شؤون العمل فقط، دون السماح بالتدخل في الحياة الخاصة أو تعدي الحدود المسموح بها، وهذا لا يتنافى مع وجود إطار من الاحترام المتبادل، وتقدير المكانة صغرت أو عظمت.

مثل وقدوة

بدورها، توضح نيرة أحمد، معيدة بكلية الإعلام- جامعة القاهرة، أن وضع المرأة اختلف عن ذي قبل، فالبنات وصلن إلى مستوى عالٍ من التعليم والثقافة، وأصبح من الضروري أيضًا أن تعمل في ظل غلاء المعيشة والظروف الاقتصادية الصعبة، ولم يعد طموح الفتاة يتوقف عند حد بناء أسرة وتربية أبناء، إنما بجوار ذلك ظهرت رغبتها في تحقيق النجاح على المستوى العلمي والعملي.

حدود

وتوافقهما الرأي إيمان مرسي، موظفة بمؤسسة «حقوق دوت كوم»، مؤكدةً على أهمية عمل المرأة جنبًا إلى جنب مع شقيقها الرجل، لكن بشرط ألا يؤثر ذلك على حياتها الأسرية، فلابد من الموازنة بين العمل والمنزل، مؤكدةً أن عملها جعلها تخرج إلى العالم الخارجي، وانفتاح مداركها بشكل يساعدها في تربية أبنائها.

وتضيف: أضع دائمًا ضوابط بيني وبين زملائي، فبيننا جميعًا احترامٌ متبادل، لكن بحدود لا يتخطاها الطرفان، فلا أتدخل في شؤونهم، وبالتالي لا يتدخلون في شؤوني الخاصة.

شقائق الرجال

شرعيًا، بدأ وزير الأوقاف المصري الأسبق د.محمود حمدي زقزوق حديثه بالآية الكريمة: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾، موضحًا أن هذه الآية تعني أن المرأة من حقها أن تعمل، وتنتج، وتبذل مجهودًا في عملها، تستحق عليه بعد ذلك الأجر، مشيرًا إلى قول الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾، مضيفًا أن هناك الكثير من أحاديث الرسول تؤكد حق المرأة في العمل، شأنها شأن الرجل، مثل «النساء شقائق الرجال»، وأشار إلى أن أم المؤمنين السيدة عائشة- رضي الله عنها- كانت مرجعًا للصحابة يرجعون إليها في الفقه والحديث، ويعد ذلك عملاً.

وشدّد زقزوق على أن المرأة إذا استطاعت أن تعمل فهو واجب عليها، فحق المرأة في التعليم ليس فقط من أجل العلم، ولكن كي تستطيع أن تخدم نفسها، ومجتمعها، لافتًا إلى أن هناك كثيرًا من الأعمال لا يصلح فيها إلا المرأة، مثل العمل في روضة الأطفال، فالمرأة أكثر قدرة على التعامل مع الأطفال وتوجيههم، وكذلك التمريض وطب النساء، فهي أقدر من الرجل في هذا المجال، مضيفًا أن عهد الرسول ﷺ مليء بالنماذج النسائية العاملة مثل «رُفيدة»، أول طبيبة في الإسلام، التي كان لها خيمة في الحروب تستضيف فيها الجرحى، وتضمد جراحهم.. كما قام سيدنا عمر بن الخطاب بتولية «الشفاء» على السوق، ويشير إلى خروج النساء وقت الحروب؛ ليشجعن الرجال على الصمود والمواجهة، وكان من بينهنّ مجاهدات مثل البطلة العظيمة «نسيبة بنت كعب» التي دافعت عن الرسول ﷺ، وثبتت معه في غزوة أُحد، فكانت لها مكانة عظيمة بين الصحابة.

فرض كفاية

بدوره، يؤكد د.جمال قطب أستاذ الشريعة الإسلامية بجامعة الأزهر، أن العمل العام حق للمواطن رجلًا كان أو امرأةً، مؤكدًا أن العمل العام فرض كفاية؛ إذا أتقنه بعض الناس سقط وجوبه عن الآخرين، لافتًا إلى عدم إمكانية تحميل أحد من الناس رجلًا كان أو امرأةً مسؤولية فرض الكفاية إلا في حدود قدرة الشخص، وعدم وجود من هو أقدر منه، وفي حالة حاجة المجتمع إلى هذا العمل.

أنانية مرضية

من جانبها، تؤكد د.آمنة نصير العميدة السابقة لكلية الدراسات الإسلامية بجامعة الأزهر، أن المرأة شأنها شأن الرجل تمامًا من حقها أن تشارك في العمل العام، مشددةً على أنه تكليفٌ إلهي للمرأة، مستدلة على ذلك بقول الله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ فكلمة «خليفة» هنا تشمل الرجل والمرأة.

وتشير إلى أن مسألة التصنيف ورفض البعض عمل المرأة ومشاركتها في الأعمال المختلفة يأتي فيه شيء من أنانية الرجل؛ فهو لا يريد للمرأة أن تشاركه بعض جلائل الأعمال، كأن تكون المرأة قاضية أو نائبة في البرلمان..

عمل تطوعي

وتحدد د.فايزة خاطر، أستاذ العقيدة الإسلامية بجامعة الأزهر، عددًا من الضوابط التي تحكم مشاركة المرأة في العمل العام من بينها:

- أن تتسم بقوة الشخصية؛ حتي تكون قادرةً على مواجهة المواقف الصعبة، ووضع أُطروحات جديدة لكل مشكلة، وتستطيع أن تطلب المساعدة من القادرين، ليس فقط ماديًا، ولكن القادرين على اتخاذ القرار.
- أن تكون ملمّة بمشاكل المجتمع الذي تعيش فيه سواء اجتماعية أو ثقافية أو دينية، وكذلك تكون ملمة بالأفكار المهيمنة على هذا المجتمع.
- أن تتمتع بالحيادية في التعامل مع الأفراد.
- ألا يؤثر هذا العمل على عطائها لأسرتها.
- أن تتمتع بالصبر، خاصةً أنها ستواجه فئات وعقليات مختلفة عليها أن تتعامل معهم جميعًا.

نحو وعي إسلامي بدراسة التاريخ وتفسيره

تفسير التاريخ في الإسلام (٧)

د. أحمد خليل الشال
عضو المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة

تناولنا في الحلقة السابقة العوامل الغيبية كأول أصل من أصلي تفسير التاريخ عند المسلمين، في إطار أركان عملية تفسير التاريخ في الإسلام، واليوم نتناول الأصل الثاني من هذه المنظومة أي العوامل المشهودة.

نقصد بذلك الأمور المحسوسة بشيء من الحواس المعروفة لدى الإنسان، ويستطيع العقل إدراكها. وتلك التي تقتصر عليها مناهج جل المذاهب الوضعية، ويطلق عليها «المادية». وهي - في رأي بعض المعاصرين - تدور عند أصحابها في فلك عاملين اثنين لا ثالث لهما: الإنسان. والظروف المحيطة به. أما الإنسان فباعتبار حريته عند قوم، وباعتبار خصائصه عند آخرين، وباعتبار موروثاته المكتسبة عند غيرهم. وأما الظروف، فهي تعني عندهم البيئة بمعناها الواسع، الذي يشمل الجغرافيا، والعصر، والمجتمع بأشكال علاقاته المختلفة التي تشمل العلاقات السياسية، والاقتصادية، والتقاليد، والنظم، والثقافات.

وتلك كلها عوامل لا ينكرها المنهج الإسلامي، بل يقر بها ويشهد بدورها في التأثير في تفسير حركة التاريخ الإنساني على الأرض، وهذا ما يميز المنهج الإسلامي في تفسير التاريخ عن المذاهب الوضعية، فالإسلام يقر بتعدد العوامل المشهودة وتأثيرها في مسيرة تاريخ الإنسان، بينما كان أهم عيوب المذاهب الوضعية قولها بالعامل الواحد، ومن ثم تعددت مدارسه، فرأينا مدرسة التفسير المادي، والتفسير الجغرافي، والحضاري، والجنسي أو الغريزي.. وهذا -لا ريب- قصور في فهم التاريخ وتفسيره، أن تحصر العوامل المؤثرة في مسيرته بعامل واحد.

أما حرية الإنسان، فقد سبق وذكرت أن الله تعالى وهب للإنسان نصيبا من الحرية، ويسر لها أسبابا تجري بالمقادير، وإلا فسدت الأرض. وبهذا القدر من الحرية يكون التكليف والثواب والعقاب في الدنيا والآخرة. فقال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا. وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ (الإسراء:١٨-١٩). وقال: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾(الشورى:٢٠).

وقد بدأ التكليف للإنسان بمبدأ وجوده في الكون. وكان أول تكليف في قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾(البقرة:٣٥). وكان هذا أول اختبار وابتلاء لهذا القدر من الحرية التي وهبها الله تعالى للإنسان، وكان ذلك بدوره مبدأ عرض الأمانة على الإنسان، الذي قدم نصيبه من

الحرية في الاختيار حين عصى فغوى ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾(طه:١٢١). وكان في ذلك أيضا إعمال أول سنة في بني آدم، ألا وهي سنة الابتلاء التي هي نصيبه من الجبر ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللهُ بِهِ﴾(النحل:٩٢)، ﴿فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾(الفجر:١٥). والتي ستلازم نصيبه من الحرية إلى قيام الساعة ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾(الإنسان:٢).

ومن ثم، فتاريخ الإنسانية كله يقوم على هذه السنة، سنة الابتلاء، وهي تمثل ذروة العلاقة بين الأركان الثلاثة: الله، ثم الكون، والإنسان. ذلك أن الابتلاء ما هو إلا تفاعل الإنسان مع هذه الأركان: مع ربه بما يبتليه به من عناصر الكون الغيبية والمشهودة، ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾(البقرة:١٥٥)، ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾(الكهف:٧)، ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾(فاطر:٦) ﴿يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾(الأعراف:٢٧)، ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللهَ..﴾(يونس:٢٢). ثم بما يبتليه به من غيره من بني جلدته أيضا، فابتلى الرسل بأممهم، والحكام برعيتهم، والرعية بحكامهم، والضعيف بالقوي والقوي بالضعيف ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾(الفرقان:٢٠)، ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ﴾(الأنعام:١١٢)، ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾(محمد:٤)، ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾(الأنعام:١٦٥). وهذه حقائق قرآنية ثابتة بالكتاب والسنة.

وتلك السنة ـ

وهي الابتلاء ـ الذي هو صراع بين نصيب الإنسان من حريته، ونصيبه من الجبر لا ريب أن كان له ثمنه الذي تميز به الإنسان عن غيره من خلق الله، ممن نزع منه هذا النصيب من الحرية، وهو الثواب والعقاب: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾(محمد:٣١)، ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ. وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾(العنكبوت:٢-٣).

وتعتبر النفس الإنسانية هي مناط الابتلاء بما أودع الله فيها من صفات الخير والشر ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا. فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾(الشمس:٧-٨)، ذلك أن النفس الإنسانية نسيج عجيب من أخلاق الكمال والقصور على السواء، وكأن في ذلك أثر امتزاج الروح بالمادة ـ الطين ـ فترى فيها الخبيث والطيب، والحسن والقبيح، والخير والشر.. وغلبة شيء من هذه الأخلاق على غيرها أمر نسبي، يتغير بتغير عناصر الابتلاء على مر الأيام والليالي، في الأمم والأفراد. فإن «قلوب بنى آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث يشاء» (صحيح مسلم، برقم ١٤٤). ويوضح النبي ﷺ هذه الحقيقة بقوله «تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودا عودا، فأي قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء. وأي قلب أنكرها، نكت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين: على أبيض مثل الصفا، فلا تضره فتنة مادامت السموات والأرض. والآخر أسود مربادا كالكوز مجخيا، لا يعرف معروفا، ولا ينكر منكرا إلا ما أشرب من هواه» (صحيح مسلم، برقم ٢٦٥٤). ولذلك كان تحذيره ﷺ من فتن «كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمنا، ويمسي كافرا. أو يمسى مؤمنا، ويصبح كافرا، يبيع دينه بعرض من الدنيا» (صحيح مسلم، برقم ١١٨). ومن ثم كان

تفسير التاريخ، الذي يقوم على رصد نتائج هذا الصراع المتغير باختلاف الزمان والمكان، واستنباط أحكامه للاستفادة منها.

وعناصر الابتلاء متعددة، فمنها ما هو كامن في النفس بموجب الجانب السيئ الذي أودع فيها من الجزع، والشح، والضعف، وحب الدنيا وشهواتها.. فقال تعالى: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا. إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا. وَإِذَا مَسَّهُ الخَيْرُ مَنُوعًا﴾(المعارج:١٩-٢١)، وقال: ﴿وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾(النساء:٢٨)، وقال: ﴿وَكَانَ الإِنسَانُ قَتُورًا﴾(الإسراء:١٠٠)، وقال:﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾(آل عمران:١٤).

ومنها ما هو خارج عنها كفساد المجتمع ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ (الفرقان:٢٠)، وتزيين الشيطان ووسوسته ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾(الحجر:٣٩). وهكذا تعددت عناصر الابتلاء ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾(الأنبياء:٣٥).

ومن ثم، فإهمال هذه الحقائق القرآنية يؤدي إلى فساد عظيم في تفسير التاريخ. ومثال ذلك تفسير بعضهم حركة التاريخ الإنساني بأنها صراع بين الطبقات، فكانت النتيجة التي رأوها خيرا للبشرية هي نزع هذه الفوارق الطبقية بفرض الشيوعية أو الاشتراكية على الناس. فأدى هذا إلى خلل عظيم، وما ذلك إلا بسبب منافرة هذا الأمر لحقيقة التفسير الإسلامي ممثلا في قوله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (الزخرف:٣٢). ومثله ذلك المذهب الرأسمالي، حين أجاز احتكار المال لمن يقدر عليه، فأخل بحق الفقراء والمساكين، فكان من جراء ذلك فساد أشد من سابقه. فأوجب الله تعالى لهؤلاء حقا على سبيل الفرض، وليس على سبيل المن، فقال: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾(الذاريات:١٩). فإنه جل شأنه أجاز للبشر امتلاك المال، بل نسبه لأصحابه بقوله ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ﴾ ولكن في المقابل لم ينس حق الفقير والمسكين كما مر بنا.

وعليه، فإن أي تفسير للتاريخ يبتعد عن تلك الحقائق التي قررها الكتاب والسنة يؤدي لا ريب إلى فساد كبير في المقدمات والنتائج.

وفي ضوء هذه المعطيات ينبغي أن يكون تدبير الإنسان لنفسه، ﴿بَلِ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾ (القيامة:١٥). فلا ينبغي له أن يتعدى قدراتها وحدود فطرتها وتكليفاتها، وإلا ضل صاحبها وهلك، ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾(البقرة:٢٨٦). ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا﴾(الطلاق:٧). وأن يعلم أنه مهما كان حرا مختارا، أنه خاضع محتاج لا محالة لغيره: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾(الزخرف:٣٢). وأن حاجته لخالقه أشد ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (فاطر:١٥).

وهذا كله يجرنا إلى أصل مهم يقرره المنهج الإسلامي في تفسير التاريخ الإنساني، وهو أن وجود الإنسان على الأرض ما هو إلا من أجل مهمة واحدة خلق من أجلها، يستوي فيها مع غيره من الخلائق جميعا، ألا وهي العبادة، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾(الذاريات:٥٦)، ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لاَ يَفْتُرُونَ﴾(الأنبياء:٢٠)، ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾(الإسراء:٤٤). فهو رغم ما

أعطي من نصيب من حرية إلا أنه داخل حتما في دائرة العبودية، شاء أم أبى،﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾(مريم:٩٣)، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾(الحج:١٨). إلا أن الفرق بين من شاء وبين من أبى، أن الأول مذعن لما أمر به وهو راض مختار طائع، فهو بذلك محقق لمعنى العبودية، جاعلا حياته كلها تدور في هذا النطاق ﴿لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾(الأنعام:١٦٣). فهو يتعامل مع الأوامر والنواهي ـ التشريعات ـ على أنها أمر كوني يتساوى فيها مع بقية الخلائق، لا خيار له فيها: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى الله وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ الله وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا﴾(الأحزاب:٣٦)، وهذا ما يسميه القرآن «إسلامًا»، وهو أن يسلم الإنسان إرادته ومشيئته حرا مختارا لله رب العالمين، فهو يتعامل مع القضاء التشريعي ـ أمرًا ونهيًا ـ كأنه قضاء كوني ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾(آل عمران:٨٣)، وذلك كمال الإيمان ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾(النساء:٦٥). ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى الله وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(النور:٥١). ومن ثم تفضل الإنسان على بقية المخلوقات بالثواب في الدنيا والآخرة.

بينما أساء الآخر ـ ذلك الذي أبى ـ استغلال نصيبه من الحرية في هذا الشأن فظن بجهله أنها تعني التفلت والإعفاء من كل تكليف، وأن له الحق في قبول ذلك أو تركه.

ولاشك أن كل ما سبق مؤثر في مسيرة دهر الإنسان. إذ إن تاريخ الإنسانية كله يدور ـ وفق المقادير ـ حسب تلك الاختيارات التي يختارها الإنسان تبعا لتلك المشيئة المقيدة، ومن ثم يصنع تاريخ البشر.

أما بالنسبة للموروثات فقد حكم الشارع العادة والعرف فيما ليس فيه نص حتى جرى ذلك قاعدة يحتكم إليها الفقهاء والأصوليون وعلماء الاجتماع بأن العادة محكمة، وأن المعروف عرفا كالمشروط شرطا. ولكنه عز وجل ذم من قدم العادات والتقاليد على أوامر الله ونواهيه، فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ الله قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾(البقرة:١٧٠).

أما الظروف المحيطة، أو البيئة كما سماها البعض، فمن حكمة الله تعالى أنه خلق الإنسان من جنس الأرض التي يعيش عليها ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾(طه:٥٥)، وذلك سبب التوافق بين الإنسان ومحيطه الذي يعيش فيه، فهو ـ الإنسان ـ مؤثر فيه وكذلك محيطه يؤثر فيه أيضا. ولكن الفارق أن الله خص بني آدم بالتكريم والتفضيل على كثير من خلقه ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾(الإسراء:٧٠). فبدأ خلقه من طين، سويًا متكلمًا عالمًا بخالقه، مدركًا لهذا الكون المحيط به ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾(التين:٤)، ثم جعل نسله بعد ذلك من ماء دافق، يخرج من بين الصلب والترائب. يقول تعالى: ﴿ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ. الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ. ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلاَلَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ. ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾(السجدة:٦-٩). في حين أهان الإنسان نفسه، وذلك حين جعل بدء نفسه بهيمة عجماء بكماء جهلاء ثم جعل نسله من قرد مهين.

وفي الحلقة القادمة إن شاء الله

تم التاريخ عند المسلمين ويتبعه:

المنهج الإسلامي لدراسة التاريخ وتفسيره

الأمراض النفسية عند الأطفال

د. غُنية النحلاوي-باحثة نفسية

هل يكتئب الطفل؟!

نعم.. حتى القطط والطيور تكتئب.. وبالنسبة لأي إنسان، فإن منظرًا طبيعيًا قاتمًا.. قد يوحي بالاكتئاب..

ولكن هل يصاب الطفل بمرض الاكتئاب؟

لقد بقي هذا الأمر مثار جدل، ولم يعترف به أكاديميًا إلا عام ١٩٧٠م، وبتراكم الخبرات تم التأكد من عاملين كبيرين يقع تحت كل منهما طيف أعراض، وهما:

العامل البيئي: وهذا عامل مؤكد بالمعنى الواسع للبيئة؛ مع التركيز على المعنى الخاص بالبيئة الاجتماعية طوال حياة الطفل، وإبراز الفعل الجوهري للتربية في البيت ثم المدرسة والمجتمع.

ولنضع تحت ملاحظتنا:

- اضطراب نظام النوم.
- مراقبة أفلام العنف والرعب في التلفزيون، وممارسة الألعاب الإلكترونية لساعات طويلة (غالبا ليلًا).
- تفضيل الأخ الأصغر من قبل الأهل ماديًا وعاطفيًا، علنًا وبدون تورية.
- الأثر السلبي للتعرض للضغوط كتلك المتطلبة للوصول لما يفوق مقدرة الطفل جسميًا وعقليًا.
- الاستهزاء وتوجيه الإساءات للطفل من قبل المربين خاصة، وممن هو على صلة بالطفل عمومًا في تلك الحقول الثلاثة (سيما عندما تصل حد الإهانة والضرب).
- أثر فقد أحد الأبوين والبعد عن الأسرة (كما في الدخول المتكرر للمشفى).
- أثر العيش في أسرة يسود فيها العنف الاجتماعي (أب مدمن مثلًا).

العامل الوراثي: وهو عنصر مؤكد، ولكن لم تستكمل دراسته بعد، فلقد تبين في حال توأم حقيقي أن إصابة أحدهما بالاكتئاب يجعل الثاني قابلًا للإصابة بنسبة ٩٠٪ تقريبًا، وفي حال توأم غير حقيقي تهبط تلك النسبة المئوية إلى ١٩٪، لذلك يشدد على عدم زواج الأقارب بوجود قصة عائلية للاكتئاب، إذ يغلب أن النمط الوراثي المتهم هو الوراثة المتنحية.

وتبدأ أعراض الاكتئاب الطفلي بالتدرج بعمر ٤-٦ سنوات، وتتضح بين ٧-١٠ سنوات عند ٤٣٪ من المصابين، وعادة ما يكون الطفل المصاب بالاكتئاب في العاشرة من عمره أو أكثر بقليل.

وهناك عوامل أخرى غير مؤكدة: منها العامل الهرموني، فقد وجد أن الاكتئاب يصيب الأطفال الإناث والذكور بالنسبة نفسها حتى البلوغ، لتغدو الحالات أكثر عند الفتيات بعد البلوغ؛ كما لوحظ أن البلوغ يزيد الاكتئاب سوءًا حيث تزيد نسبة الانتحار بين المصابين بعده؛ علمًا بأن الأعراض في الجنسين تختلف تحت ١٢ سنة عنها فوق ١٢ سنة إذ تقترب هنا من أعراض الكهول.

محاذير

وضع التشخيص.. صعوبات ومحاذير

يقوم الطبيب العام أو طبيب الأسرة بعد التوجه المبدئي لإصابة الطفل بالاكتئاب بتنبيه الأهل لأهمية زيارة عيادة الأمراض النفسية؛ حيث يتم تأكيد أو نفي التشخيص بعد إنفاق وقت طويل في كل جلسة (أكثر من ساعة) مع الطفل والأهل، كلٌّ على

انفراد، مع تجنب الإيحاء خلالها لأبعد ما يمكن، والاستعانة بجداول وسلالم خاصة للعلامات أو الدرجات التي يوضع التشخيص وفقها، ولأن طبيب الأسرة قلما يكون مدربًا على التعامل مع الأمراض النفسية عند الطفل، ولأن تلك الوسائل التشخيصية قد تعوزها الدقة والموضوعية، لذلك يرى العلماء على جانبي الأطلسي أنه من الصعب تشخيص الاكتئاب عند الأطفال، خلافا للكبار، علمًا بأن الخطأ في التشخيص هو مشكلة حقيقية في كل الأعمار تجعل تأكيد المرض لدى البالغ ينتظر عشر سنوات وسطيًا منذ البدء الأول للأعراض (بحسب الدراسات العالمية).

وتتجلى الصعوبة والإرباك بوجود تسميات فرعية للاكتئاب مثل «الاكتئاب الهوسي» و«القلق الاكتئابي».. ووجود اكتئاب ثانوي يظهر بالتوازي مع أمراض غير نفسية (كأمراض الغدد الصماء)، من جهة أخرى تتفاقم مشكلة خطأ التشخيص، وبالتالي إعطاء علاج خاطئ عند الأطفال بسبب القصور الشديد في متابعة ومراقبة أولئك الأطفال ورعايتهم، ويتحمل الآباء وإدارات المدارس المسؤولية الأكبر لفشل المراقبة والمتابعة، إضافة للطبيب، مما يعيق الشفاء العاجل للمرض على أهميته مقارنة مع الكبار الذين قد يستمر المرض عندهم عدة أشهر ثم تختفي أعراضه لفترات طويلة، في حين يتحول إلى مرض مزمن وأكثر خطورة عند الأطفال، كما تقول «بربرا جيلر» أستاذة الطب العقلي للأطفال في جامعة واشنطن.

وقد قدّم فريقها دراسة قارنت بين ثلاث فرق من الأطفال: الفريق الأول لديهم أحد أنواع الاكتئاب الطفلي (الاكتئاب ثنائي القطب أوالهوسي): ٩٣ طفلا، والثاني أطفاله مشخص لهم مرض «نقص الانتباه وفرط النشاط» أو اختصارا «ادهد» (الأحرف الأولى بالإنجليزية من اسم المرض): ٨١ طفلا، والثالث (٩٤) طفلا سليمًا، وقالوا إن سبب المقارنة أن الكثير من الآباء والمعلمين والمهنيين الصحيين يخلطون بين «ادهد» وبين الكآبة الهوسية، وقد يكون السبب التشابه في بعض الأعراض: مثل فرط النشاط والاهتياج وسهولة تشتت الذهن.

لكن أطفال الهوس الاكتئابي ينفردون بأنهم يضحكون في الوقت غير المناسب، وتنتابهم أفكار في غاية المبالغة، مثل توجيه المعلمين حول كيفية إدارة المدرسة، كما يتصفون باضطراب النوم ونقصه، وقد وضحت الدراسة الفرق الكبير بين الفريقين الأول والثاني بعد عام من المتابعة الطبية والاجتماعية الموثقة.

الاكتئاب الطفلي

إضافة لما ذكر من أعراض، فمن الملاحظ أن الطفل المصاب يكون غير قادر على الشعور بالسرور مهما كان المحرض لذلك.. ولديه وجه جامد غير معبر.. وهي علامة تزداد شدة مع تقدم العمر، وهو يميل للانسحاب من النشاطات التي تحتاج لمشاركات اجتماعية كالألعاب والنزهات.. وقد يتقلب مزاجه بشدة بين حاد جدًا.. ولطيف جدًا، مع بطء نفسي وحركي ملحوظ، ونقص القدرة على التركيز والانتباه، وهو ما يؤدي إلى انخفاض الدرجات المدرسية رغم بذل الجهد، ومن ثمّ تعرض الطفل لضغوط من الأهل والمدرسة مما يولد نكدًا وصراعًا يؤدي به لمزيد من الانسحاب والنكوص.. وهذا هو أول طريق الاكتئاب كمرض متكامل! وشعور الطفل- إلى جانب ذلك- أنه مكروه أو غير محبوب من أحد، وقد يلجأ لمناورات للفت الانتباه إليه، مثل البكاء بدون سبب، الشكاوى من آلام متفرقة بالجسم، مثل الصداع وألم البطن، التبول اللاإرادي، التعبير عن الرغبة بالموت، ويتصاعد ذلك مع تطور الشعور بالاضطهاد الى أن تراوده أفكار انتحارية حقيقية.

تطبيق عملي حقيقي

ويمكن معرفة المزيد عن الاكتئاب الطفلي من خلال إيجاز حالة الطفل (س. س) وهو في العاشرة من عمره، وقد قبل في المشفى بشكوى كدمات غير مرضية، لوحظت منذ شهر على الأطراف وأغلبها على الذراع الأيسر، كانت كل الاستقصاءات المخبرية والسريرية ضمن السواء، ولاحظ أفراد الفريق الطبي أن الكدمات كانت تزيد بعد دخوله دورة المياه، وكان يسارع ليريها لهم من تلقاء نفسه، وفيما يلي بعض نتائج اللقاء الأول مع طبيب الأمراض النفسية عند الأطفال والذي استمر ساعتين: وجه الطفل جامد غير معبر مع عدم المقدرة على الفرح مهما حاولت معه (لا ابتسام)، لديه شعور بالإرهاق (عبر عنه بقوله: دائما مكسر)، فكانوا يسخرون منه ويقولون له «أخرق»، وكان هذا يؤلمه بشدة، وعندما سئل عن أهم ثلاث أمنيات له أجاب: ألا يكون هنالك فقر، والثانية: أن يغير أهله، فسأله الطبيب من؟ قال: أمي وأبي، وعندما سئل ماذا يريد أن يكون في المستقبل قال: «محامي.. شغلة نظيفة

ويدافع عن المظلومين»! وهذا الجواب يعكس في نفس الطفل هاجس الظلم الجماعي وليس الأسري فقط.

والطفل يعاني من مزاج متقلب، واضطرابات في النوم، مع تخيلات وهلاوس قبل نومية مخيفة، وقد حكى ذلك لأمه مرة فقالت له: «كذاب»! وتبين أن لديه أفكارًا انتحارية (سم، سكين...)! ولكن دون الوصول لمحاولة التنفيذ!

وهو مصاب بنقص شهية شديد ولديه مخاوف متعددة، أما إنجازه الدراسي فكان متدنيًا رغم الجهود التي يبذلها، وهو يشعر بأنه غير محبوب من أحد.. بالمقابل هو حساس جدًا لآلام الآخرين، وفي القسم بكى من أجل طفل عنده سرطان دم، وقد عبر عن معاناته من غيرة أخوية وفرط عقاب أسري، وقال إنه يتمنى أن يمرض (زكام، حمى...) كي تهتم أمه به، وأجاب عن سؤال مباشر بقوله: «أمي تعتني بي وبملابسي ودروسي، ولكن ليس من الداخل» (بالحرف: مو من جوه)؛ وقد روى قصة مؤثرة وإن كان البعض يراها سخيفة، ولكنها تركت أثرًا عميقًا عنده، فقد اشترى الأهل بالونين له ولشقيقه الأصغر، وعندما تمزق بالون شقيقه مزّق الأهل بالونه.. تألم.. بعد فترة اشتروا لهما لعبتين، وتلفت لعبته، فطلب منهم إتلاف لعبة أخيه فرفضوا، وقالوا له: أنت كبير وتفهم.. وقد بدا الطفل بحاجة للكلام ولأن يُسمع، لا بل يرى أنه من الأفضل أن يبقى في المشفى على أن يذهب إلى بيته ويراجع العيادة النفسية أسبوعيًا.. وكان صديقنا الطفل «س» محقًا.. لأن الأهل بعد خروجه، ورغم الشرح المطول من الطبيب انقطعوا عن المتابعة، وامتنعوا عن الرد على الاتصالات الهاتفية.. رغم المحاولات المتكررة!

علاج اكتئاب الأطفال

الخبر السار هو أن الاكتئاب الطفلي مرض قابل للعلاج، ولكن مفتاح العلاج هو التشخيص المبكر كما تقول «د.بربرا»، وضمانته المتابعة الطويلة المستمرة مع تغيير العوامل البيئية السلبية المحيطة ما أمكن، ولعلاج الأطفال المصابين أربع مكونات:

١- الأول والأهم معالجة نفسية سلوكية بتكرار دوري، يفضل أن يكون أسبوعيًا، في عيادة مؤهلة.

٢- التواصل مع الأهل وتوعيتهم بشكل كامل بحالة الطفل، وكيفية إظهار الحب والحنان له، ونهيهم بشكل قاطع عن الممارسات اللاتربوية والأخطاء التي تزيد حالته سوءًا، وإحلال الممارسات الصائبة والصالحة محلها لتسريع الشفاء.

٣- العلاج باللعب: إدماج الطفل في نشاطات صحية ومسلية: مثلا في نادٍ صيفي، أو جعله يمارس رياضة محببة، سواء كان منفردًا أو وسط مجموعة أطفال.

٤- العلاج الدوائي: لم يسمح بالمركبات الدوائية عالميًا حتى ٢٠٠٦- ٢٠٠٨ باختلاف الدول، وهي تبقى غير مفضلة إلا ضمن شروط منها: فشل العلاج النفسي السلوكي، والاكتئاب الشديد، لاسيما المترافق مع اضطراب نفسي آخر كالكآبة الهوسية، وكحالة طفلنا «س» التي شخصت «قلق اكتئابي شديد» والذي يخشى أن يصل بالطفل المصاب للانتحار (فقد ذكرت د.بربرا أن ربع الأطفال المصابين بالاكتئاب الهوسي يفكرون بالانتحار جديًا ومنهم من ينتحر!).

وفي ختام البحث: لأن الوقاية أهم من العلاج كما نعلم، فالأجدى أن نبدأ بتربية الأبوين قبل تأسيس الأسرة ليكونا متكاملين سكنًا ومودة ورحمة (سورة الروم: آية ٢١)، وكما أن التحصين ضد الأمراض السارية المعدية يكون بالتطعيم (التلقيح) هو شمولي لجميع أطفال الأمة، ويستقطب اهتمام الكثير من المؤسسات، فإن التحصين ضد الأمراض النفسية والاجتماعية أصبح ضرورة ملحة في هذا الزمن، نحن أحوج ما نكون إلى مجتمع يحقق الحرية المنضبطة والكرامة، وإلى أسر تسودها السكينة وتخلو من الصراع، وتنخفض فيها حدة وعدد التوترات، وتطبق فيها الأصول التربوية الصالحة المصلحة؛ ولا يقلل من أهمية كل ذلك أن بعض الأمراض النفسية فيها عنصر وراثي، إذ إن العوامل البيئية والتربوية المسيئة لها اليد الطولى في جعل المرض النفسي الطفلي يطفو على السطح ويتفاقم في سيره وشدته، وكأني بالسكينة والطمأنينة التي كانت مطلبًا لبناء الأسر ثم زُهِد فيها بالنسبة لسواد المجتمع، بل أعرض ويعرض عنها شبابه- كأني بها عادت لتغدو أمنية بحق.. وأمام فوائد السكينة وضروراتها الملحة غدا «البحث عن السكينة في الزمن الصعب» أمرا يستحق الجهد.

الحل البديل في الرأي الأصيل!

هنادي الشيخ نجيب -كاتبة لبنانية

قرأت عبارة- يا إخوتي- أريد أن أطرحها على بساط البحث بين أيديكم، لنستخلص منها الفكرة والعبرة.
وهي «ليس كل صحيح مرغوبًا، وليس كل مرغوب صحيحًا»، الأمر ليس- كما يبدو لكم- مجردًا.. وانطلاقًا من واقع «الخلاط» الذي نعيش فيه، دعونا نطرح أسئلة عدة، لنكتشف حجم الهوة التي تمنعنا عن فعل المرغوب الصحيح.. كيف نقنع الناس بالإقبال على كل عمل صحيح حتى وإن لم يكن في بداية الأمر مرغوبًا؟! وكيف نمنع جماهيرنا الغفيرة من فعل المرغوب عندما لا يكون صحيحًا؟!
لا أقصد من هذا الطرح الخوض في مسائل فلسفية، وإنما أرغب باقتباس خطوات عملية، تؤخذ على محمل الجدية، ليصير كل صواب مرغوبًا ومطلوبًا ومحبوبًا!

بعد البحث والتدقيق، وإجراء استفتاء سريع، لكنه شامل وعميق، تبين لنا أن الخطوة الأولى في ضبط الفلتان الفكري والقيمي هي توافُر صفة «أصالة الرأي» أو «سداد الرأي»، وتحويلها إلى سمة تميز أفرادنا لتحفظ جماعتنا!

ففي حين تمتلئ حياتنا بالقرارات الصعبة، ونجد أنفسنا في أتون الظروف المشتعلة، نحتاج إلى من هو معتدل المزاج، متبصر في مبادي الأمور، حسن التدبر في عواقبها، عارف بما تؤول إليه من الخطأ والصواب.. ذلكم هو «أصيل الرأي».. وأظن أننا في هذه الفترات العصيبة نحنُّ للإيواء إلى ركن أولئك الحكماء، حتى لا تدب فينا الفتنة ويحصدنا البلاء!

فأصيل الرأي هو الذي ينظر إلى الغيب ببصيرة متنورة بالشرع الحنيف والسنة المطهرة، ثم يفتح أبواب الحلول، ويزيل الاضطراب، ويغتنم الفرص، ويوظف الطاقات فيما يستجلب الخير ويدفع الشر.

لقد مدح أعرابي رجلًا متصفًا بهذه الخصلة الشريفة فقال فيه: «إنه ليغسل من العار وجوهًا مسودة، ويفتح من الرأي أبوابًا منسدة».

ولأننا نشعر بأن الأبواب قد أغلقت في وجوهنا، والشر متربص بنا متحدثًا بألف لسان ولسان، بات حقًا علينا البحث عن أصيلي الرأي والعقلاء، ليضعوا على المحك ألف حكمة وحكمة!

وبما أن «أصيل الرأي» يدفع عن نفسه وعن قومه شرورًا كثيرة، ويستجلب لنفسه ولقومه خيرات وفيرة، ولا يغتر بالمظاهر والمباني، وعينه دائمًا على الجواهر (جمع جوهر وليس جوهرة) والمعاني، فتعالوا نقدح زناد فكرنا لنتعرف عن كثب على صاحب المعالي أصيل الرأي، من خلال قصة- تتطلب التفاعل- بعنوان: «قرار.. على سكة القطار!»..

اجتمع عدد من الأطفال ليلعبوا بجوار خطين لسكة الحديد، أحد الخطين سليم والآخر معطل، وبينما اختار طفل واحد أن يلعب بجوار سكة الحديد المعطلة، اختار الباقون سكة القطار السليمة ملعبًا لهم.

أريد منكم- قراءنا الأفاضل- أن تشاركوا معي في تخيل تداعيات القصة، كما لو أننا جميعًا نقف على أرض الحدث..

أقبل القطار، وعلينا أن نقرر: هل نترك القطار يمر على سكته السليمة، فتقتل المجموعة الكبيرة من الأطفال؟ أم نغير مساره ونحوله إلى السكة المغلقة، ونضحي بحياة الطفل الوحيد الذي يلعب عليها؟!

وقبل أن نتخذ قرارنا بإزهاق روح أو أرواح، يجب أن نتوقف قليلًا للتفكير والتحليل..

فإذا اعتبرنا أن إنقاذ عدد من الأطفال على حساب طفل واحد هو تصرف حكيم، من الناحيتين المنطقية والعاطفية، إذن سنغير مسار القطار!

ولكن.. ألم يتبادر إلى أذهانكم أن الطفل الذي اختار اللعب على الخط الملغي قد اتخذ قرارًا سليمًا، ومكانًا آمنًا.. فلماذا إذن نضحي به بسبب غفلة ارتكبها عدد أكبر من الأولاد الذين اختاروا مواجهة الخطر واللعب على خط التهديد؟!

قد نعتبر- وبسبب ضغط الموقف- أن الطفل الواحد أقلية، والتضحية به لا تثير شفقتنا، واحتمال ألّا نذرف عليه الدموع كثيرًا، خاصة إذا استحضرنا عملنا البطولي في إنقاذ عدد أكبر من الأطفال، إلا أن الرأي السديد، والحق والمنطق والعدل، يفرضون علينا عدم تغيير اتجاه القطار، وللأسباب التالية:

الأطفال الذين اختاروا المسار السالك، سيلوذون بالفرار عند سماع صفارة القطار، لأنهم يعلمون بأنها خط سير نشط، أما إذا قررنا تحويل المسار، فسوف يموت الطفل الوحيد حتمًا! لأنه لن يخطر بباله مرور القطار من جهته، كما أن احتمال انحراف القطار عن سكته إلى خط مهجور سيعرض حياة الركاب لخطر الموت!

إنها قصة كل واحد منا يريد أن يتخذ القرار قبل مرور القطار، والمطلوب أن نفكر كثيرًا ونحلل طويلًا، بما يعيننا على التماس الرأي الأصيل، لإيجاد الحل البديل، ونزع أي فتيل، قد يغرقنا في بحر الدماء المسفوكة أو الغفلة المهلكة!

جامع ومدرسة ابن قيم الجوزية في مدينة «إزرع» جنوب سورية

ياسر محمد أبونقطة
باحث وإعلامي- درعا- سورية

تشتهر مدينة ازرع الواقعة في سهل حوران على الأطراف الغربية لمنطقة اللجاة بآثارها الجميلة العائدة لمختلف العصور، مثل كنيسة مارجرجيوس وكنيسة مارإلياس، والجامع العمري الكبير، إضافة للعديد من الأبنية الأخرى العائدة لمختلف الحضارات الإنسانية.

وهذا ليس غريبًا عليها فهي من المدن الكنعانية المهمة في الألف الأول قبل الميلاد، وحاضرة مزدهرة في الفترة الكلاسيكية، ومن المدن الإسلامية المهمة بدليل وجود جامع يعتبر من أقدم الجوامع في العالمين العربي والإسلامي.

ومن بين الصروح الإسلامية يوجد بناء لا يعرف عنه الكثير، على الرغم من كونه يخص أحد العلماء البارزين في العالم الإسلامي.. إنه جامع ومدرسة ابن قيم الجوزية.

وابن القيم هو: شمس الدين الزرعي، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز الزرعي، الإمام الحافظ، إمام الجوزية وابن قيمها، ولد سنة ٦٩١- ٧٥١هـ/ ١٢٩١- ١٣٠٥م، اشتغل بالحديث والتفسير والفقه، ومحاربة البدع، تأسيًا بشيخه ابن تيمية رحمه الله(١).

وكان عالمًا ومفسرًا للمذهب الحنبلي، وقد ألف أكثر من خمسين كتابًا، من أهمها:

«زاد المعاد»، «إعلام الموقعين»، «أحكام أهل الذمة» وغيرها، توفي سنة ٧٥١هـ، رحمه الله(٢).

والبناء المقصود عبارة عن كتلة معمارية واقعة وسط المدينة القديمة، في مكان قريب من البركة والجامع العمري، لكن عملية ترميم وإعادة بناء قد شهدها، فأصبح مؤلفًا من كتلتين، واحدة تسمى المدرسة، وتقع شمالاً، والأخرى هي الجامع.

المدرسة

عبارة عن أربع غرف تنفتح باتجاه الغرب، أرضيتها مبلطة بالقطع البازلتية الجميلة، وتتوزع في المكان أعمدة حلزونية بالغة الدقة والجمال، يبدو أنها من عصر أقدم، ربما دير مسيحي من الفترة البيزنطية، نظرًا لكثرة أشكال الصليب.. وهذه المدرسة لا تزال ملكًا لإحدى عائلات مدينة ازرع، وأصبحت بعد ترميمها بحالة جيدة، ولقد قسمها الطريق المارّ من الغرب للشرق إلى قسمين، مدرسة وجامع في الجنوب بعد أن كانا يشكلان وحدة معمارية واحدة(٣).

القسم الجنوبي من بناء المدرسة

الجامع

يقع الجامع وسط المدينة القديمة بمكان مليء بالبقايا الأثرية العائدة لمختلف العصور، غير بعيد عن الجامع العمري حوالي ١٥٠م باتجاه الجنوب الغربي، وهو للصلوات الخمس العادية دون الجمعة، والسبب مساحته الصغيرة، وعدم وجود منبر لأداء الخطبة، فهو بذلك مصلى وليس جامعًا بكل ما تعنيه الكلمة.

يوجد في الغرب منه بيت حديث البناء، قديم العناصر، في غاية الجمال والإتقان، حيث تتقدم الطابق العلوي منه ثلاثة أقواس حدوية، ترتكز على عمودين رشيقين بتيجان هندسية، أما من الشمال فيقوم بيت منخفض المستوى، حديث البناء، قديم العناصر، يضم عشرات الأعمدة والتيجان البيزنطية الطراز التي يظهر أنها تخص بناءً مسيحيًّا فخمًا (كنيسة) من العصر البيزنطي، ويصل امتدادها جنوبًا حتى الجامع القديم وربما أكثر من ذلك(٤).

لم نتمكن من معرفة تاريخه الدقيق وذلك لعدم ذكره في المصادر التاريخية والأثرية المتخصصة كافة، على الرغم من قيمته الكبيرة وأهميته المعمارية والأثرية، ولافتقاره للكتابات التأسيسية الدالة على فترة بنائه الأصلية والمراحل والأحداث التي تعرض لها.

لذا كان لزامًا علينا دراسته بشكل ميداني والتمعن به مطولاً وبشكل هادئ، ومحاولة تقدير عمره مما أوتينا من خبرة ومعرفة، وإن اعتبرت الإشارة الأولى له فهي بلاشك خطوة في غاية الأهمية لإيجاد دراسة لهذا الصرح القيم، ودعوة لمن يعرف الكثير عن أمكنة كهذه لمساعدتنا للوصول إلى الصواب، وإلى ذلك الحين سنتمتع بالجرأة والمبادرة تجاه وضع الدراسة الأولى له أمام الجميع، حيث يمكن المتابعة اعتبارًا منها إلى الحالة الموثقة له لاحقًا..

من حجر البازلت الأسود المحلي المنحوت بدقة بني هذا الصرح الصغير، وأغلب حجارته تخص البناء الديني المقدس القديم، ونقصد الكنيسة المسيحية والمعبد الوثني من قبل، بدلالة الهيكل الجميل (المحراب الحالي) الموجود في صدر الجدار القبلي، مع جلب بعض العناصر من الأبنية المحيطة.

إن الطريقة التي بني بها هذا الجامع هي محاولة الاستمرار بالفن المعماري السائد في المنطقة منذ أقدم العصور، والذي يعتمد على الأقواس المرتكزة على أعمدة بتيجان وسقوف حجرية من ربد وميازين.

لكن المعماري المسؤول عن إشادته لم يكن بذلك المستوى المتقدم الذي يؤهله لتقديم بناءً قوي عصيٍّ على العوامل الطبيعية على الأقل، فارتكب أخطاءً فادحة في موضوع النسب، فحدث أن جعل كتلتي القنطرتين والسقف من فوقهما تنصب جميعها دون تخفيف من حملها على العمود الوحيد القائم في منتصف القاعة، وهو فيما عدا ذلك عمود محزز بشكل مائل من الفترة البيزنطية، تعلوه قاعدة عمود جعلت خطأً كتاج، وحملها هي الأخرى بات منصبًا للأسفل باتجاه العمود، وقيامه بعد ذلك بمحاولة تصغير حجم العناصر السفلية للقنطرتين عند التقائها بالتاج المفترض للعمود، ما أدى بالتالي إلى ضعف هذه الأجزاء المتعرضة لضغط علوي شديد كحال العمود الذي تآكلت سطوحه بشكل مخيف يدعو للقلق وراحت تسقط كالقشرة.

يبلغ طول الضلع الداخلي للجامع جهة شمال جنوب ٧,٤٥م، و٨,٤٥م

غرب شرق، أما من الخارج فالضلع الشمالي الممتد شرق غرب ٩,٣٥م، و٨,٢٠م للضلع الشرقي شمال جنوب بارتفاع تقريبي للمستوى الحالي للمكان ٤م يوجد جدار حجري للشرق من الجامع يبتعد عنه حوالي ٣,٨٥م، وهناك أساس لجدار قديم يحيط بالجامع من جميع الاتجاهات يبعد عن الضلع الغربي مسافة ٣,٧٥م، يبدو أنه كصحن خارجي محيط بهذا الجامع(٥).

يبلغ طول الضلع الغربي مع بقايا المئذنة حوالي ١١,٨٥م وهي التي بقي منها ما أبعاده ٢,٢٥ م.

الجدار الشمالي: يوجد وسطه البوابة الرئيسية للبناء وهي بأبعاد ١,٢٠م للعرض بارتفاع حالي ١,٧٠م حيث تغطيه كميات من الحجارة المتراكمة، يعلوه ساكف قديم مستطيل الشكل يحمل كتابة في وسطه استطعنا قراءتها لأول مرة على الرغم من عدم وضوحها جيدًا وجاء فيها:

الملك للـه العظيـم

ثم حجر مفرغ على شكل نافذة فيه عمودان مع قوس نصف دائري، ووردتان كل واحدة منهما في أعلى كل جهة، وقناتان حجريتان من كل جهة لتصريف المياه كمزاريب الغربية مكسورة.

الجدار الغربي الخارجي حالته جيدة فيه باب عرضه ١,٥٠م ارتفاعه الحالي ٧٠سم، للجنوب منه تقوم نافذة بأبعاد ٥٠ × ٥٠ سم.

وثمة كتابة أخرى على هذا الجدار وتحديدًا في زاويته الشرقية وفيها ما استطعنا قراءته للمرة الأولى:

لا إله إلا الله محمد رسول الله

الجدار الشرقي من الخارج حالته جيدة في نافذتين، الشمالية منها بأبعاد ٨٥سم للارتفاع و٥٠ سم للعرض، أما الجنوبية فهي في أقصى الجنوب وأبعادها ٧٠سم للارتفاع × ٥٠ سم للعرض، ومزاريب هذا الجدار من مادة الحديد.

الكتابة الإسلامية على المدخل الشمالي للجامع

الضلع الجنوبي غير واضح المعالم، وذلك لوجود أبنية حجرية حديثة ملحقة، فهناك غرفة مستطيلة غرب شرق عرضها ٢,١٠م، وجدار بعرض ٧٠سم.

السقف

يقوم السقف على مبدأ الربدان والميازين، كحال جميع الأبنية القديمة بحوران، ثم طبقة من الكلس والخفان والذي تقوم فوقها كمية كبيرة من الأتربة، وتضم نماذج فخارية كثيرة يبدو أنها مجلوبة من منطقة قريبة، والقسم الغربي من السقف بحالة سيئة للغاية، وقد تعرضت مساحة منه للسقوط، أما الباقي فبحالة غير مستقرة، وكذلك القسم الشرقي ولكن بدرجة أقل.

في أقصى غرب القسم الجنوبي من السقف يوجد تصدع كبير وسقوط لبعض الربدان بمساحة ٢×٢م، والقسم الشرقي بحالة شبه معقولة.

المئذنة

تقع في الزاوية الجنوبية الغربية من البناء، وهي مهدمة ولم يبق منها إلا ارتفاع ٢م وأبعاد علوية ٢,٧٠× ٢,٧٠م، ولها باب من الأسفل يفضي لغرفة مستطيلة يبدو أنها تحمل المئذنة الصغيرة التي لها باب من الغرب وآخر من الجنوب، ولا نعلم متى تهدمت هذه المئذنة، ولا كيف كان شكلها، وكم كان ارتفاعها، وما هي الفترة التي بنيت بها.

المحراب

يقع وسط الجدار الجنوبي الداخلي كما جرت العادة، وهو عبارة عن قطعة واحدة رائعة الجمال، وتعد بلاشك من أجمل الفنون الممكنة،

قوامها أربعة أعمدة، اثنان منها في اليمين وآخران في اليسار، مع وجود فراغ بين كل عمودين بما مقداره ٧سم تم ملؤه بكسر من الحجارة والطين، وطول الفراغ الحاصل بين كل عمودين (جسم المحراب) حوالي ٩٧سم.

للأعمدة تيجان آيونية وتغطي سطح الحلزونات ورقة أكانثا فيها أشكال بيضوية في الوسط، يعلو التيجان قوس نصف دائري، ويوجد شكل لوردتين نافرتين من على يمين ويسار القوس، ثم شكل نباتي تعلوه ورقة في رأس المثلث.

هذا الهيكل يبدو أنه يخص معبدًا وثنيًا قديمًا، قد يكون في المكان نفسه، أو أنه منقول من مكان آخر، ومن المفيد في هذه المناسبة أن نشير إلى وجود أبنية أرضية تحت مستوى الجامع، خاصة في الجهة الجنوبية منه، ويمكن مشاهدتها من خلال محراب الجامع.

الحالة الإنشائية

الجامع مهجور منذ فترة تزيد على ٤٠ عامًا، ويبدو أنه مصلى صغير للصلوات الخمس ما عدا الجمعة، وذلك لعدم وجود منبر فيه، ولصغر مساحته، وقربه من الجامع العمري الكبير.. الجدران مطلية بطبقة من الطين والتبن، وفيه أوساخ وأتربة، ولا تزال الردميات تتوالى عليه من المنطقة المحيطة به، نتيجة الجهل بقيمته ولعدم وجود عناية به.

أرضيته مليئة بالردميات والأتربة والحجارة، وهناك حفرة عشوائية للباحثين عن الكنوز في الزاوية الشمالية الشرقية، سبر بعرض ١,٥ غرب شرق وحوالي ٣م شمال جنوب بعمق ٢م، أدى هذا السبر إلى كشف أرضيته الحجرية المرصوفة وأساساته الأصلية.

القسم الداخلي للجامع

إن القسم الغربي من السقف في الجانب الشمالي بحالة سيئة، وقد تعرضت بعض عناصره للسقوط، والباقي بحالة غير مستقرة، أما القسم الشرقي منه فبحالة شبه معقولة، والزاوية الجنوبية الغربية بحالة غير جيدة ومتصدعة للخلف.

مقترحات للترميم

١- فك وإعادة تركيب السقف بشكلٍ كامل.

٢- تحسين وتقوية الزاوية الجنوبية الغربية من الداخل.

٣- تنظيف وتعزيل وترحيل الأتربة الموجودة في أرضية الحرم والصحن المفترض وإعادة تبليطها بالحجر.

٤- كشف وتعزيل الردميات والأتربة من الصحن المحيط بعرض ٢,٥م(٦).

وقد بدأت دائرة آثار درعا حاليًا بمشروع إعداد دراسة وكشف هندسي يخص ترميم هذا الصرح المجهول، والبالغ الأهمية. بغية إعادة الحياة إليه واستثماره من جديد، سيما أن هنالك غيرة كبيرة عليه من قبل عدد من المهتمين بالتاريخ والآثار والفقه الإسلامي.

الهوامش

١- سورية الجنوبية حوران، منير الذيب- دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع- سورية دمشق ٢٠٠٤- ص ١٣٢.

٢- أصقاع حوران فيما سمي بالدير والخان، للشيخ محمد فرحان حسن الحريري المتوفى سنة ١٣٦١هـ، تحقيق د.محمد فتحي راشد الحريري- ص ٢٧.

٣- دراسة ميدانية قام بها ياسر أبونقطة في عام ٢٠٠٥م.

٤- اضبارة في دائرة آثار درعا لعام ٢٠٠٥م.

٥- تاريخ آثار وتراث حوران، بركات الراضي- دمشق ٢٠٠٢م- ص ٢٧.

٦- مقترحات أعدها رئيس شعبة التنقيب في دائرة آثار درعا ياسر أبونقطة لترميم الجامع.

الشيخ أحمد ابن محمد الأمين بن أحمد المختار الجكني في ذمة الله

هو الشيخ أحمد بن محمد الأمين بن أحمد بن المختار المحضري، ثم الإبراهيمي، ثم الجكني، ولد أول العقد الخامس من القرن الرابع عشر، وعاش بين أبويه إلى أن بلغ سن التعليم، وكان والده إذ ذاك رئيس قبيلته، ورئيس المحاكم الشرعية، وكان الاستعمار الفرنسي يشدد وطأته على الرؤساء لأخذ أبنائهم للتعليم، فبسبب ذلك دفعه والده لتعلم اللغة الفرنسية، وذهب إلى محلة تدعى: «أبا تلميت» حيث مقر الدراسة هناك، واستمر في تلك الدراسة حتى أكمل المرحلة الابتدائية، ثم توفي والده -رحمه الله- وبقي يتيما، ولكن كانت له همة عالية حملته على النبوغ المبكر.

ولما بلغ وأدرك أنه من أسرة ذات علم أقبل على التعليم وانقطع له، فذهب إلى محضرة مشهورة هناك تسمى: «محضرة أهل ديدي» فلازم بها الفقيه سيدي جعفر الملقب بـ«الصحة»، ولم يزل في تلك المحضرة حتى قرأ «مختصر خليل» وأعاده ثانيا، وقرأ القواعد الفقهية المعروفة عند المالكية بقواعد الفقه وهي «المنهج» للإمام الزقاق وتكميله لـ:«مياره» وكلاهما مالكي.

ولما انتهى من الدراسة بدأ يحاول التجارة فلم تصلح له، وسافر سنة أربع وسبعين وثلاثمائة وألف إلى الحجاز، وأدى فريضة الحج، ثم لزم الشيخ محمد الأمين الشنقيطي صاحب أضواء البيان (آب ولد اخطور رحمه الله)، وسافر معه إلى الرياض فأحسن صحبته، وصار من أخص تلاميذه وأكثرهم انتفاعا بعلمه.

ولم يزل في المملكة العربية السعودية بعد أن تقلد الوظيفة فيها

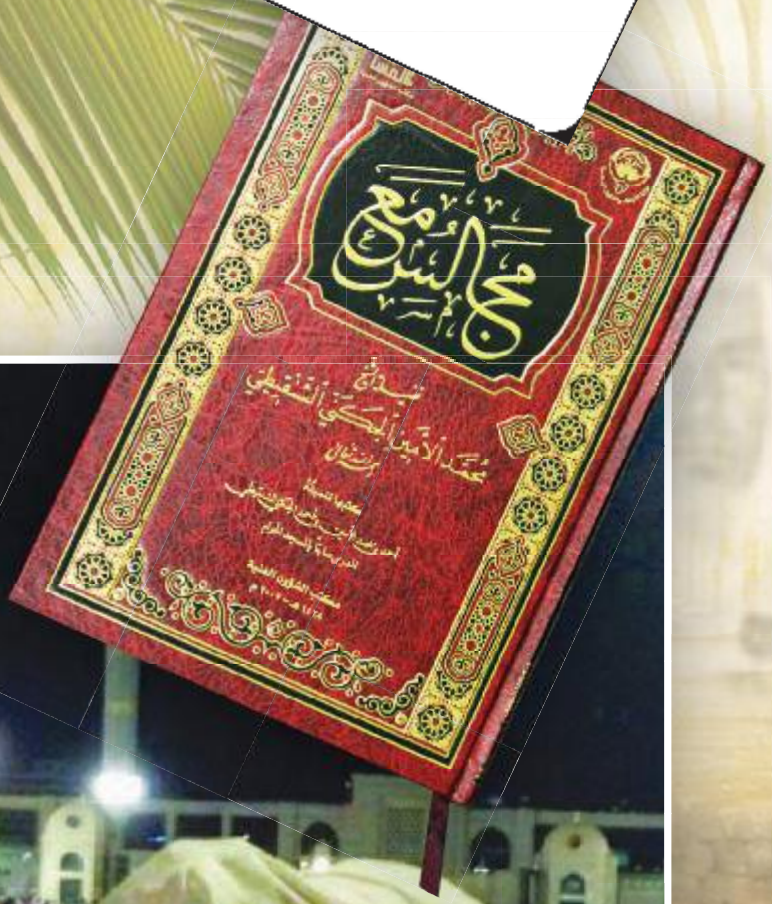

إلى أن استقلت موريتانيا، وعندئذ تاقت نفسه إلى رؤية مسقط رأسه بعد تحرره من المحتل الغاشم، فذهب إلى موريتانيا وشغل فيها عدة مناصب في وزارة الخارجية، ثم بدا له أن يترك ذلك ويرجع إلى الوطن الثاني، فذهب إلى الحجاز، وشغل عدة وظائف في وزارة الإعلام، ثم في سنة ١٣٩٨هـ، كرم بنقله إلى الحرم المكي للتدريس فيه، وعين مدرسا بالمعهد في الحرم المكي.

ومن أهم ما أسند إلى الشيخ تدريسه: أصول الفقه، وأصول التفسير وألفية ابن مالك، وكان ممتلئا علما، له اليد الطولى في أنساب العرب والسيرة النبوية والأدب والتاريخ، أما الفقه وأصوله فهما فنّاه اللذان تخصص فيهما، ولم يزل مدرسا إلى سنة ١٤٠٨هـ، حيث تقاعد.

وللشيخ عدة مؤلفات منها:

- مواهب الجليل من أدلة خليل «في أربعة مجلدات».
- وله تحقيق وتكملة «عمود النسب» في أنساب العرب، في ثلاثة مجلدات.
- وله «اختصار زهر الأفنان على حديقة ابن الونان» في الأدب وثلاثتها مطبوعة.
- وله نظم يبلغ ثمانمائة بيت في البلاغة.
- وله شرح لمنظومة لعمته أم الخيرات في معجزات النبي ﷺ.
- وله شرح على لامية الأفعال.
- وله تهذيب لشرح الشيخ محمد الأمين بن أحمد زيدان على المنهج.

اختاره الله لجواره يوم الخميس ١٤٣٤/٩/٩هـ الموافق ٢٠١٣/٧/١٨م بمدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

إعداد : محمود محمد الكبش
الباحث بوحدة البحث العلمي
-إدارة الإفتاء-

تعريف الحيل الشرعية .

فالحيلة في اللغة: الحذق وجودة النظر والقدرة على دقة التصرف، ورجل حول حوالي: محتال شديد الاحتيال، ويقال: رجل حوالي؛ للجيد الرأي ذي الحيلة. فهي الحذق في تدبير الأمور، وهو تقليب الفكر حتى يهتدي إلى المقصود. (اللسان: ١٨٥/١)، (المصباح المنير: ١٥٧/١).

وهي في الاصطلاح: «ما يكون من الطرق الخفية إلى حصول الغرض، وبحيث لا يتفطن له إلا بنوع من الذكاء والفطنة، فإن كان المقصود أمرا حسنا؛ كانت حيلة حسنة، وإن كان قبيحا؛ كانت قبيحة» (الفتاوى الكبرى لابن تيمية: ١٩١/٣). أو هي: «تقديم عملٍ ظاهر الجواز؛ لإبطال حكم شرعي، وتحويله في الظاهر إلى حكم آخرً». (الموافقات: ٢٠١/٤).

ثم صارت الحيلة في عرف الفقهاء إذا أطلقت مقصودا بها الحيل التي يستحل بها المحارم؛ كحيل اليهود؛ فكل حيلة تضمنت إسقاط حق الله أو الآدمي؛ فهي تندرج فيما يستحل بها المحارم». ويشهد لهذا العرف قول النبي: «لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود؛ فتستحلون محارم الله بأدنى الحيل» (أخرجه ابن بطة في «جزء في الخلع وإبطال الحيل»: ص٢٤)، وجود إسناده ابن كثير في تفسيره. ينظر: (الفتاوى الكبرى: ١٩١/٣).

أنواع الحيل الشرعية.

قال الحافظ ابن حجر تعليقا على ما بوب به الإمام البخاري في «صحيحه» بقوله: «كتاب الحيل؛ باب في ترك الحيل، وأن لكل امرئ ما نوى في الأيمان وغيرها»: «وهي (أي الحيلة) عند العلماء على

فتاوى الوعي

بعض الأحكام المتعلقة بالسمسرة

(٣٣٢١/١٩٠/١١)

عرض على «لجنة الفتوى» بدولة الكويت الاستفتاء التالي، ونصه:

١ - بعض تجار العقار في حالة بيعه عقارا لدى أحد الدلالين يشترط بأن يكون له جزء أو نسبة متفق عليها مع الدلال من قيمة الدلالة تحسب له، ويقوم الدلال بعد بيع العقار، وتسلم قيمة الدلالة من المشتري بإعطاء هذا التاجر الجزء أو النسبة المتفق عليها، هل هذا جائز شرعا؟

٢ - بعض تجار العقار يفتح مكتب عقار لوحده، أو مع شركاء، ويقوم بعرض عقاراته في مكتبه، ويحصل على قيمة عقاراته، وكذلك رسوم الدلالة بعد بيع العقارات، هل يجوز ذلك شرعا؟

٣ - في حالة الشراء؛ هل يجوز أن يتفق المشتري مع الدلال على أن يدفع المشتري جزءا، أو نسبة متفقا عليها من الدلالة، وليس الدلالة كاملة باتفاق الطرفين. هل يجوز ذلك شرعا؟

فأجابت اللجنة بما يلي:

١ - اتفاق البائع مع الدلال على اقتسام أجرة الدلالة بينهما اتفاق غير لازم، فإذا دفع الدلال الجزء المذكور للبائع بعد البيع طائعا فللبائع أخذه، وهو هبة مبتدأة.

٢ - ما يتفق عليه تاجر العقار مع المشتري من الثمن وأجرة السمسرة (الدلالة) بمجموعه ثمن للعقار، وهو جائز.

٣ - أجرة السمسرة (الدلالة) هي ما يتفق عليه بين السمسار (الدلال) والمشتري، وعلى ذلك؛ فيجوز أن يتفقا على أي مبلغ يريانه مناسبا أو أكثر. والله أعلم.

أخذ الأجرة على السمسرة

(٦٦٧٧/١٤٥/٢١)

عرض على «لجنة الفتوى» بدولة الكويت الاستفتاء التالي، ونصه:

موظف يعمل بمكتب سمسرة العقار، وله راتب، ونسبة من سمسرة البيع والشراء؛ مقدارها الثلث، وذلك بالاتفاق مع صاحب المكتب الذي يعمل به، وقد قام الموظف بجلب عقار وعرضه على صاحب المكتب الذي يعمل به الذي قبل بشرائه.

السؤال: هل يحق للموظف المذكور أعلاه أخذ نصيب من قيمة سمسرة العقار، حيث رفض المكتب الآخر الذي لديه العقار تناصف السمسرة مع الموظف؟

فأجابت اللجنة بما يلي:

إن هذا الموظف إن كان ما قام به هو من صميم عمله في الشركة؛ فلا يجوز له أن يأخذ شيئا على ما قام به، وأما إن كان ما قام به لا يدخل في عمله في الشركة؛ فإنه لا يجوز له أن يباشره إلا بإذن من صاحب المكتب؛ فما ارتضاه أخذه، وما لم يرتضه لا يأخذه، والله أعلم.

أقسام بحسب الحامل عليها؛ فإن توصل بها بطريق مباح إلى إبطال حق، أو إثبات باطل؛ فهي حرام، أو إلى إثبات حق، أو دفع باطل؛ فهي واجبة أو مستحبة، وإن توصل بها بطريق مباح إلى سلامة من وقوع في مكروه؛ فهي مستحبة أو مباحة، أو إلى ترك مندوب؛ فهي مكروهة». (فتح الباري: ٣٢٦/١٢).

ويمكن حصر الحيل الشرعية باعتبار الاتفاق على حكمها من عدمه في أنواع ثلاثة؛ وهي:

النوع الأول: حيل مجمع على تحريمها وبطلانها؛ وهي ما يتوصل بها إلى محرم يهدم به أصل شرعي، أو يناقض مصلحة شرعية؛ كالردة لفسخ النكاح.

النوع الثاني: حيل مجمع على جوازها وإباحتها؛ كالنطق بكلمة الكفر عند الإكراه مع اطمئنان القلب.

النوع الثالث: حيل مختلف فيها، وهي ما لم يتبين موافقتها لمقصد الشارع أو مخالفتها له بدليل قاطع؛ مثل النكاح بنية الطلاق، وغيرها من المسائل.

أسباب الوقوع في الحيل.

بين شيخ الإسلام ابن تيمية أسباب الوقوع في الحيل بقوله: ولقد تأملت أغلب ما أوقع الناس في الحيل فوجدته أحد شيئين:

- إما ذنوب جوزوا عليها؛ بتضييقٍ في أمورهم؛ فلم يستطيعوا دفع هذا الضيق إلا بالحيل؛ فلم تزدهم الحيل إلا بلاء؛ كما جرى لأصحاب السبت من اليهود، وكما قال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾، وهذا الذنب ذنب عملي.

- وإما مبالغة في التشديد؛ لما اعتقدوه من تحريم الشارع؛ فاضطرهم هذا الاعتقاد إلى الاستحلال بالحيل، وهذا من خطأ الاجتهاد، وإلا فمن اتقى الله، وأخذ ما أحل له، وأدى ما أوجب عليه؛ فإن الله لا يحوجه إلى الحيل المبتدعة أبدا؛ فإنه سبحانه لم يجعل علينا في الدين من حرج وإنما بعث نبينا ﷺ بالحنيفية السمحة. (القواعد النورانية الفقهية: ص١٣٠-١٣١).

التوسط في بيع عقار لمن سيستغله في المعصية

(٢٩٤٨/١٩٣/١٠)

عرض على «لجنة الفتوى» بدولة الكويت الاستفتاء التالي، ونصه:

أرادت مؤسسةٌ التوسطَ في بيع بناء جديد، وهو معد أن يكون فندقا يسكنه الناس، فاعترض أحد أفراد المؤسسة على أن الفندق في غالب الأحوال يباع فيه الخمر؛ فلا يحل لنا أن نأخذ عمولة هذه البيعة.. فهل يصح هذا الحكم؟

فأجابت اللجنة بما يلي:

ترى اللجنة أن بيع المبنى إذا ظن البائع أو غلب على ظنه أنه سيفعل فيه منكر من المنكرات؛ كشرب الخمر، أو الزنا، أو غير ذلك؛ يكون حراما؛ لأن ما أدى إلى الشيء يعطى حكمه، والتوسط في بيع الحرام حرام، والله أعلم.

طلب زيادة الأجر على دفع الإيجار قبل تحصيله

(٣٧٧٢/٢٧٧/١٢)

عرض على «لجنة الفتوى» بدولة الكويت الاستفتاء التالي، ونصه:

ما الحكم الشرعي في ما إذا أعطى السمسار لصاحب الملك الإيجارات قبل استلامها من المستأجرين، أي من ماله الخاص من باب التسهيل على صاحب الملك إذا كان مستعجلا، ثم إذا حل وقت دفع الإيجارات استوفى حقه منها؟

فأجابت اللجنة بما يلي:

يجوز لصاحب المكتب العقاري أن يدفع قيمة الإيجارات لصاحب الملك، ثم يحيله المالك ليستوفيها من المستأجرين، شريطة أن يستوفي منهم نفس القيمة دون زيادة، والله أعلم.

بيع السمسار السلعة بأكثر من السعر الذي طلبه البائع

(٢٩٥٠/١٩٤/١٠)

عرض على «لجنة الفتوى» بدولة الكويت الاستفتاء التالي، ونصه:

نحن نعمل في مؤسسة عقارية، وتعرض لنا بعض المسائل والتي تحتاج من فضيلتكم إلى إجابة كافية نستنير بها: إذا وضع شخص بيته عندنا لنبيعه له، واجتهدنا في بيع البيت بأعلى من السعر الذي يريده صاحب البيت، فهل يحل للمؤسسة أن تأخذ فرق السعر؟ مثال: إذا كان سعر البيت مئة وخمسين ألف دينار، وباعت المؤسسة البيت بمائة وخمسة وخمسين ألف دينار؛ فما حكم أخذ الخمسة آلاف الزائدة؟

وبعد الاستفسار مع السائل فأجابت اللجنة بما يلي:

إذا لم يشترط السمسار على البائع أن تكون الزيادة عن السعر المحدد له؛ فالثمن كله للبائع، وإذا شرط السمسار على البائع أن تكون الزيادة عن السعر المحدد له، أو أن نصفها له؛ فالثمن المحدد للبائع، وما زاد عنه يعد بمثابة تبرع من البائع للسمسار، والله أعلم.

إعداد : خالد محمد

فيسبوك في المقدمة يليه تويتر ولينكد إن

دراسة: أكثر من ٧٠ مليون عربي يستخدمون شبكات التواصل الاجتماعي

قدرت دراسة إحصائية حديثة ارتفاع عدد مستخدمي شبكات التواصل الاجتماعي الرئيسية على شبكة الإنترنت (فيسبوك، تويتر، لينكد إن) ليسجل أخيرًا ما مجموعه ٧٠,٣ مليون مستخدم عربي حتى منتصف العام الحالي.

وأشارت الدراسة التي حملت عنوان «استخدام شبكات التواصل الاجتماعي في منطقة الشرق الأوسط: إحصاءات واتجاهات» إلى أن عدد المستخدمين العرب للشبكات الثلاث يبلغ ٥٢ مليون مشترك في نهاية النصف الأول من العام الماضي ما يعني أن العدد ارتفع بنسبة ٣٥٪ خلال ١٢ شهرًا.

وذكرت الدراسة التي نشرتها مؤسسة «جو-جلف» المتخصصة في مجال الويب والتطبيقات، ونشرتها باللغة العربية صحيفة الغد الأردنية على موقعها alghad.jo، أن شبكة فيسبوك استحوذت على حصة الأسد من مجموع مستخدمي شبكات التواصل الاجتماعي الثلاثة عندما شكلت حصتها من المجموع حوالي ٨٢,٥٪ بعدد مستخدمين يقدر بنحو ٥٨ مليون مستخدم لهذه الشبكة التي تجتاح العالم الافتراضي، وتلقى رواجًا وإقبالًا متزايدًا من قبل مستخدمي الإنترنت في جميع أرجاء العالم.

وحلت شبكة تويتر للتدوين المصغر (التغريدات) في المرتبة الثانية لتستحوذ على حصة ٩,٣٪ من إجمالي مستخدمي شبكات التواصل حيث بلغ عدد مستخدمي هذه الشبكة في الشرق الأوسط قرابة ٦,٥ مليون مستخدم.

وأما شبكة «لينكد إن» المهنية فاستحوذت على الحصة الأصغر من إجمالي عدد مستخدمي شبكات التواصل الاجتماعي في المنطقة مسجلة حصة ٨,٣٪ وبحوالي ٥,٨ مليون مستخدم.

وتطرقت الدراسة إلى انتشار واستخدام الإنترنت في المنطقة العربية بشكل عام، موضحة أن نسبة تصل إلى ٣,٧٪ من إجمالي مستخدمي الإنترنت حول العالم هم من الشرق الأوسط، كما أشارت إلى أن نسبة تصل إلى ٤٠,٢٪ من إجمالي سكان المنطقة هم مستخدمون لشبكة الإنترنت.

وذكرت الدراسة أن معظم مستخدمي الإنترنت في منطقة الشرق الأوسط يضعون شبكات التواصل الاجتماعي بمختلف أنواعها في سلم أولويات الاستخدام، وأشارت إلى أن نسبة تصل إلى ٨٨٪ من مستخدمي الإنترنت في منطقة الشرق الأوسط تستعمل شبكات التواصل الاجتماعي بشكل يومي.

وبينت الدراسة أن كلًا من اللغة العربية والإنجليزية كانتا الأكثر استخدامًا من قبل مستخدمي شبكات التواصل الاجتماعي في منطقة الشرق الأوسط لدى التعامل والاستفادة من خدمات هذه الشبكات، إذ أشارت الدراسة إلى أن اللغة الإنجليزية تستخدم من قبل ٤٨٪ من إجمالي مستخدمي الشبكات، بينما وصلت النسبة إلى ٤٥٪ بالنسبة للعربية.

ولدى توزيع مستخدمي الشبكات الاجتماعية بحسب الجنس يظهر أن نسبة تصل إلى ٦٥٪ من مستخدمي شبكات التواصل الاجتماعي من الذكور، فيما بلغت نسبة الإناث ٣٥٪.

ابتكار عدسة تسمح بتحويل أي هاتف إلى مجهر

الآن يمكنك تكبير رؤية عدسة الكاميرا في هاتفك المحمول إلى أكبر من ٦٠ مرة لتتحول إلى مجهر إلكتروني من خلال عدسة خاصة صغيرة الحجم يمكن تثبيتها بسهولة فوق عدسة كاميرا الهاتف كي تمنحها قدرة تكبير تصل إلى ٦٠ مرة.

وبحسب البوابة العربية للأخبار التقنية تتميز العدسة التي أطلق عليها مخترعها «توماس لارسون» اسم «عدسة الهاتف المصغرة» Micro Phone Lens بحجمها الصغير ومرونتها وسهولة حملها وإمكانية تثبيتها وإزالتها بشكل سهل وسريع.

وصُنعت العدسة من السيليكون الطري بتقنية جديدة تقدم «لارسون» للحصول على براءة اختراع خاصة بها.

وعرض لارسون، مجموعة من الصور التي تظهر إمكانات التقريب التي تتمتع بها العدسة، والتي قال إنها أصبحت جاهزة للطرح التجاري، حيث أطلق حملة للتمويل الجماعي عبر موقع KickStarter للحصول على التمويل اللازم لإنتاج العدسة وطرحها في الأسواق.

وقد حصل المشروع حتى الآن على أكثر من ١٢،٥٠٠ دولار أميركي رغم أن المبلغ المطلوب للبدء بالإنتاج هو ٥٠٠٠ دولار فقط.

وستتوافر العدسة في شهر أكتوبر القادم حيث سيتم بيعها بـ١٥ دولارا، ويعمل لارسون حاليا على تطوير الفكرة لإنتاج جيل جديد من العدسات يمتلك قدرة تكبير تصل إلى ١٥٠ مرة.

يذكر أن العدسة يمكن أن تعمل على أي هاتف بكاميرا ذات دقة ٥ ميجابيكسل فما فوق، ويفضل دعمها لميزة التركيز التلقائي، كما أنها قابلة للغسل بالماء والصابون.

طريقة جديدة لعرض الردود على تويتر

قام موقع تويتر أخيرًا بعمل طريقة بسيطة وذكية لعرض التغريدة والردود عليها بشكل يتيح للمستخدم متابعتها بسهولة وعدم تشتت، حيث قام بجعل التغريدة الأساسية للنقاش تظهر قبل الردود، ومن ثم قام بإظهار خط يربط هذه التغريدة بالتعليقات، ويظهر هذا الخط من تحت الصورة الشخصية للحساب في موقع تويتر وتطبيقاته على الأندرويد والآيفون، هذه الطريقة الجديدة ستحسن من طريقة التفاعل بين المستخدمين، والأهم من هذا معرفة من أين بدأ الحوار.

ومن التحديثات الأخرى الجديدة إمكانية إرسال حوار معين في تويتر إلى أي شخص تريد من خلال البريد الإلكتروني، وأيضًا تحسين إعدادات التنبيهات في تطبيق الأندرويد والآيفون.

تحت شعار «تذوق طعم الكتب» شبكة عربية لتشجيع القراءة

خدمة جديدة للاطلاع على الكتب، وأخذ اقتباسات منها ونشرها عبر شبكات التواصل الاجتماعي يقدمها موقع «كتب.مي» Kotob.me وهي شبكة اجتماعية معنية بالكتب الإلكترونية، تقدم أشكالا جديدة ومختلفة من سبل التفاعل بين مستخدميها، وهذه الخدمة الجديدة تساعدكم على فتح أي كتاب من جهازكم الخاص على قارئ الكتب المضمن داخل الموقع، وكذلك اقتباس ومشاركة الجمل والعبارات التي ترغبون في الاحتفاظ بها وتذكرها مع الأصدقاء والعائلة مع أفضل ما قرأتم من كل كتاب.

وتقدم الشبكة خدماتهاW! للقارئ العربي تحت شعار «تذوق طعم الكتب» و«اقرأ الآن أو اختر كتابًا من جهازك وتمتع بتجربة مختلفة للقراءة»، حيث يوفر الموقع مجموعة كبيرة من الكتب في مجالات مختلفة بالإضافة إلى متابعة إصدارات دور النشر والكُتاب المفضلين.

ومن الخدمات المبتكرة في الموقع خدمة «تذوق طعم الكتب بصوتك»، فإذا كنت تحب نقل المعرفة لمن لا يحب القراءة يمكنك تسجيل مقطع صوتي قصير لمدة دقيقتين عن أي جزء يعجبك، وتشعر أنه مفيد للآخرين، وتشارك هذا المقطع على الموقع أو على الشبكات الأخرى، وبذلك تصل الفائدة الموجودة في الكتب إلى كل أصحابك ممن لا يحبون القراءة.

القراء الأعزاء : نستقبل اقتراحاتكم ومساهماتكم التي من شأنها إشاعة الخير بين ربوع الأمة على البريد الإلكتروني:
info@alwaei.com
aelbarbary@live.com

أن تكون عبدالرحمن السميط

أن تدهس أو تسحق، أن تحاصرك وتهاجمك قوة لاهية عابثة.. أن يتم سرقة بهجتك وملابسك وأدواتك البسيطة، أن تصبح مجنونا، ومجذوبا، ودرويشا يهذي بين أدغال وغابات إفريقيا، أن تبحث عنك أشعة الشمس الأولى كي تطهرك، ثم تبحث عنك خيوط الفجر الأولى كي توقظك، أن تلمس أناملك النار أو يخترق البرد عظامك، أن تكون طبيبًا وطيبًا وسمحًا ومتخصصًا في الأمراض الباطنية والجهاز الهضمي، أن تكون أول قالب طوب في بيت فقير، وأول لقمة غذاء في فم جائع، وأول ابتسامة تستقبل بها من يدخلون الدين الاسلامي الحنيف، أن تخترق بأقدامك ونقودك وسياراتك الأحراش والغابات والمستنقعات والترع والأنهار، أن تمتطي جواد الأمل دون جواد، وأن تفتح البلدان والقلوب والمساجد دون مفتاح أو سيف أو عصا أو معركة، أن تعيش وسط الذئاب والسباع والبعوض والتماسيح والمليشيات المسلحة والقبائل المتوحشة، أن تصاحب الموت ولا يستطيع أن يقترب منك لأنك محروس وفي معية الله، أن تحيا وتعيش حياتك وسط المخاطر والأفكار الشاذة والعادات العجيبة والطقوس الغريبة، أن تحصي أيام حياتك وسنوات عمرك بمحاولات تعرضك للقتل أو للخطف أو للاعتراض أو للسرقة، أو لتفتك بك مليشيات مسلحة لا تؤمن بما تفعله أو تعمله.

أن تكون معلما، ومدرسا، وشارحا، وطبيبا، ومصلحا، وداعية، وهاديا، وسراجا منيرا، وأن يضعوا على أكتافك الأوسمة والنياشين نتيجة اجتهادك المتفرد، ويغدقون عليك الأموال والهدايا وأنت لا تنتظر لها، وأن يطلقوا عليك الألقاب والأسماء ومنها: رجل بأمة، وخادم فقراء إفريقيا.

أن تكون أول شعاع للشمس في حنانها وصفائها وقوتها وقدرتها وبهائها، وتكون أول ضوء للقمر في هدوئه ووداعته ورعايته وصفائه، أن يسلم على يديك الملايين من شعوب إفريقيا، وأن تقضي أكثر من نصف عمرك في نشر الدين الإسلامي الحنيف، فتكون بذلك هاديًا ومبشرًا وواعظًا وفاتحًا للقلوب وللبلدان ولعقول كثير من البشر.

أن يحبك جيرانك وأهل حيك ويطلقون عليك لقب «المطوع» لكثرة أعمالك وحبك لهم، أن تؤمن بأنك تحمل بداخلك الإسلام الحقيقي، وتؤمن به وبتعاليمه ونظرياته التي سبقت كل النظريات والحضارات والمدنيات، فتكتب الكثير من البحوث والمقالات في التوعية بالتطوع والعمل الخيري وسماحة الدين الإسلامي، وتتوج كل ذلك بكتبك: لبيك إفريقيا، دمعة على إفريقيا، رسالة إلى ولدي، العرب والمسلمون في مدغشقر، ثم بعد ذلك تقوم بطباعتها هي وكلمات الدين الإسلامي في كتيبات صغيرة، وتقوم بتوصيلها إلى جنوب وشرق آسيا، ومجاهل وغرب وجنوب إفريقيا.

أن تقضي حياتك في مداواة المرضى، وتضميد جراح المنكوبين، ومواساة الفقراء والمحتاجين، والمسح على رؤوس الأيتام، وإطعام الجائعين، وإغاثة الملهوفين، أن تكون مهمومًا ومشغولًا بالحلال والحرام كلما تنقلت وقابلت وسافرت، خوفا أن تهبط في جوفك لقمة حرام أو قطعة لحم غير مذبوحة على الطريقة الإسلامية.

أن تترك حياة الرغد والرفاهية والقصور والنقود طواعية، وتذهب بقدمك للعيش وسط المخاطر والمجاهل في إفريقيا لنشر الدعوة الإسلامية، وأن تكون تحركاتك وسط مجاهل وغابات وبؤس إفريقيا هي شعاع الضوء الذي من خلاله يرى العالم ما تعانيه القارة السمراء وشعوبها.

أن يكون حلمك المستحيل هو تنمية وتغيير وتطوير ووصول الدين الإسلامي الحنيف للقارة السمراء وشعوبها الفقيرة المسلوبة المغلولة، وتعمل وتجد وتجتهد حتى تحققه، وأن تزيل الصعاب وتجفف الأوحال والمستنقعات وتتخطى العقبات، وتقفز على الصخور التي يضعها الكثيرون عائقًا وسدًا في تحقيق حلمك، فتكون بذلك قد فتحت أبواب ونوافذ إفريقيا لهبوب الرياح الإسلامية والنسمات الإيمانية، فتتغلل في أوصالها وتنفذ إلى شعوبها وتغير جغرافيتها وتكويناتها.

أن تترك كل حياة الراحة والدعة والحياة الرغيدة وتقيم وسط أحراش ومجاهل إفريقيا أنت وزوجتك الطيبة الحنون العطوفة، والتي تؤمن بك وبرسالتك وبعملك التطوعي والخيري، وتعيش في بيت متواضع من القش أو الأعشاب وسط غابات وأحراش إفريقيا.

أن يكون مبدؤك هو الرحمة، ورسالتك هي التسامح، وواجبك هو نشر الإسلام، فجذبت بعملك هذا الآلاف والملايين من البشر لدين الإسلام، وأن تكون خلطتك السرية هي العمل الجماعي والتطوعي والبر والإحسان، حتى تصل إلى النجاح المذهل والفوز البهي والإسلام الحقيقي، لذا كنت تتأثر وتغضب وتكون على حافة البكاء حينما تذهب إلى منطقة ويدخل بعض أبنائها في الإسلام ثم يصرخون ويبكون على آبائهم وأمهاتهم الذين ماتوا على غير الإسلام، وهم يسألون: أين أنتم يا مسلمون؟! ولماذا تأخرتم عنا كل هذه السنين؟! كل هذه الكلمات كانت تجعلك تبكي بمرارة، وتشعر بجزء من المسؤولية تجاه هؤلاء الذين ماتوا على الكفر.

■ **محمد محمد مستجاب - مصر**

ذكر الله عنواني

وبين يديك ألقاني
أرتل بالأسى شكواي
أسكب دمعة العاني
وأرفع مقلة المحزون
مكسوا بأحزاني
أعيد القول تلو القول
يا رحمن
تلك يداي أرفعها
وذي شكواي أبسطها
فمن يا رب يسمعني
وليس سواك يرحمني
ويرعاني
وبين يديك ألقاني
حريقًا
صار بستانا
وريحًا
تسحق الوجدان
قد صارت
على باب الهدى
روضا
وإيمانا
وبركانا
من الأشواك
قد أضحى
بأمر منك
ريحانا
أسائل
حائرا
قلبي
عن الأحزان
يسألني
وهل صادفت
قبل اليوم أحزانا؟
وبين يديك ألقاني
رفعت يدي ضارعة
ووجداني
ورحت أرتل الدعوات
خاشعة
يسابقها
هطول الدمع
من قلبي
وأجفاني
رأيت يدي
عائدة
كما تهوى
وبين يدي
لطف الله
يرعاني

وبين يديك ألقاني
أنا الانسان
مغسولًا
من الأدران
مكسوًا بفيض النور
فياضًا
بذكر الله
تسبيحًا
وتهليلًا
وترتيلًا لقرآن
أرى الدنيا
بلا معنى
ومعنى العيش
أن أحيا بإيمان
ينادي القلب
يا الله
يهمسها
تلبيني
تقول الروح
لن أشقى
وذكر الله
عنواني

محمد عباس

نستميحكم عذرا...

يطيب لنفسي أن أراسل مجلتنا الحبيبة الغراء «الوعي الإسلامي» الطيبة الزهراء، التي تطوف بقارئها في تطواف يملك عليه مشاعره وأحاسيسه، وإني واحد من أولئك الذين ارتووا من معين هذه الروضة المنمقة وأزاهيرها الفيحاء المعطرة بأريج الكلمة الهادفة، وأشهد أن ثقافتي الإسلامية المتواضعة مدينة لهذه المجلة بالشيء الكثير -بعد توفيق الله وفضله- بيد أني أستميح أساتذتي القائمين على المجلة عذرا لأنبههم أن المقال المنشور للأستاذ عبدالله أيت الأعشير الذي حمل عنوان «القول المأثور في إحياء الصواب المهجور» في العدد (٥٧٧) بتاريخ رمضان ١٤٣٤هـ/ يوليو - يونيو ٢٠١٣م. قد سبق نشره بالعدد السابق له ألا وهو العدد (٥٧٦) من شهر شعبان من نفس العام، (وإخالني على صواب إذا قلت أنكم فطنتم إلى ذلك، لكن يسوغ لنا القول أن المقال أعيد نشره سهوًا)، علمًا بأن مجلتنا الرائدة قد فسحت صدرها لصاحب المقال الأستاذ الأعشير منذ عدد رمضان (٥٦٥) من العام المنصرم لينشر عبق مقالاته تحت العنوان المشار إليه آنفا.

نهيب بكم أن تتشروا هذه الرسالة في بريد القراء، على صفحات مجلتنا الرائدة في دنيا الإعلام الإسلامي الهادف، الذي ينير درب العقول لتيسير الوصول إلى الفكر الذي لا يأفل بإذن الله تعالى، الباقي الذي لا يزول.

خالد برادة (مدينة الجديدة - المغرب)

● المحرر: نشكرك أخي الكريم على حسن المتابعة والاهتمام، وقد حدث بالفعل هذا الخطأ المطبعي عند تسكين المواد الصحفية، وبمشيئة الله لن يتكرر، كما ننتهز هذه الفرصة لدعوتكم إلى المشاركة بمقالات مستنيرة تخدم أبواب المجلة التي «كما تبدو» تنال استحسانكم، بتنوع معارفها، ونؤكد لكم أن الدكتور الأعشير في زيارته للكويت أثناء عقد المجلة مؤتمر «الصحافة الإسلامية الأول» كان حريصًا على توصيل خبرته اللغوية الواسعة إلى أكبر قطاع من الجمهور الإسلامي والعربي ولذلك سنواصل نشر هذه الحلقات اللغوية «الدسمة» وقد يفيد نشرها فيما بعد لتعم الفائدة.

ينابيع المعرفة

إعداد: تركي النصر

خطورة التكفير

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «... ولهذا يجب الاحتراز من تكفير المسلمين بالذنوب والخطايا، فإنه أول بدعة ظهرت في الإسلام، فكفر أهلها المسلمين، واستحلوا دماءهم وأموالهم، وقد ثبت عن النبي ﷺ أحاديث صحيحة في ذمهم والأمر بقتالهم»

(فتاوى ابن تيمية ١٣/٣١).

ذكاء إياس القاضي

استودع رجل رجلًا مالًا؛ ثم طالبه به فجحده، فخاصمه إلى إياس بن معاوية القاضي، وقال: دفعت إليه مالًا في مكان كذا! قال القاضي: فأي شيء كان في ذلك الموضع؟ قال: شجرة؟

قال: فانطلق إلى ذلك الموضع، وانظر إلى تلك الشجرة، فلعل الله يوضح لك هناك ما تبين به حقك! أو لعلك دفنت مالك عند الشجرة فنسيت، فتتذكر إذا رأيت الشجرة.

فمضى، وقال إياس للمطلوب منه: اجلس حتى يرجع صاحبك؛ فجلس وإياس ينظر إليه بين كل ساعة وساعة، ثم قال: ترى صاحبك بلغ موضع الشجرة؟ قال: لا! فقال: يا عدو الله؛ أنت الخائن! فأمر بحفظه حتى جاء خصمه، فقال له: خذ منه حقك فقد أقر.

(المحاسن والمساوئ لإبراهيم بن محمد البيهقي).

أثر الأسماء والصفات في سنن الكون

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى: «لابد من ظهور أثر أسماء الله ووجود ما يتعلق به، فاقتضت حكمة الله أن أنزل الأبوين من الجنة ليظهر مقتضى أسمائه وصفاته فيهما وفي ذريتهما، فلو تربت الذرية في الجنة لفاتت آثار هذه الأسماء وتعلقاتها، والكمال الإلهي يأبى ذلك، فإنه الملك الحق المبين؛ والملك هو الذي يأمر وينهى، ويكرم ويهين، ويثيب ويعاقب، ويعطي ويمنع، ويعز ويذل؛ فأنزل الأبوين والذرية إلى دار تجري عليهم هذه الأحكام».

(شفاء العليل ١٩٩).

طول الخطبة وقصرها

كان ﷺ يقصر خطبته أحيانًا، ويطيلها أحيانًا؛ بحسب حاجة الناس، وكانت خطبته العارضة أطول من خطبته الراتبة.

(زاد المعاد ١٧٩/١).

موعظة خليفة

قال عثمان بن عفان رضي الله عنه: «أيها الناس، اتقوا الله، فإن تقوى الله غنم، وإن أكيس الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، واكتسب من نور الله لظلمة القبر، وليخش عبد أن يحشره الله أعمى وقد كان بصيرًا، وقد يكفي الحكيم جوامع الكلم، والأصم ينادى من مكان بعيد، واعلموا أن من كان الله معه لم يخف شيئًا، ومن كان الله عليه فمن يرجو بعده؟!»

(كنز العمال ٢٢٤/٨).

الغوغاء

قال علي رضي الله عنه في صفة الغوغاء: «هم الذين إذا اجتمعوا ضروا، وإذا تفرقوا نفعوا.

فقيل له: قد عرفنا مضرة اجتماعهم، فما منفعة افتراقهم؟

فقال: يرجع أصحاب المهن إلى مهنتهم، فينتفع الناس بهم: كرجوع البناء إلى بنائه، والنساج إلى منسجه، والخباز إلى مخبزه».

(الحديقة لمحب الدين الخطيب).

المفتي ناصح أمين

من فقه المفتي ونصحه: إذا سأله المستفتي عن شيء فمنعه منه، وكانت حاجته تدعوه إليه، أن يدله على ما هو عوض له منه، فيسد عليه باب المحظور، ويفتح له باب المباح، وهذا لا يتأتى إلا من عالم ناصح مشفق، قد تاجر الله وعامله بعلمه.

(جواز الفتوى بالآثار السلفية ١/٣٠٨).

إياكم وكثرة الطعام

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «إياكم والبطنة، فإنها مكسلة عن الصلاة، مفسدة للجسم، مؤدية إلى السقم، وعليكم بالقصد في قوتكم، فهو أبعد من السرف، وأصح للبدن، وأقوى للعبادة، وإن العبد لن يهلك حتى يؤثر شهوته على دينه»

(البصائر ٣/١٠٣).

الهجر والصفح والصبر

ذكر الله تعالى في القرآن الكريم: الهجر الجميل، والصفح الجميل، والصبر الجميل، وقد قيل:

إن الهجر الجميل هو: هجر بلا أذى.

والصفح الجميل: صفح بلا معاتبة.

والصبر الجميل: صبر بغير شكوى إلى مخلوق.

(العبودية لابن تيمية ٦٩).

من علامات فلاح العبد

كن ممن إذا أنعم عليه شكر، وإذا ابتلي صبر، وإذا أذنب استغفر، فإن هذه الأمور الثلاثة: عنوان سعادة العبد، وعلامة فلاحه في دنياه وأخراه.

(الوابل الصيب لابن القيم ص١١).

ابتسامة

ذهب أبو جوالق ليشتري حمارًا، فقال له صديقه: إلى أين؟ قال: أشتري حمارًا. فقال صديقه: قل: إن شاء الله. فقال أبوجوالق: ليس هذا موضع «إن شاء الله»، الدراهم في كمي والحمار في السوق. فسرقت دراهمه من كمه، فرآه صديقه حزينًا، فقال له: ما صنعت؟ اشتريت الحمار؟ فقال: سرقت الدراهم -إن شاء الله-.

(عقلاء المجانين للحسن بن محمد بن حبيب).

البصر النافذ والعقل الكامل

قال بعض السلف: «إن الله يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات، والعقل الكامل عند حلول الشهوات»

(قصص الأنبياء لابن كثير ص٣٢٦).

من مساوئ النفس

سبحان الله!! في النفس: كبر إبليس، وحسد قابيل، وعتو عاد، وطغيان ثمود، وجرأة نمرود، واستطالة فرعون، وبغي قارون.

(الفوائد لابن القيم ص ٧٤).

سائس الجسد

سئل الأحنف بن قيس عن العقل؟ فقال: رأس الأشياء؛ فيه قوامها، وبه تمامها؛ لأنه سراج ما بطن، وملاك ما علن، وسائس الجسد، وزينة كل أحد، لا تستقيم الحياة إلا به، ولا تدور الأمور إلا عليه.

(زهرة الآداب للقيرواني).

سلطان النفس

كريمة العرفاني
باحثة دراسات إسلامية

كم هو مستفز أن يقلل أحد من كرامتنا أو ينقص من احترامنا، فنشعر برغبة سريعة في الثأر والانتقام.. وكم هو مثير أن يستهوينا شيء نحبه ويثير إعجابنا فنشعر برغبة جامحة في وروده والإقبال عليه.. أحيانا لا نستطيع التوقف عن التهام أكلة لذيذة رغم ما قد تسببه لنا من مشاكل صحية.. أحيانا نتجادل مع أحدهم في مسألة ما فلا نكاد نتوقف عن الكلام حتى نفحمه ونشعر بانهزامه.. أحيانا تنتظرنا مهام ومسؤوليات جسام فنشعر برغبة شديدة في الركون إلى الراحة والترفيه.. أحيانا نشعر بأننا أخطأنا في حق أنفسنا أو حق غيرنا فنشعر بذاك الندم والتأنيب الشديد، وأحيانا أخرى نشعر بسعادة بالغة نابعة من سلام داخلي جميل.. ولنا قصة في كل حين.. وما كل هذه الأحيان إلا أطرافًا من أرض تلك الإمبراطورية الشاسعة العظمى التي يحكمها سلطان النفس.

لهذه النفس العجيبة القابعة بين أضلاعنا شأن عظيم، حتى إن المفكرين والعلماء أسسوا لها علمًا خاصًا بها وبنظرياتها وأحوالها وأمراضها.

وقبل أن تجيئنا نظريات فلاسفة وعلماء النفس، كان قد جاءنا كتاب الله رب النفس وخالقها بثلاثة تجليات رئيسية لها: وهي «النفس الأمارة بالسوء» و«النفس اللوامة» و«النفس المطمئنة».

جاء ذكر النوع الأول عندما اعترفت امرأة عزيز مصر بأنها أرادت إغواء سيدنا يوسف بإيعاز من نفسها «الأمارة بالسوء»، على وزن «فعالة» (من صيغ المبالغة في اسم الفاعل)، يقول تعالى: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (يوسف: ٥٣).

وعلى منوال امرأة العزيز نقع جميعًا في الأخطاء والتجاوزات التي لا ترضاها قيمنا ومبادئنا، وفي أعقاب ارتكابنا للخطأ- في مدة قد تقصر أو تطول- نشعر بشيء من تأنيب الضمير، وتحتج علينا النفس ذاتها التي أغوتنا بالأمس، واليوم صارت ترتدي ثوب التعقل والحكمة، وتشعرنا بالندم وتأمرنا بالتوبة وتصير «النفس اللوامة» (على وزن «فعالة» كذلك)، وهي التي أقسم بها الله عز وجل قائلًا: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ (القيامة: ١-٢).

والنوع الثالث من تجليات النفس هو «النفس المطمئنة»، وهي حالة من «الاسترخاء الروحي»، إن صح التعبير، نكون فيه على أقصى درجات الاتزان والسكون.. هذه النفس تطمئن لكل ما يحدث، وتؤمن بالأقدار، وتتعامل بدرجة عالية من الرقي والسلام: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ. ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً. فَادْخُلِي فِي عِبَادِي. وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ (الفجر: ٢٧-٣٠).

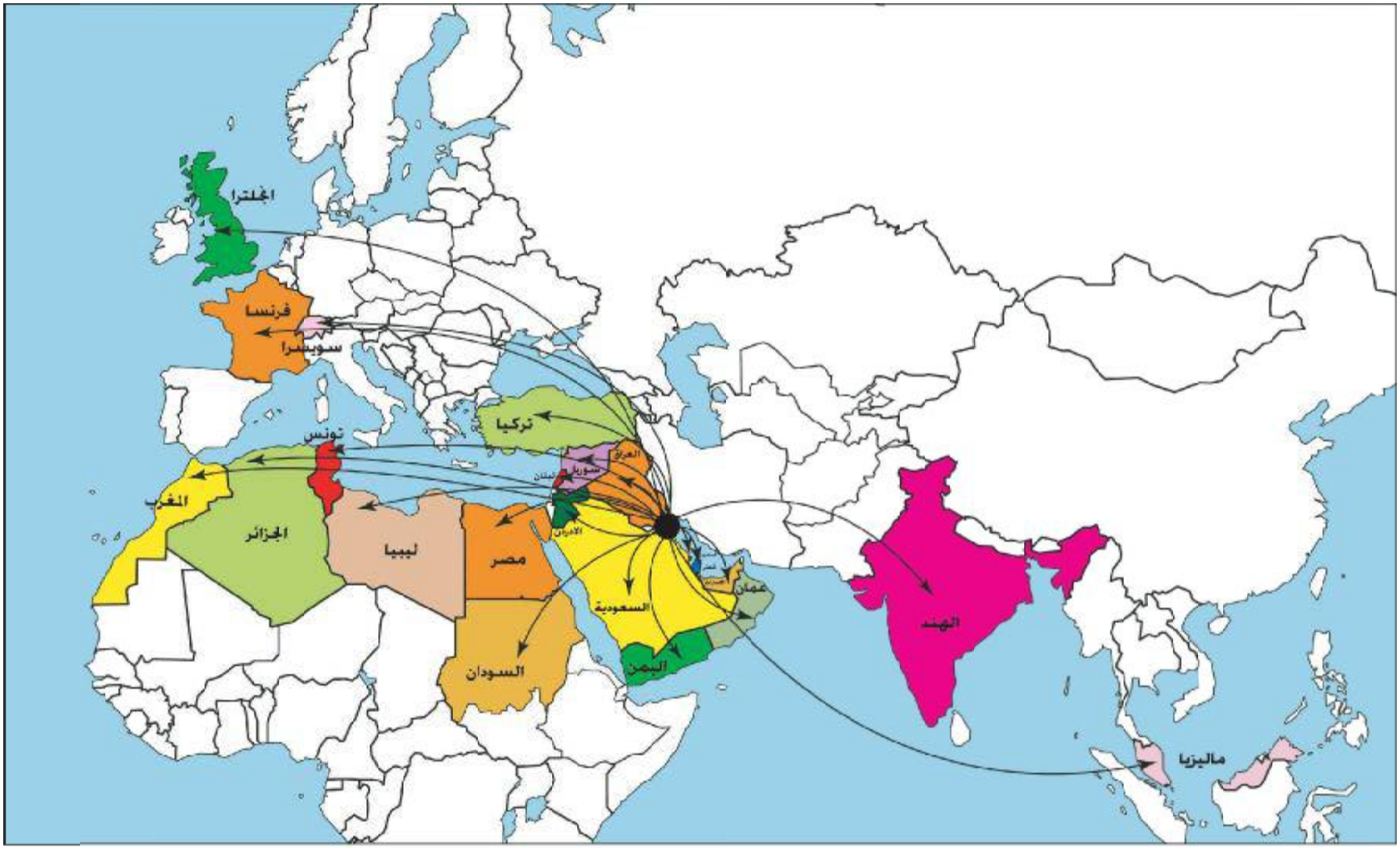

أماكن توزيع مجلة الوعي الإسلامي في العالم

الوعي الشبابي

www.alwaeialshababy.com

- مواضيع حيوية ومعاصرة
- حوارات حصرية مع الشباب المبدعين
- مقالات لأبرز الكتاب الشباب

«الوعي الشبابي» مجلة شبابية
إلكترونية تصدر عن مجلة «الوعي الإسلامي»
رئيس التحرير: فيصل يوسف العلي

للتواصل زوروا موقعنا

www.alwaeialshababy.com